أي بني

مقارنة بين ماضينا وحاضرنا

الجزء الثاني

تـأليـف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

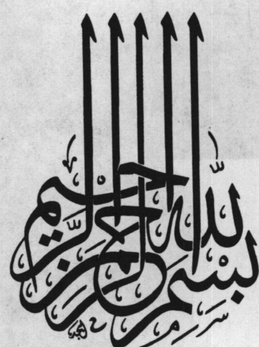
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
أي بني.. مقارنة بين ماضينا وحاضرنا . ـ الرياض.
٣٩٢ ص ؛ ١٦ × ٢٣ سم (الجزء الثاني)
ردمك : ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠
١- السعودية - العادات والتقاليد
٢- السعودية - المأثورات الشعبية.
٣- السعودية - الأدب الشعبي
أ- العنوان
ديوي ٣٩٠,٠٩٥٣١ ١٩/٢٣٢١

رقم الإيداع: ١٩/٢٣٢١
ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠

الرياض - الطبعة الخامسة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

يطلب من مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



أي بُنَيّ

مقارنة بين
ماضينا و حاضرنا

الجزء الثاني

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر





المقدمة

ما قلته في مقدمة الجزء الأول من «أي بني» يسري هنا، فهو كتاب ما فيه سيكون على نمط حديث المجالس، يأتي عفوا، ويجري سمحا رهوا، لا يصعد حَزْنا، ولا ينزل منحدرا، يسير مع الطريق المستقيم، ما لم يُغرِه بالانحناء ما يجعله يتنكبه إلى شعبة منه، تبعد به أو توردِه شعبة أخرى تعيده إلى منطلقه الأول.

لا يجدّ بحيث يملّه غير الجادّ، ولا يمعن في الهزل فلا يجد فيه الجادّ حصة له. يحاول أن يكسب هذا دون أن يفقد ذاك، همّه أن يرضي ويفيد، وهذان الهدفان يجعلانه يقظا فلا يمعن في أمر قد ترى فيه فئة وجوب عدم الإمعان أو الإطالة، ولا يقصِّر عن أمر ترى فئة أن فائدتها، أو رضاها، في ألا يقصِّر. قد يقطع حبل القول لأن نهايته لا تهمّ أو لا تفيد، أو قد تضر، ويقتصر من التّفّاحة على الجزء الذي لم يعطب، وقد

يصل حبل القول لأن الفائدة تتم بهذا الوصل، وإن كان ليس في صلب الموضوع.

وما يُحتاج إلى إبرازه في مقدمة هذا الجزء يقتصر على إيضاح أمور في معظمها تقابل رغبة بعض قرّاء الجزء الأوّل، الذين رأوا الأخذ بما اقترحوه، لأنه في نظرهم يكمل الفائدة.

لم أضع مصادر بعض المعلومات، خاصة التراث في الأدب العربي، في الجزء الأول[1]، لعدة أسباب، أحدها أنني لم أرد أن أجفل الشباب بأن هذا كتاب علمي «أكاديمي» فتثقل «طينته» عليهم. وموضع المصادر في الهوامش يخرجه عن «عفوية» حديث المجالس الذي وعدت به، إلا إذا بذلت جهداً فيما بعد في البحث عن مصدر لما وضعته بدءًا، اعتماداً على الذاكرة، وهذا ما فعلته هنا في الجزء الثاني. ولكن، رغم أني أقدمت عليه إلا أني ارتطمت

(١) هذا عن طبعة الجزء الأوّل الأولى والثانية، أما الطبعات الرابعة والخامسة، وما بعدهما ـ إن شاء الله ـ فالهوامش ملأى، وفي آخرها المراجع كذلك.

بعقبتين: الأولى أني قد لا أجد إلا مصدراً متأخراً لقصة وردت في مرجع أقدم، وأقرب للتوثيق والقبول العلمي، والثانية أني أحياناً أعجز في الوقت المحدد للبحث عن العثور عليها، فأترك ذكر المرجع، وهو نقص جرّ إليه، كما نرى، محاولة الكمال.

حاولت ألا أكثر من المراجع، وأن أختار تلك التي في متناول الشباب في المكتبات، واخترتها من الكتب التي تتّسم بالبهجة، وروح الفائدة المقنعة تحت قناع الفكاهة ما أمكن، رغبة في اجتذاب الشّباب، وتعريفهم بتراثهم، أملاً في مسالمتهم له، وهو «طُعم» أرجو أن يفيد في جذبهم إليه. وعلى غِرّة منهم أدخلت بعض الكتب التي أعتقد أنهم لو بدؤا قراءتها فستقودهم إلى مثلها، وإلى أعمق منها. إذاً هذا هدف ثان للكتاب، وهو أن يعرف الشباب شيئاً عن تراثهم الأدبي القديم، وكل الصيد في جوف الفرا؛ منه سيعرفون عن مجتمعهم القديم، ومجدهم الزاهر، وسوف يكتشفون تدريجاً أسباب المجد الذي تربّع

آباؤهم على عرشه، في يوم من الأيام.

والشباب في حاجة إلى وسيلة جذّابة، يطلون من نافذتها على تراثهم، الذي لم يُخدم الخدمة التي تؤدّي إلى هذا الغرض. فقد يعرف أحدهم عن الغرب ومجتمعه القديم أكثر مما يعرف عن مجتمع بلاده القديم، لأن الغرب خدم تراثه بكلّ الوسائل، وأخرجها إخراجاً جعل شبابهم، وأحيانا شبابنا، يلتهمونه التهاماً. لهذا أكثرت في هذا الجزء من قصص التراث، في عصر الخلفاء الراشدين وفي العصرين الأموي والعباسي، وحاولت في لحظة قصيرة، غير مهملة، أن ألفت النّظر إلى أنه ليست كل قصّة حقيقة، وألمحت إلى أسباب الانتحال، الضارة، والنّافعة. ولم أتعمق خوفاً من «التجفيل».

سوف يجد القارئ أن بعض الجوانب التي طرقتها في الجزء الأول عدت إليها مرة أخرى في هذا الجزء، لأنه توافر عندي معلومات لم ترد إلى ذهني حينئذٍ،



أو لأني لم أرد الإطالة آنذاك، واخترت أن أُفَرِّقَها. وقد يكون الاستطراد المُغْري سبباً في ذلك، في بعض الأحيان. على كل حال هذا يؤكد، حتى لا ننسى، أن الأمر حديث مجالس.

حديثي عن تُراثنا القريب يقتصر على بعض المناطق التي أعرفها، وأرجو أن يأتي من الإخوان من يتصدّى لبعض المناطق الأخرى مما يعرفه، ففيها ذخائر من التراث تعتبر جواهر، إذا ما أمكن أن يزاح عنها الغبار، وتوضع في إطار لائق بها، خوفاً من أن يقضي عليها مرور الزمن، زمننا هذا له أقدام لا ترحم، فتقارب المدن، ونزوح الناس من منطقة إلى منطقة، واختلاطهم في هذا العصر الحضاري، وعدم اقتصارهم على المناطق التي عاش فيها آباؤهم وأجدادهم، هي وسائل هذا الزمن لمحو الماضي: بأشعاره وقصصه، وأمثاله وأهازيجه، التي ترسم صورة الحقيقة، وتفسر كثيراً من المظاهر التي بدأت تبهت معالمها، بعد أن كانت واضحة وضوح

الشمس. «فناقة عريمان» مثل لابدّ أنه كان في وقته يدلّ على صاحبه، وهو معروف الأب والجد والقبيلة. أما اليوم فمن هو عريمان؟ وما هي قصة ناقته؟ لو سألت لوجدت أكثر من جواب، ولرسمت لك عدة صور، وقس على هذا كثيراً من الأمثال، والأقوال.

وقد تدارك أستاذنا عبدالكريم الجهيمان والأستاذ محمد العبودي الأمثال الشعبية الدارجة في نجد، فأحصيا ما أمكنهما إحصاؤه، وخدماها بالشرح والتفسير، وسدا فراغاً لا يسده إلا أمثالهما. وهو جهد رائد في هذه المنطقة. وللأستاذ الكبير أحمد السباعي ـ رحمه الله ـ مجهود مذكور في جمع الأمثال، ضمنها كتابه: «الأمثال الشعبية في مدن الحجاز»، وهو كتاب قيّم، يعد مرجعاً في هذا المجال؛ وهذا أمر لا يستغرب منه لأنه كان مهتمّاً بهذه الصّور الشعبية. وجاء بعده الأستاذ محمد صادق دياب فجمع أمثالاً شعبيّة في كتابه: «الأمثال العاميّة». وهي أمثال شائعة في المدن الحجازيّة أيضاً، رتبها

بطريقة فريدة، وللدكتور يوسف بن علي بن رابع الثقفي دراسة وافية عن الأمثال العربية، والمقارنة بينها وبين الأمثال العامية، في كتابه: «أهمية الأمثال في تراث الأمّة». واهتم الأستاذ يحيى إبراهيم الألمعي بالأمثال الشعبيّة في المنطقة الجنوبية، وهو جهد بارز مقدر.

ولا أريد أن أطيل في تعداد الجهود في هذا المجال، ولكنّ القلم جرني إلى حديث أعشقه تماماً، مثلما أعشق الحديث عن الجهود التي بُذلت في السابق لرسم صور لماضي بلادنا بريشة متقنين لهذا الفن الذي أرجو أن يستمر توالي الإنتاج فيه. فقد رسمت الكاتبة الاجتماعية «هند باغفار» صوراً صادقة، وأمينة، ودقيقة، ومعبرة، لجوانب من الحياة، زالت من مجتمع جده، حافظت عليها في كتابها القيّم: «رباط الولايا»، فكان عملها فريداً، يدل على نضج اجتماعي، ونظرة اجتماعية علمية ثاقبة، يؤمل قارئه أن يلحقه غيره، لأن هذه الكفاءة في هذا الحقل توجب من

القارئ التطلع إلى المزيد .

وقد بدت في مجموعة قصص الأستاذ علوي طه الصافي «أرزاق . . يا دنيا . . أرزاق» بعض الصور الجميلة، عن الجنوب ، أغرت وما أغنت ، وشوقت وما أشبعت ، ودلّت على أن عنده كنوزاً أرجو أن يجد الفرصة لعرضها ، فهو وأمثاله خير من يتصدّى لها ، فهو يملك الصور والأداة .

وقد رُسمت صور للماضي من رجال عاصروها ، وانطبعت في شعورهم ، وأدوها على خير ما يتوقع منهم ، وقاموا بحقها عليهم ، فالأستاذ أحمد السباعي - رحمه الله - في كتبه وأقربها إلى ذهني «خالتي كَدَرْجَان» و «أوراق مطويّة» و «أيامي» و «دعونا نمشي» رَسَم فيها كثيراً منها ، والأستاذ الكبير عزيز ضياء في كتابه «ماما زُبيدة» له سهمه الوافر ، وأنا هنا أعطي نماذج ، ولا أحصر .

وللأستاذ الكبير عبدالكريم الجهيمان يد طولى في



جمع بعض القصص الشعبي، في منطقة نجد، بمقدرة وجدارة، وعمله رائد، تركز فيما كان على لسان الأمهات من قصص يسردنها على بناتهن وأولادهن. وقد حَفِظ بهذا تراثاً ضخماً وسوف يكون عمله مرجعاً لا يستغنى عنه، ومجرد تفكيره فيه يدل على صفاء ذهن، ونظرة صائبة للمستقبل الفكري، وما يحتاجه.

وللأستاذ فهد المارك ـ رحمه الله ـ جهوده المشكورة، في جمع ما كان متناقَلاً بين خيام البادية، وعلى ألسنة الناس، مما لا يقدر بثمن. لقد كان هذا الرجل فريداً في اهتمامه بهذه الأمور، في مجتمع قليل فيه من يلتفت لها ـ رحمه الله ـ لقد كان دؤوباً، وترك إرثاً أدبياً، وتاريخياً لا يستهان بهما.

وفي ختام هذا الحديث عن الجهود التي بُذلت لرسم صور التراث، في مجالاته المختلفة، لا أنسى ما قام به الأستاذ حمزة محمد بوقري من رسم مجتمع مكة المكرمة، مما انحفر في ذهنه ـ رحمه الله ـ عندما

كان صغيراً. لقد كان كتابه «سقيفة الصّفا» إبداعاً في هذا المجال، أدى إليه إتقانه ثقافته في القصّة. إنه كتاب فريد حقاً.

وللأستاذ محمد زارع عقيل في كتابه: «بين جيلين» يد على التراث، لقد صاغه بأسلوب جذّاب، استطاع به أن يعد من الروّاد.

والقبول الذي لقيه الجزء الأول من «أي بُنيّ» شجّع على سرعة إنهاء الجزء الثاني هذا، وهذا القبول جاء في مظهرين: أحدهما فيما أظهره بعض الإخوان النبلاء في إبداء لرأيهم في الصحف، أو بالكتابة إليّ، والثاني في إقبال الشباب عليه وحيازته. وهذا أمر يثلج الصدر في كل من جانبيه، فكتابة الإخوان عنه تدلّ على عناية منهم، أسأل الله أن يثيبهم عليها، وقراءة الشباب له يعني أنه أدّى ما قُصد من أجله.

هناك أمر لا أخفيه، لأنه كان من الجوانب التي سمعت عنها مدحًا كثيراً عن الجزء الأول؛ لقد



رضي كثيرون عن الحرف وحجمه، وأسعدني هذا، لأنّ جعله بهذا «البنط» كان مقصوداً، فليس كل من يقرأ الكتاب شباباً، وليس كل شاب نظره قوي؛ ومن هو في سني، أو أكبر، يعرف المعاناة من قراءة الكتب ذات الحرف الصغير، إنه يذهب بلذة القراءة، ويقضي على جزء كبير من التّمعّن، ويوحي بأنه مقصود أن لا يقرأه إلا فئة معينة ممن منَّ الله عليهم بقوة البصر، والشباب؛ ان الشيوخ هم أكثر من يقرأ، ومن حقّهم أن يحسب حسابهم على الأقلّ في كبر حجم الحرف، وجمال تنسيقه.

هذه مسألة قد يراها بعض الناس تافهة، ولا تستحق أن تذكر، وقد يعتذر بعض النّاس، بحقّ، بتكاليف الطبع، وكبر حجم الكتاب، وهذا صحيح، ولكنه في رأيي ليس ثمناً لإحجام كثيرين من اقتناء الكتاب، لصغر الحرف، أو ثمناً للبدء بالقراءة، ثم وضع الكتاب جانباً. وكتاب يقصد به ثمنه، لا فائدته الفكرية، كتاب منزوع البركة، وهو إلى أن



يوصف بأنه مبتور أقرب.

لا أريد لهذه المقدمة أن تطول، فهي إذا قُرِئت مع مقدمة الجزء الأول كافية في التعريف بالكتاب، وما فيه، فإن وَجَدَ هذا الجزء من القراء ما وجده أخوه فهو ذو حظ عظيم، والحمد لله أولاً وآخراً.

عبدالعزيز الخويطر

***



النخلة

أي بُنَيّ!

انتهينا يا بنيّ[1] ، من الحديث عن أمر خيّر، وهو الأمن والاستقرار، وندلف الآن إلى أمر خيّر آخر، فيه الخير والبركة، شجرة مباركة ألفتنا وألفناها، عرفتنا وعرفناها، أعطتنا وأعطيناها، وفت لنا ووفينا لها، هي عمّتنا، ونعم العمّة هي[2] :

النّخلة، يا بنيّ، وهي ما عنيته بالعمّة. تاريخنا مرتبط بها، وماضينا متزامن معها. في كل حقبة من ماضينا لعبت دوراً بارزاً. كانت ملكاً يفاخر به ويكاثر، ومصدر خير يتوارث، تشيخ وتشيب، ويحل نسلها محلها. أصلها ثابت وفرعها في السماء، أنفها يداعب الشمس والغيوم، جدائلها تمازح النسيم،

---

(١) في آخر الجزء الأول من كتاب: «أي بُنيّ».

(٢) يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «نِعمت العمّة لكم النّخلة، تُغرس في أرض خوارة، وتشرب من عين خرّارة». وقال ـ صلوات الله عليه ـ: المُطعمات في المحل، الراسخات في المحل». البيان والتبيين: ٢/ ٢٠.

عِطفها معها يتمايل كغصن بانٍ هزّه الفرح، وحرّكه السرور، لأغصانها حفيف يطرب آذانا موسيقية طالما ابتهجت بسماع هذه الأنغام. آه، يا بنيّ، لو أمعنت النظر، والرياح العاتية تحاول أن تقتلعها، وهي تصارع يمنة ويسرة، تقف ثابتة للريح، وتميل متعاطفة متعطفة مع الهواء، تلمح ثقتها بنفسها وهي تجاهد، وكأنها تهزأ بهذا المهاجم القاسي.

وتراها آونة أخرى هادئة، تحنو على الطيور، وأوكارها، وما في أوكارها، وتطل بأَنَفَة واعتلاء على ما حولها وتحتها، وتراها وكأنها تبتسم وهي ترى «الخارف»، جاني الثمرة، يصعد بيديه ورجليه أو «بالكر»، وهو أداته للصعود، تبتسم كأنها أم حنون على وشك أن ترضع ابنها. ان هذا الفلاح هو ابنها، أو أبوها، يا بنيّ، ألم يعتن بها عندما غرسها صغيرة، ودفّأها عن برد الشتاء وهي نبتة، وجللها عن حرّ القيظ وهي غضّة؟ ألم يسقها حتى ترتوي؟ ألم يسمّدها بخير ما عنده من ذلك؟ ألم يعمّق حوضها

لتشرب أكثر؟ ألم يحرث حوضها لتشمس أكثر؟ ألم «يكرّبها» وإزالة الكَرَب منها مثلُ «جَلْيِ» وجه العروس، وتضفير شعرها. ألم «يشوّفها»[1] من الشوك؟ ألم «يلقّحها» عندما بدأت «كوافير» ثمرتها تبرز؟ ألم «يكمّها» لتحتفظ باللقاح حتى يؤثّر فيها؟ ألم يزل الكَمَام بعد الوقت المعين؟ ألم يرشّها بمحلول الكبريت الموزون، حماية من مرض طارئ؟ ألم يخفّف عنها العبء، عندما وجد أن «الدّومة»[2] التي عليها سترهقها؟ كان يقص منها بعض «العُذوق»، أو «الشماريخ»، وكأنه يقص أعضاءًا من جسده، يضغط على عاطفته فلا يرحمها، رحمةً بها، يريد لثمرتها أن تكبر، ولجسمها ألا يُنهك، وليكون مستعداً للعام القادم؛ منظر جمّارها يسرّه، ومنظر بسرها يُطربه، ومنظر «اللّون» وقد بدأ يتميّز يرقصه، ويبدأ «النّقاط» في «اللّون»، فترتسم على شفته ابتسامة لا يعدلها إلا

(١) اصطلاح عامي بمعنى يزيل الشوك من العسبان.

(٢) إذا كثرت القنوان وتراصت وازدحمت سميت بذلك.

ابتسامة العصفور، وقد صمم أن يحيلها غَدًا إلى «نِقادة»، ويُقبّلها بمنقاره، فيختلس في غفلة قطعة من شفتها، تستقرّ في حوصلته، ومن يدري فقد يطعم منها أولاده، ويجور عليها بالقبلة أحياناً، فلا ينزع منقاره إلا وقد انفصلت من أمها، وسقطت على الأرض، وكأن بينه وبين ابن الفلاح اتفاقاً، ومؤامرة، فيكمل الإنسان الصغير (الطفل) ما بدأ العصفور الكبير، ويدعو له دعاءً ليس من داخل القلب، لأنه كان يعد «خِيّة»، «حُبّالة»: مصيدة لصيده. وهذا منطق الصغار، يا بنيّ، وفاء يحوطه غدر، وأنفة يغلفها طمع، وعندما يكبرون يختفي من هذه الخلطة أحد عناصرها، فيصبح أحدهما وقد ذهب بصاحبه يمينا، والثاني يساراً، والله يجعلنا وأنت من أصحاب اليمين.

ألم يطعها الفلاح، يا بنيّ، عندما قالت له وهو يهم بغرس أختها: «إبعدها عني، وخُذ حقّها منّي»؟ عهد قطعته على نفسها، لم تخنه لا في الغيبة، ولا في



الحضرة، حفظت العهد وصانته. وأعطته، وقد أعطاها البراح، والسّعة، الخيرَ الكثير. أعطته من ثمرتها ما سرّهُ، بعد أن أعطاها من المكان ما سمح للنسيم أن يطرقها، وللشمس أن تدفئها وتؤنسها؛ تتنافس مع أخواتها في المسابقة على مصافحة أشعة الشمس في الصباح، أشعة الولادة والنّشاط، ولهذا تجد الواحدة تنمو وترتفع، يغذيها الماء والسماد في سباقها هذا، ولا تنسى النّخلةُ، وهي في هذا السباق، أن تهيىء لأولادها، وثمرتها ما يحتاجونه. كل شيء يتم في وقته من السنة.

وقد تمسك في سنة من السنوات إنتاجها، إما احتجاجاً على إهمال بَدَر من أهلها لها، أو غفلة ارتكبوها في حقها، أو صدود أجبرهم عليه ظرف من الظروف، يظهر هذا في نقص الماء أو السماد عنها، فينقصها الريّ والنّماء، وتستريح ذلك العام من الإثمار، ولكنها لا تنسى نصيبها من الطول والارتفاع، لأن هذا الجانب موكول إليها، وليس

إلى المزارع، فهي إن لم تطل تعدتها أخواتها، وظلّلن عليها، وهي تأنف من هذا، وتأباه. يا بنيّ، هناك سباق حام، ولكنه صامت بين الشجر عموماً في محاولة البروز للضوء والشمس، وكأنّها عرسان تتنافس الأشجار عليها، أرأيت، يا بنيّ، كيف أن الأشجار في الغابات أحياناً طويلة ورفيعة، إنه يا بنيّ، التحاسد والتنافس، ومحاولة الصعود للتملّي من الضوء، وهي لا تلام، يا بنيّ، الضوء على اسمه ضوء، بهجة للعين، والنفس، والروح، والبدن.

والنخلة، مثل غيرها من الشجر، يا بنيّ، مثلما تحرص على استقبال أشعة الشمس الشارقة: أشعة الولادة والنّشاط، كما قلنا، لا يفوتها أن تشهد أشعتها الغاربة، أشعة الاصفرار والموت. فهي وفيّة، يا بنيّ، مثلما تستقبل تودّع، ومثلما تهنّئ تعزّي، «لا تفخت»[1] يوماً، ولا يفوتها لحظة، إلا إذا الشّمس نفسها آثرت الاحتجاب، وحتى في ذلك الوقت

(١) هذه كلمة عامية في نجد وتعني «تخلف» أو «تترك».



تبقى النخلة، وفيّة لمصدر الضوء مهما كان ضئيلاً، تتبعه بدقّة وعناية، وكأنها ضعيف بصر طلب منه قراءة خطٍّ كتابته دقيقة، ترى الاجهاد عليها في حدبها ومتابعتها. لا تظن أن ما أقوله تصوّرٌ وخيالٌ، أنظر جيداً، وقس قياساً دقيقاً، وسترى أن ما قلته صحيح.

ولأني أسهبت، يا بنيّ، في بعض جوانب النّخلة، في الدقائق الماضية، وسوف يتبع ذلك حديث عن جوانب أخرى، وهذا قد يكون مدعاة لملَلِك، والملل عدوّ يجب أن يُحذر، وما يقضي عليه إلا «الإِحماض»، وسبق لك أن تعرّفت على الإِحماض، وعرفت كيف أن الإِبل، إذا أكثَرَت من النبات، وبَحَثَت عنه، وأوجعته أكلاً وقضماً، وَزَنَت بهذا أمر غذائها، وعدلت كفة المالح أو الحامض مع الحلو. والحمض هو أحب نبات الإِحماض عندها.

وغذاء الفكر، لا يقلّ أهمية عن غذاء الناقة لجسمها، بل يزيد من وجهة نظرنا، نحن البشر،

وإحماض الأذهان أن تأخذ بسبيل آخر مختلف عما هي فيه، فإن كانت آخذة في الجدّ، وأطالت مالت إلى جادة الهزل قليلا، وإن أكثرت الحديث عن أمر مؤلم «فثلته»، وكسرت حدّته بشيء مفرح؛ ولسنا بدعاً، أنا وأنت، في هذا، فقد قال أحد الحكماء، كما سبق أن أخبرتك: «حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدثور»[1].

وإحماضنا، يا بنيّ، لن يكونَ بعيداً عن النّخلة ما دام حديثنا عنها، إلا ما قد يجره الحديث عنها إلى غيرها، وهذا ما لن أعرفه، أنا أو أنت، إلا عندما يحدث؛ وأنت، يا بنيّ، تعرف جيّداً مدى رسوّ النّخلة في الأرض، وتمكّنها، مع الزمن، من الثّبات، وتعرف مدى ضخامة جذعها، وانتشار عسبانها، ومع هذا فكما قد سمعت أيضاً أن هذا كله لم يمنع بعوضة، وقد حطت بجسمها الهزيل، ووزنها الحقير، الذي لا يصل إلى وزن قطمير، أن تظن أنها قد أجهدت

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٢٣.



النّخلة بوقوعها عليها، وحمّلتها فوق ما تطيق؛ وجانب الرحمة في قلب هذه البعوضة، وحبها للإنصاف، وعطفها البعوضي، جعلها تتعطّف على النّخلة، فتنذرها، وتخبرها أنها ستطير، وأن على النّخلة، حتى لا يختل توازنها، أن تأخذ حذرها، وتتمسك جيداً، حتى لا تقع من صدمة المفاجأة، ومن قوة الإنطلاق، فهي لم ترد لها أن تؤخذ على غرّه.

أرأيت، يا بنيّ، إلى أيّ مدى تصل الثقة بالنفس، إنها تُدخل حدود الغرور أحياناً، ومع هذا، يا بنيّ، فكما ترى، فالبعوضة، بصوتها الضعيف، أسمعت النخلة، التي آذانها أطول من آذان الفِيلة، فلقد أجابتها النّخلة بأنها لم تدر، من قبل، أنها حطت عليها، فمن باب أولى ألاَ تشعر باقلاعها عندما تطير.

قصة البعوضة مع النخلة قصة متواترة عند العامة، يكاد لا يمر يوم دون أن يسمعها المرء في مجلس أو آخر: «قالت البقّة للنخلة: تمسكي أبي أطير، قالت:

ما دريت أنك وقعت حتى أتمسك عندما تطيرين».
ولها أصل عربي أورده صاحب «ثمرات الأوراق»، يقول بعد حديث طويل:

«. . . وأما وعيدك، فإنما مثلك كمثل بعوضة وقعت على نخلة، فقالت لها:

استمسكي، فإني أريد أن أطير.

فقالت لها النخلة: ما علمت بوقوعك، فكيف يشق عليّ طيرانكِ»[1].

حقّاً، يا بنيّ، إن التواضع سِمة العظماء، سِمة الممتلئين بقناعة النّفْس، فليس في نفوسهم تجويف يحتاج إلى ملء، ولا فراغ يحتاج إلى حشو، وكفّة موازينهم لا تحتاج أن ترجّح بأمور مصطنعة؛ ليس عندهم مركّب نقص يجعلهم يُغطّونه بالتظاهر، ولا يحجبونه بالتكلّف. هؤلاء يقيمون جسوراً إلى القلوب، لا يهدمها ما يقوله المتكبرون من أن التواضع

(١) ثمرات الأوراق: ٦٤، راجع أيضاً معجم الأدباء: ١٧/ ٦٥ حيث أورد صاحبه قصة مماثلة عن البقة والفيل.



مسمار يدقّ في صرح المهابة. فهذا رأي أجوف، وبريقه خُلّب، مثل خضراء الدِّمَن، التي سبق أن تحدثنا عنها. وكُتُب التراث، يا بنيّ، ملأى بأخبار التواضع والمتواضعين، والفضيلة التي يجنونها من تواضعهم، وليس هذا مكان التفصيل؛ وأختم هذا بقول أحد الحكماء: «ما تعاظم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصاغر لمن فوقه»[1].

فلنعد الآن، يا بنيّ، إلى العمّة، أبقاها الله لنا، وأكثر من أمثالها، وحسّن من نسلها.

فالنخل، يا بنيّ، قبائل، وأفخاذ، و (عوائل): أسر، وأفراد؛ تنضوي مجموعة منها تحت مسمى «نَوايع»، وهي أحسنها، وكأن الاسم جاء من انتقاء النوعية؛ ومجموعة تحت اسم «السّلّج»، وثالثة تحت اسم «الدّقل»[2] وهَلُمَّ جَرا. بعضها يُؤكل «خَرَافاً»

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٢٢.

(٢) ذكر أبو حنيفة الدينوري في مؤلفه: «كتاب النبات»: «أن كل ما لا يعرف اسمه من التمر فهو دقل، واحدته دقلة، وهي الادقال» نخلة التمر: ٢٩.

بِسراً، ومُنَصِّفا، ورُطَباً[1] . يؤكل طريّاً، أو يكنز في الثلاجات؛ أو مضغوطاً؛ وبعضها لا يؤكل إلا مُنصِّفا أو مُرطِّبا. وبعضها أفضل ما له من الاستعمال أن يكنز؛ بعضه أحمر، وبعضه أصفر؛ بعضه الرطب منه أقرب إلى الاحمرار، وبعضه إلى السواد. بعضه يكاد يكون أحلى من العسل؛ وبعضه حلاوته موزونة؛ بعضه حجمه كبير، وبعضه حجمه صغير، بعضه نواته صغيرة، وآخر نواته كبيرة، بعضه نواته طويلة، وبعضه نواته قصيرة. تنقل النخلة من منطقة إلى منطقة، فتتغير طبيعتها قليلاً، لاختلاف التربة، أو الماء، أو كليهما، فتُعطَى اسماً جديداً، وقد تُعطى اسم ناقلها؛ تنقل غريسة: إما فسيلا، أو «جثيثاً»، أو تنقل «عيدانه»[2] كما هو حاصل الآن، بعد أن

---

(١) عدد أحد الناظمين مراتب التمر، وأطوار نموه بقوله:

أول حمل النخل طلع يبدو ... ثم سياب فخلال بعد
بغو فبسر فمخطم يلي ... ثم موكت بِتُذنوب تلى
فجمسة فثعدة فرطب ... وبعده التمر أخيراً بحسب

نخلة التمر: ٣٦.

(٢) العيدانة النخلة أطول كثيراً من الفسيلة، وذات عمر أطول.

أدخلت الرافعات، وصار بالإمكان نقل بستان كامل، نخله أعلى من الدور الأول أو الثاني من البيت؛ بعض النخيل تراه مستقيماً في الماضي، أو معوجاً، أما الآن فلعل ما صحح أبدان الناس صحح أبدان النخيل. وترى النخلة مستقيمة لا عوج فيها ولا أمتاً[1].

كانت النّخلة في الماضي، رئيسَة في حياة الناس، لأن غذاءهم الرئيس فيها، الوجبة المؤكّدة في اليوم هي وجبة التمر، وما قد يأتي بجانبها من ماء أو لبن، وقد يصحبها عند الموسرين، خبز وزبد، تقدم في وقت الموسم رطباً جنياً طازجاً، وتقدم في غيره مما هو مخزون بطرق مختلفة، أشهرها ما هو مكنوز في «الجِصّة»، وهي بناء من «فُرُوش» الحصى، رقيقة إلى حد ما، تقام كأنها جدران لها، تلحم من جوانبها

(١) وذكر أحد الناظمين نموّ النخلة فقال:

فسيلة قيل لصغرى النخل ... وفوقها قاعدة تستعلي
جبارة عيدانه والباسقة ... فوقهما ثم السحوق الشاهقة

نخلة التمر: ٣٦.

المختلفة بالنورة المطفية، أو الأسمنت، ولها باب يُدخل التّمر منه، والدّبس الذي يرش عليه، والحصى الذي يوضع على أعلاه، ليضغطه حتى لا يتخلله هواء، يدخل بسببه الفساد، من سوس وإخمار. و «للجصّة» ثقب في أسفلها يتحكم فيه لخروج الدّبس عند اللزوم. والدّبس هو عسل التّمر، وله استعمال متعدد الجوانب. وعندما يأتي الشتاء يأتي وقت الاستفادة من مخزون التّمر في الجصّة، فيؤخذ منه يوميّا بقدر الحاجة، حتى يأتي الموسم التّالي، «ويُجدّ» النّخل، وتُقطف منه الثمرة بطريقة عامة جماعية، وقد يجفف إذا كان من النوع الذي يصلح معه التجفيف، أو «يُغمى» ويكنّ في قدور أو صفائح، بطريقة خاصة، يضمن معها عدم فساده، أو دخول الخلل إليه.

أراك، يا بنيّ، تلهث خلف هذه الجمل المتتابعة عن النّخلة، وطلعها الهضيم، وخزنه وكنزه، وأرى المعلومات تكاثرت عليك عن أنواعه وألوانه، وكان الأمر عندك في العادة لا يعدو أن تمد يدك إلى ما على



المائدة منه، فتختار ما يبهى في نظرك، فتوغل في أكله، إذا ما حلا طعمه في فمك. ولم يكن يخطر ببالك أن هناك معلوماتٍ يمكن أن تتكاثر عليك تكاثر الظباء على خراش المسكين، فلم يدر أيهن يصيد. ولكن سنقف قليلاً «لتلتقط نَفَسَك» كما يقولون (كأنه قد وقع على الأرض، وانحنيت تجمع شتاته، وتلم فتاته!) سنقف قليلاً لنتروّى من التّراث، مما قيل في النّخلة ورطبها، لننير جوانب حديثنا بإضاءات من قناديل ذلك الزمن، نثراً وشعراً. وسنقتصر على القليل منه، حتى لا نبعد عما نحن فيه، فتصعب العودة، وقد ننسى ما نحن بصدده:

وصف خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان النّخلة، وطلعها، في عرض ما وصف به البصرة، قال:

فأما الرطب، عندنا، فمن النّخل في مبارِكِه، كالزيتون عندكم في منابِتِه: هذا في أفنانه كذلك على

أغصانه. هذا في زمانه كذاك في إبّانه؛ من الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، الملقحات بالفحل، يخرجن أسفاطاً عظاماً، وأوساطاً ضخاماً، ثم يتفلّقن عن قضبان الفضة، منظومة باللؤلؤ الأبيض ثم تتبدل قضبان الذهب، منظومة بالزبرجد الأخضر، ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر، ثم تصير عسلاً في شنة من سماء، ليست بقربة ولا إناء، حولها المذاب، ودونها الحِراب، لا يقربها الذباب، مرفوعة عن التراب. ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال، يستعان به على العيال[1].

ويروي مؤلف كتاب نخلة التمر، وهو نفسه من بلد التمر الأول، العراق، الذي تعدّى عدد النخل فيه، في يوم من الأيام، خمساً وثلاثين مليون نخلة؛ ومن العراق انتشر عدد من أنواع النخل الفاخر، إلى أقصى العالم، وأهمه أنواع البَرحي، يَروي هذا

(١) نخلة التمر: ٣٠، قال رسول الله ﷺ: «خير المال سكة مأبورة، وفرس مأمورة» السكّة: الصّفّ من النخل. مأبورة: ملقحة. مأمورة: كثيرة النّتاج والنّسل. البيان والتبيين: ٢/ ١٩.

المؤلف أن أعرابياً رأى دقيقاً وتمراً، فاشترى التمر، وعاف الدقيق، فقيل له: «كيف وسعر الدقيق والتمر واحد؟» قال: «إن في التمر أدمة، وزيادة حلاوة»[1].

وقال ابن وكيع متبصراً في بسر النخلة:

أُنْظر إِلَى البُسْرِ قَدْ تَبدَّى ... وَلَوْنُه قَدْ حَكَى الشَّقِيْقَا
كَأَنَّمَا خُوصَه عَلَيهِ ... زَبَرْجَدٌ مُثْمِرٌ عَقِيقًا[2]

وقال إلياس فياض في شعر حديث:

وَلِلنَّخْلِ مَنْظَرٌ مَهِيْبُ ... تُرَاعُ فِي جَمَالِهِ القُلُوبُ
فوق الضِّفَافِ ظِلُّلها رَهِيبُ ... صَفًّا بِصَفٍّ زَانَهَا التَرْتِيْبُ
مِنْ كُلِّ جبَّارٍ عَظِيمِ القَدْرَ
تَحْسَبُهَا مَرَدَةً طُوَالاً ... تَحْتَ مَظلاَّتٍ زَهَتْ جَمَالاً
للنّهرِ جَاءَتَ تَبْتَغِي اغْتَسَالاً ... سحَرَهَا النَّهْرُ فَلَن تَزَالاَ
واقِفَةً هُنَا بِفِعْلِ السِّحْرِ[3]

---

(١) نخلة التمر: ٣١.

(٢) نخلة التمر: ٣٨.

(٣) نخلة التمر: ٣٨.

وهذه أبيات لرجل من بلد مثل بلادنا، يقدر أهلها التمر، ويعلون مقامه، له في تلك البلد، وهي عُمان، منزلة النخل عندنا، يضعونه فوق الرؤوس، ومقامه في تجاويف الصدور، وحبه في شغاف القلوب. إذا توغّلْتَ في واحات الجبل الأخضر، أبهجك ما ترى من باسقات النخيل في واحاته، وكأنك في واحات نجد، أو في وديان الحجاز، يقفز قلبك في وثبات طرب ومرح، وأنت ترى النخلة في اخضرار داكن من الصحة والسلامة، وترى طلعها، وقد تحملت به القنوان، منظر البسر قد حرّك ما سكن من شاعرية هذا الشاعر من أبناء عمان، فقال الأبيات الآتية في البسر الأصفر:

أَمَا تَرَى البُسَرَ الَّذِي ... قَدْ جَاءَنَا بِالعَجَبِ
مَكَاحِلاً مِن فِضَّةٍ ... قَدْ طُلِيَت بِالذَّهَبِ[1]

لا تفاجأ، يا بنيّ، بانتقالنا عبر هذه المسافة البعيدة، فنحن في زمانكم، وطبيعته وإنجازاته؛

(١) الزمرد الفائق: ١/ ١٩١.

الانتقال المفاجئ صفته، يذهب المرء بعيداً، ويعود سريعاً، لا غرابة، فهذا زمان الصواريخ، وللأفكار صواريخ أيضاً.

والتمر «اليبيس» المجفف منه نوعان مشهوران، يبيس السكري، وهو أجودها وأغلاها، ويبيس الصعقي[1]، وهو دونه في القيمة، ولعل هذا بسبب كثرته، وإمكان استيراده من بعض البلدان المجاورة حيث يتوفر؛ وفي الماضي كان هذا النوع من التمر المجفف زاداً رئيساً للحجاج، والمسافرين، والغازين، لصبره وتحمله، وعدم وجود مؤونة في تحضيره، وبإمكان الفقير والغني الحصول عليه من أنواعه المختلفة، كلٌّ وقدرته. وهو أقل مؤونة على ربّة البيت، التي يجهدها «الكليجا» وتقريصه، وهو نوع من البسكويت الوطني. كان الكليجا يؤخذ زاداً للحج خاصة، يهيأ عند قرب موسمه، ويعد، ويعمل من الدقيق البّر، ومن السّمن والسّكر، مستدير في

(١) انتشر حديثاً أنواع أخرى: نبتة علي، ونبتة راشد، والرشودية.

شكله، وعليه «طبعة» زخرفية تجمّله. ونَقْل التمر بالطريقة الموصوفة، واستعماله لهذا الغرض، يشبه ما يجلبه الحجاج في الماضي من خارج الجزيرة، من المشمش المجفف، والتين المشمّسْ.

وإذا سمعت، يا بنيّ، أن النخلة مباركة، أو أنها كلها بركة، فصدّق، يا بنيّ، لأنه ليس فيها شيء لا يستفاد منه. فجذعها عندما يُقطع يستعمل لأغراض متعدّدة، منها أنه يستعمل أبواباً للبوابات الخارجية، التي لا تحتاج إلى زبرقة وتجميل، ويستعمل جسوراً على بعض السواقي في «الحيطان». وعسبانها لتسقيف السقوف، بعد أن تجفف هذه العسبان، وخوص العسبان «تسفّ» منه «الحصر» التي يُجلس عليها، وتعمل منه «السُّفَر» التي يؤكل عليها و «المهافّ»: المرواح، التي يتبرد الناس بهوائها، «والمحادر» أو «الزنابيل» التي تحمل فيها المؤونة، «والقُفَف» التي تخزن فيها المؤونة أيضاً. بل ويعمل منه أحذية، وسجاجيد للصلاة، وفرش للبيوت، «ومراحل»



تؤدي خدمة «المزاود» وتوضع متوازنة على جنبي الدابة، بعيراً أو حماراً.

و «الجِذمار» أو «الرّمح»، وهو العسيب الذي «سُلِتَ» خوصه منه، وأُبعد، له أدوار يلعبها كثيرة، من أهمها أنه يصفّ صفوفاً منتظمة، توضع فوق خشب السقف مباشرة متراصّة، ويوضع فوقها عسبان تكون بينها وبين ما يوضع من الطين فوق السقف، أرضية للدور الأعلى أو السطح. ويستعمل الرمح عصاً يساق بها الحيوان. وقد يساق بها الإنسان، فهي أداة المعلم في الكُتّاب، فالمعلم يجلس على «حِبْس» أو مرتفع، ولكبر سنّه أو كسله، إذا أراد أن يُنبّه تلميذاً، لاحظ أنه لا يردّد حفظه من القرآن، أهوى إليه بهذا الرمح، يناله وهو بعيد؛ ولهذا، يا بنيّ، فهذا الرمح عدو التلاميذ اللدود؛ إسمع هذه القصة:

كان أحد أقربائك، وأقرباء أبيك، يدرس عند

معلم في أحد هذه الكتاتيب، وكان رجلاً كبيراً في السنّ، وقريبك هذا مثل بقية أقرانه قد ملأ سواعده «بالقِدَاح» وهي حروق يصيب بها الشاب نفسه، بأن يطوي قطعة قماش، في ثخانة القلم أو أكثر، حسب نصيبه من السنّ، والشجاعة، ويوقد في طرفها النّار، بعد أن يضعها على ساعده، وينتظر صابِراً، ومراقَباً من زملائه، ومن محكّمين، حتى تنطفئ على جلده، فيقشر الجلد، ويضع «طفو» النار من الرماد على الجلد المحروق، والفخر قد ورّم أوداجه، والعزّة قد رفعته من الأرض.

وقد يلتئم الجرح بسرعة، لأنه لم يتلوث، أو لأن الشاب عنده من المناعة ما ساعد الحرق على حسن الالتئام. ولكنّ سرعة الالتئام هذه لا تظهر كل ما في الجعبة من شجاعة، فالألم والأذى والسوداوية مما يعجب الشباب غير الناضج. وقد أصبح من المتعارف عليه أن الشاب غير العادي يجب أن «يقشر» وجه الحرق من جديد بشجاعة وعزم، «ليستلطِم»

ويبعد البرء، ويطوّل فترة المعاناة. ويبقى محل إكبار وإجلال ممن هم في سنِّه، وممن هم أكبر منه، مما يبشّرهم بعضو شجاع جديد عن قريب يدخل الحلبة.

وبعض الأولاد يحاول أن يخفي ما فعل عن أهله، ولكنه سرعان ما يتبين المخبّأ، لأن الدماء والقيح تظهر على أكمامه. وهذه الفترة، يا بنيّ، من أصعب الفترات على الشاب، لأنها تعرضه لعقاب والده، أو وليّ أمره، الذي مرّ قبل سنوات بهذا الطور من العبث والجهل، ولكنه الآن نضج وعرف، بعد فوات الأوان، وتشويه ساعديه وساقيه، مضرّة ذلك. ولكن ابنه يمرّ الآن بما مرّ به، فهو يعاقبه، وفي الوقت نفسه، وفي داخل نفسه يعذره، ولعله يضحك في «سِرّهِ». والآن القداح وقد التهبت تجعل الشاب تحت رحمة أعدائه، ممن كانوا لا يقدرون عليه عندما كان صحيحاً معافىً، أما وقد أصبح، وساعداه مليئان بالجروح المؤلمة، فقد صار ضحيّة سهلة، ولا طريق له إلا أن يستعين بأصدقائه ممن هم في عافية مما هو فيه.

أتدري، يا بنيّ، لماذا هذا الأذى الذي يجلبه الشاب لنفسه طوعاً واختياراً؟ لأن هناك وهماً أُدخل في أذهان الناس، ولا أدري متى بدئ به ومن بدأه، ومؤدّى هذا الوهم أن هذه «القِدَاح» تشدّ عضل اليد والرجل، فيستفيد صاحبه، وقت الحرب، من قوة ساعديه على الرمي، فلا ترتجف يده كما ترتجف يد الذي لم «يُقدّح». والساقان عند الركض، والمجالدة في الحرب، تتحملان أكثر مما تتحمل ساقا من لم يملأهما بالقداح. أرأيت، يا بنيّ، كيف يقتنع الناس بالفكرة الطائشة، والمنطق الخاطئ، إنها تقرن بشيء يُخدّر الناس، ويَشلّ تفكيرهم، فلا يُعطى الفكر فرصة يعالج أصل الفكرة الخاطئ. وتبقى فكرة الانتصار في الحرب، وما أكثر الحروب في الماضي، مسيطرة على ذهن الشاب، لأنها تتصل بموته أو حياته. ولو فكروا، يا بنيّ، لعرفوا أن الصحة لا يأتي بها المرض، والصواب لا يأتي به، أو يجلبه، الخطأ.

نعود إلى حكاية قريبك[1] ، فقد ملأ ساعديه ، رحمهُ الله ، بهذه القداح ، حتى أنه ليكاد يبحث أحياناً عن بقعة صغيرة لم ينلها العذاب ، ليطوي «خرقة» تناسب حجمها ، ليشرفها «بقدحة» تتناسب مع هذا الحيّز النظيف ، وعلى عادة «المطوّع» أو المعلم الشيخ ، رفع الرمح ، وأهوى به على شاب بجانب قريبك[1] ، رحمه الله لينبهه للقراءة ، وليعلمه أنه لاحظ عليه أنه «سارح» عنها . ولأن يد الشيخ قد أمضها الكبر ، وأضعفتها الشيخوخة ، وأرعشها الزمن ، قصرت «مَدَّتُها» عن أن تصل إلى التلميذ المقصود ، وانتهت على ساعد قريبك[1] ، فأماعت «كبده» ، وأطارت صوابه ، وجعلته يقفز من الألم ، دون وعي ، ويهجم على الشيخ يوسعه عضاً ، وهو يبكي ، وبكاؤه أصاب شيخه بالعدوى ، فأخذ يبكي ، فاختلطت دموعهما التي أسالها الألم ، هذا ألم الضربة ، وهذا ألم العض المتتالي . والتلاميذ وقفوا

---

(١) هو في الحقيقة جدك ، والدي عبدالله ، عليه رحمة الله .

ينظرون، أخذتهم الدهشة، وعقد ألسنتهم هذا المنظر، الذي فيه تشفٍّ، وفيه راحة من الدّراسة. وكان البيت بجانب المدرسة، فسمعت عمّة قريبك الصراخ، واستفسرت، فأفزعها ما عرفت، وجاءت تركض، واقتلعت قريبك اقتلاعاً، وحملته «بزمعه» وأعادته للدار، ودماؤه «تبشّ» من ساعده على ثيابه.

وانتهت المعركة، التي كان بطلها «الرمح». أرأيت يا بنيّ أهميته، رغم تفاهته. فلا تحتقر الحقير فربما جاء بما لا يستطيع غير الحقير أن يأتي به.

وأرجو أن يكفِيَك هذا الإِحماض، فتقلل الآن من مظاهر طلبك له. ولعلك وجدت فيه ملجأ تلجأ إليه، وملاذاً تلوذ به، لأنك تبدأ، عندما يطرق بابك الملل، تلمز وترمز، وتؤشر: تفرك عينك تارة، وتحك رأسك تارة أخرى، وتلتفت يميناً وشمالاً، كأنك تتسمع لصوت، وتكثر من ذلك، ثم تبدأ تغير في جلستك، وتمد رجلك ثم تكفّها، وترفع رأسك ثم



تخفضه، وتتنفّس بعمق، كمن حمل ثقلاً، وتفرقع أصابعك، وتقاوم التثاؤب، وتقصّر في جلستك، وتطوّل. كل ذلك لتتنبّه إلى أن الملل قد بدأ يداعب مرافق نشاطك الهشّة، التي لا تتحمل إلا لمسها بالحرير، والدمسق، والمخمل.

ما أكثر ما قيل، يا بنيّ، عن الإحماض، وسيأتي وقت تحفظ فيه إن شاء الله، عن رغبة، ما قيل في الإحماض، وتعرف حالات اللجوء إليه، وسوف تجد في هذا منطلقاً رحباً، ومجالاً واسعاً، لأن الكتّاب كثيراً ما أوردوا عنه جُمَلاً، وأقوالاً، لتعرضهم لحالات تشبه حالاتك، يتلمسون لأصحابها المعاذير، ويبتدعون الجوادّ، ويشقون الطرق، ويسهلون المسارب، لأنّ قراءهم عزيزون عليهم، ويحرصون ألا يفقدوهم، فالقرّاء أحياناً نادرون، ولهذا من وجدهم حافظ عليهم، وتمسّك بهم، بمراعاة ما يحبون، وبتجنب ما يكرهون. هذا أبو حيّان التوحيدي يتطرق إلى ما بلغه عن ابن عباس، رضي الله عنهما،

وما قاله في مجلسه بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه والمسائل: «إحمضوا». ويعلق التوحيدي بأنه يرى أنه أراد بذلك تعديل النفس، لئلا يلحقها كلال الجدّ، ولتقتبس نشاطاً في المستأنف، ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع[1].

وقبل هذا يأتي ما سبق أن استشهدنا به، في حديث سابق لنا، لا أدري إن كنتَ لا تزال تذكره، أو نسيته، وهو ما روي عنه ﷺ من قوله: «ساعة وساعة»[2].

وقد أكرر لك هنا ما سبق أن قلته في الماضي، وقد تسارع إلى إبداء ملاحظة عن هذا التكرار، وتعتبره عيباً عند الوهلة الأولى، ولكنك بعد التفكير والتدبّر، وسماع رأي آخر، قد تبدّل رأيك برأي مخالف، وتقبل مؤخّراً ما لم تقبله أولاً. التكرار، يا بنيّ، يثبت المعلومات، خاصة إذا جاء الاستشهاد دالاًّ

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ٦٠.

(٢) ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي: ١٨٦، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي: ١٦.

على حالات متنوعة، فأنت إذا لم تذكره عند الحاجة إليه مع حالة ما، فقد تذكره مع حالة أخرى. وتعدّد مرات الاستشهاد به يكشف الجوانب، التي تتراكب مع الحالات، التي يُؤْتَى به لأجلها. ثم، وهذا يهمك، عندما تكون من المديمين للقراءة والمراجعة، فإنك إن لم تجده في باب تجده في باب آخر. وزيادة على هذا، فقد يكون ذهنك اليوم أكثر منه قبولاً من مرة سابقة، وفتحة بابه اليوم أوسع منها بالأمس.

لهذا كله، فسوف أستمرّ أستقي أقوال من سبق أن نطقوا بالحكمة، في أمر الإحماض، حتى لو ظننتُ أني سبق أن حدثتك به:

هذا الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يقول: «رَوّحوا القلوب، واطلبوا لها طرف الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان»[1].

ويقال إن رجلاً كان يجالس أصحاب رسول الله

(١) أخبار الحمقى: ١٧.

ﷺ، ويحدّثهم، فإذا كثروا، وثقل عليه الحديث، قال: «إنّ الاذن مجّاجة، وإن القلوب حمضة، فهاتوا من أشعاركم وأحاديثكم»[1] .

ويروى في هذا الباب أيضاً أن أبا الدرداء قال: «إني لأستجم نفسي ببعض الباطل، كراهية أن أحمل عليها من الحق ما يملّها»[2] . ولا يقصد بالباطل مجانبة الحقّ، وإنما يقصد ما ليس بجدّ، وهو ما يأتي من نوع القصص الذي لم يحدث، وإنما تُصُوِّر ورُكِّب للتسلية، وتزجية الوقت.

وسبق، وأنا متأكد من ذلك، أن حدثتك عما روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه إذا جلس مع أصحابه حدّثهم ساعة، ثم قال: «حَمّضونا»، فيأخذ في أحاديث العرب، ثم يعود، يفعل ذلك مراراً[3] .

---

(١) أخبار الحمقى: ١٧.

(٢) أخبار الحمقى: ١٧.

(٣) أخبار الحمقى: ١٧، وقال أردشير: «إن للآذان مجّة، وللقلوب مللاً، ففرقوا بين الحكمتين، يكون ذلك استجماماً» سرح العيون: ٧٤.

وقد أكون جئت بذلك بلفظ مختلف، تبعاً للمصدر الذي استقيت منه حينئذ، أو حسب تذكري له اجتهاداً.

والزهري له أقوال في التحميض أو الإحماض، أحدها ما يُروى من أنه كان يقول لأصحابه: «هاتوا من أشعاركم، هاتوا من حديثكم، فإن الأذن مجّة، والقلب حمض»، أو يقول: «هاتوا من ظرفكم، هاتوا من أشعاركم، أفيضوا في بعض ما يخف عليكم، وتأنس به طباعكم، فإن الأذن مجّاجة، والقلب ذو تقلب. ويروى مثله عن مالك بن دينار»[1].

وما اقتبست لك قليل من كثير، فارجع إليه في مظانّه، إن كنت في حاجة إلى إقناع، وما أراك كذلك، لأنك تحب الإحماض، والخروج من جادة كلّها «رصراص»[2]، إلى جادة ملساء، خالية من الحجارة والمعوّقات، لا نتوء فيها، ولا حفر، ولا شقوق. ولعلّي ما جئت بما جئت به من أمر جواز

---

(١) أخبار الحمقى: ١٨.

(٢) الحجارة الصغيرة.

الإحماض، وفائدته، إلا لأقنع نفسي قبل أن أقنعك بأن خروجي عن الخط، الذي ابتدأنا السير فيه، فيه فائدة، أو لابد منه لتتم الفائدة. وأنت، يا بنيّ، تدرك، بسليقتك، بأني أنسى أحياناً، فأجعلك سبورة أشرح عليها ما قد يخصّني أكثر مما يخصّك، ولكنّي لا أوغل، إذا تذكرت أني بدأت أتكلم بفكر لا يخصّك، ولا يخصّ جيلك، بل «أقهر» بعيري و «أعن» فرسي، وأشد الرسن، واللّجام؛ فسامحني أنت وجيلك، أو قيّد ذلك دَينا علي، وما أسرع ما أطيح بهذا الدين عن كاهلي من كثرة ما أعطيك، وقلة ما تعطيني، لا بُخلاً منك، ولكن عدم حاجة منّي في هذه المرحلة من العمر.

ومثل هذا الخروج عن الخط، يا بنيّ، فيه نفع، لأن فيه متابعة لفكرة صغيرة، وفيه ركضٍ مُلحٍّ خلفها، لتقييدها وتسجيلها، لأنها إن لم تحفظَ بهذا ضاعت، وهذا الفعل مثل خروج المسافر من الطريق الرئيسة إلى خط فرعي، يوصل إلى دوحة باسقة في



الصحراء، يستظل بفيئها المسافر، ويتناول زاده، أو يحظى براحة لابد منها في وقت القيلولة. ثم العودة مرة أخرى إلى الطريق الأصل. وإن لم يعجبك هذا المثل، لأنه لا استثارة فيه، فسأضرب لك مثلاً آخر، وأعود إلى مهنتي الأولى: التعليم، فأكرر الأمثال، لتثبت الفكرة، وتتضح جوانبها، وتنجلي غوامضها: تصور، يا بنّي، أرنبا نفجت أمامك، وتركتَ الطريق العامة، وتبعتها، إن مالتْ يمينا ملتَ معها، وإن ذهبت يساراً ذهبت خلفها، وإن أسهلت أسهلت، وإن طلعت حَزْنا طلعته، هي تلهث وأنت تلهث، أنت تريد ما أمامك، وهي تخشى ما خلفها، أنت وراء الغنيمة، وهي وراء السلامة، هي تختار طريق النجاة، وأنت تتبعها بدون خيار، قلبك له وجيف، وقلبها له رفيف، وشتان بين أسباب الوجيف والرفيف لكل منكما. نَفَسك مثل نَفَسها ثائر «لا يفرغ الريح إلا ارتد ملآنا» كما قال شوقي. حَذارِ، يا بنّي، في مطاردتك هذه أن تنسى أنه يجب ألا تبعد عن الخط

الذي تركته، وأنت تعرفه، فأنت وقت المطاردة مسوق بدون فكر متكامل، لا وقت عندك لتدرس الطريق الفرعية، لأنك في شغل بالطريدة، وقد تجرك إلى متاهة تطلب السلامة في نهايتها فلا تجدها.

وكلمة أخرى، يا بنّي، عن الإحماض، لو لم يكن فيه من الفائدة، إلا أنه ينقلك أحياناً إلى روضة من رياض التّراث، فتتشم ما فيها من عبق الأقحوان، وشذى الخزامى، وتعيش مع أهل زمان مضى، لهم حكمتهم، ولهم تجاربهم، يعطونك من عصير أفكارهم ما يطفئ عطش الظامئ المتطلع الراغب؛ والعبّ من معين أفكار أهل ذاك الزمن مكسب ما بعده مكسب، وهم سبقوكم، يا بنّي، إلى بعض هذا المنهل الصافي، فتبصروا في أمر من مضى، وما تركوا من تراث، وما خلّفوا من حكمة، وما أُثِرَ عنهم من زبدة التجارب، مما يلذّ سماعه، ويفيد تبصّرهُ، وأضافوا ما أضافوا من تجاربهم وأفكارهم؛ وكانوا يقولون عن التراث الذي استفادوا منه، اعترافاً منهم

بفضله عليهم: «تجارب المتقدمين مرايا المتأخرين، كما يبصر فيها ما كان، يتبصر فيها ما سيكون»[1].

تكلمنا، يا بنيّ، عن «النّبْع» وهو جذع النخلة، وعن الخُوص، وعن العسيب، وعن الرّمح أو الجذمار، والآن إلى «الكَرَب» بفتح الكاف والراء، واحدها (كَرَبَة) وهو جزء من النخلة، يتخلف فيها بعد أن يقص العسيب، ثم «يُكَرَّب» بعد ذلك في الغالب. وأهم فوائده، أنه وقود مفيد، لأنه هشّ إذا كان يابساً يُستفاد منه لإِيقاد النار، وإشعالها، وإن كانت جمرته رديئة، وأما رماده فكثير، ومثله في الإِشعال والوقود الجذمار والخوص، فليس لهما «متن» أو قوة، بالنسبة للنّار، فهي ترعاهما بسرعة، وسرعان ما «تُرمّد».

والكرب للصغار من جيلنا كان يلعب دوراً طيباً في سَلْوتنا، نستعمله كما يستعمل الكبار البعير، ندفع فيه مسمارين، أو عودين، يمثلان غزائل

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٣/ ١٥٠.

«شداد» البعير، ونضع «الجِلاَل»، ثم المزاود، ثم «الجاعد النازك»، ولا ننسى «السَّفايِف»؛ ونضع في مقدمته حبلاً نجرّه، ونكتفي في الغالب بركوب الحبل «نفحج» عليه، ثم «ابعد عن درب الفرس». نأخذ «المراح»: الحوش «مياطا»، روحةً ومجيئاً!

أستدرك هنا، يا بنيّ، فأخبرك بما يستعمل له الخوص زيادة عما قلته عنه. فهو يستعمل لحماية الأكل من «اللأَّحوس» واللاحوس هناك هو «البُعُرصِي» في بعض اللهجات، أو «الظاطور» في بعض اللهجات، أو «الوزغة» في بعضها الآخر، أو «البُرْص» عند إخواننا في مصر؛ ويجمع أهلنا وجيلهم، على أن اللاحوس لا يقترب من شيء غطي بشيء من النخلة، والخوصة الواحدة تحمي قدراً كاملاً؛ والخوصة شبهت بها سكين السلاح، لرقتها ودقتها وحدتها، بل سميت السكين بالخوصة عند البادية.

أما الرّمح، فأستدرك لك عنه بعض ما سوف



يعجبك. صغار جيلنا، يا بنيّ، كانوا يستعملونه للأذى، وأي أذى، أذى العصافير الآمنة في أوكارها. يجدونها وقد عشّشت وبيّضت، ثم فرّخت، وهم يراقبونها، ويتعالمون بأن مِفْرخة هناك، ويتابعون «الأمّيّة»، وهي الأنثى، و «الكحالي» وهو الذكر، وهما يتناوبان إطعام «الحواقل» التي لم ينبت زغبها بعد، حتى إذا نبت ريشها، وقبل أن تطير، جاء الأولاد بجذمار واحد، وإن كان العش بعيداً أوصلوا بالرمح آخر، ثم إذا لامس طرف الرمح طرف العش، برموه، ثم جذبوا العش، وسقطت الثروة المسكينة بأيديهم، وقد يكون ذلك بمرأى من الأم والأب، اللذين تبح حناجرهما، وحناجر من حولهما من الطيور المتعاطفة، ولا من مجيب، أو سامع، أو راحم؛ ضحكات الأطفال، وقد لبسوا ثياب الأباليس، تعلو على صراخ والدي «المطايير». و «المطايير» في أيديهم الرقيقة، القاسية، مندهشة، ومرتعبة، وسرعان ما يبدأ العذاب بها لعباً ومرحاً، ينتهي في

الغالب بالذبح و «الشيّ»، على نار الخوص وأمثاله .

وقسوة الأطفال، يا بنيّ، ومشاغبتهم أنت لا تجهلها، فأنت منها قريب عهد، أنت وزملاؤك . وبعضها يصل إلى درجة الأذى البالغ، وبعضها لا يخلو من طرافة .

ومن القصص الطريفة في هذا المجال ما ورد في كتاب: «الأذكياء» لابن الجوزي عن صبي، يقول الجاحظ إنه رأى حمار رجل خارج إحدى الدور، فامتطى الحمار، ولما خرج صاحبه قال له :

أتركب حماري بغير إذني؟

قال الصبي : خفت أن يذهب، فحفظته لك .

قال الرجل حانقاً : لو ذهب الحمار كان هذا أحب إليّ من بقائه .

قال الصبي : فإن كان هذا رأيك في الحمار فاعمل على أنه قد ذهب، وهبه لي، واربح شكري .

فلم ير الرجل ما يقول وأفحم[1] .

---

(١) الأذكياء: ٢٠١ .



أرأيت، يا بنيّ، كيف كسب هذا الصّبي المعتدي الموقف، لأنه وطّد نفسه أن يكون بارد الأعصاب، أمام غليان أعصاب صاحب الحمار، فاحتاز مسارب الجدل، وفنون المغالطة، وأظهر أنه المتفضل بهذا الاعتداء، وكاد أن يستولي على الحمار دون ثمن، لولا أن الصمت نفع الرجل، وأبقى له حماره.

وما ضَرَّ الرجل، يا بنيّ، إلا الغضب، ولو لم يغضب لاستطاع أن يأتي بحجة سهلة، يغلب بها الطفل، ولكن الغضب عدوّ الإنسان الأكبر في مثل هذه المواقف، فهو يحجب عن عينيه رؤية الطريق السليم، ويخفي عنه منطق الحق، وصَدَق من قال: «الغضب ريح تهبّ على سراج العقل فتطفئه».

وأقر، يا بنيّ، أن الموقف كان صعباً على الرجل، لأنه فوجئ بهذا الافتراء، ومن طفل صغير؛ أما المفاجأة فمعذور فيها، ولا يملك تفاديَها، أما كون الخصم طفلاً صغيراً فهذا أقرب أن يجد الرجل حجة

الانتصار عليه، انتصار القوي المسلح على الأعزل الضعيف، وكان بإمكانه أن يكسب الجولة لو قال، يا بنيّ، إن هذه فرصة الحمار ليستريح، فأنت بركوبك عليه لم تُرِحه، وكان بإمكانك أن تمسك خطامه، حتى لا يذهب، دون أن تركبه. ولكن من السهل علي وعليك، يا بنيّ، أن نتكلم بهدوء، ونَصل إلى مثل هذه الحجة، ونحن جلوس في غرفة مكيّفة، وعلى طنافس مريحة؛ ومحيط المسرح الذي حدثت فيه الحادثة لابد أنه مختلف، فقد تكون الحادثة في البصرة، ورطوبة الجو أثرت على أعصاب الشيخ، ونجا منها الشاب، وقد تكون في بغداد، وحرارة الجو كانت وراء ما حدث.

على أي حال، أضف، يا بنيّ، هذه القصة إلى ما سبق أن أخبرتك به عن الحمير، وتذكر دورها، في زمن مضى في حياة الناس.

ونعود، يا بنيّ، أدراجنا إلى النخلة، ونبدأ بالحديث عن الجذمار، وهو حصان الأطفال في الردهات،

وفي الأسواق، يركبونه كما كان يركبه جُحا، يعتبرونه حصانا «يهذِبُون» عليه، ويتسابقون، فتراهم كذلك، وحدانا وجماعات، يصطفون صفّا منتظما ليبدؤا السباق، يبدؤونه في أول مضمار يحددونه، فينطلقون إلى الهدف، ولم يكن السابق في الغالب يحصل على شيء، إلا ضحكات يطلقونها بكرم، لا حدود له.

وللجذمار، وهو أخضر، واسمه حينئذ «رطيب» أو «رطيبة»، استعمال آخر تستعمل الرطيبة منه لجَلد المذنب، لأنها مؤلمة ولا تضرّ، إلا إذا زاد الأمر عن حد التعزير. والمرطوب يحمل معه شهادة الإمارة في أفواه الناس بأن فلاناً مرطوب، ويكفي هذا ليسقط من أعين الناس، ولا تقبل شهادته، ولا يعزز، ولا يجالس إلا ممن هو على شاكلته.

وننتقل، يا بنيّ، إلى «اللِّيف»، وهو لحاء رقيق، يأتي تحت مرتكز العسبان، ناعم إلى حد ما، ومنبسط، وينعم زيادة بالمعالجة والضرب بالكابون، يستفاد

منه لغسل الأواني، وتلميعها، وتصنع منه الحبال المتينة والرفيعة، وما قد يقال فيه هنا قليل إلا أن استعمال الحبال المختلفة يجعله من الأهمية بمكان.

ثم نأتي إلى «القِنيان» والواحد منها «قنو» لأن الجمع الصحيح «قِنوان». وهي منبت التمر. فإذا ما استهلك التمر، أو «خرط» من القنو، أصبح العذق صالحاً للاستعمال لأمور شتى، أغلبها للتنظيف، سواء كانت تنظيف الأرض بكنسها، أو تنظيف السجاد بضربها به. وقد يستفاد منه بتحويله إلى حبال أيضاً.

ونوى التمر مفيد أيضاً، فهو غذاء للحيوان، ينقع، أو يُغلَى حتى يلين، ثم يقدم للبقر «مدودة» وهو في اعتقاد أهله مدرّ للحليب. وكان لهذا يصلح للمقايضة بأشياء بخسة الثمن. وكان الصغار في زمن مضى يجمعونه، ويذهبون إلى بائعي «الجح»: الحبحب، أو البطيخ، و «الجراوة»: «الخربز» فيقايضونهم به.

ولعلّك، يا بنيّ، تود أن نعرج مرة أخرى إلى طريق جانبي، «نحمض به» أو «نحمض» فيه، والإحماض، يا بنيّ، كما تعرف لفظ فيه أمر خبيء، يخصني أنا وأنت فقط، وصلته بي أكثر من صلته بك، وسوف لا أفصح هنا بما أقصد لأجعله لغزاً، أساومك عليه إذا لم تكن تنبهت إلى قصدي، مع أن بعض من سوف يسمع قولي سوف يفهم. على أي حال إذا لم تعرفه فثمن البوح به لن يكون رخيصاً، فاستعد للمساومة.

وإحماضنا هذه المرة سوف يكون له صلة بما سبق أن ذكرته لك من قبل في وجوب عدم احتقار ما يبدو صغيراً وحقيراً، وفيما سوف أقول لمحة من التراث، ولكنه يحتاج إلى وقفة، يرجح في نهايتها ما إذا كان الخبر يدخل في نطاق الحقيقة، أو أنه ضرب من الخيال الممتع، وقد جاء مصورًا لحيلة الضعيف، أمام جور عدو، لا يمكن الاقتصاص منه إلا بحيلة متقنة.

ومؤدى القصة أن حيّة أكلت بيض طائر أبيض،

عادته الصفير، يسمى المكاء، أخذ المكاء هذا يفرفر بجناحيه، فوق رأس الحية، ويدنو منه، فطمعت فيه الحية، ورفعت رأسها، فدنا منه كثيراً، فهمت بازدراده، فألقى في فيها حسكة كان يحملها، فاعترضت في حلقها، ولم تتخلص منها، فماتت[1].
هذه حيلة ضعيف، يا بنيّ، جازت على قويّ.

وقبل أن أقص عليك قصة ضعيف آخر، احتال ليصل إلى هدفه، وقبل أن نبتعد عن موضع الحيّة، أود أن أعرفك ببعض حيل الحية لكسب رزقها، وفي هذا احتيال وأيّ احتيال، تغلبت فيه على نقص آلات كسب الرزق لديها، فلا جناح صقر تطير به، ولا أقدام سابقة تطرد بها غنيمتها، وليس لها يدان تنصب بهما شراكا لصيدها، فهداها الله إلى حيلة عجيبة:

جلس جماعة في وسط الصحراء، تحت شجرة سدر برّية يستظلون بظلّها وقت القيلولة، وبعد برهة

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ١٤٠.



سمعوا صوت طير «يُوَغِّق» : يصوت ، مما يدل على أنه في محنة ، وظنوا ، والسدرة ملأى بالشوك ، أنه عندما أراد أن يقع على الغصن أخطأ الموقع ، فغرست في بطنه شوكة ، ورأوه في أعلى غصن ، يفرفر ويصيح ، ولم يكن لهم حيلة بتخليصه لبعد الغصن ، ولكثرة الشوك ، فاكتفوا بالتطلع إليه ، فأدركوا عجباً : لقد تبين لهم أن الغصن لم يكن غصناً ، وأن العصفور لم يُشَكّ بشوكة ، وإنما قد أمسكه فكا حيّة ، أخذت تدخله رويداً رويداً إلى جوفها ، حتى خفت صوته ، واختفى جسمه في بطنها المظلم؛ وتبين أيضاً أنها وقت اشتداد الهاجرة تصعد إلى الشجرة ، وتمد نفسها على أعلى غصن فيها ، ثم تمدّ جسمها قليلاً في الفضاء ، رافعة رأسها ، ومستعدّة لأي طائر يأتي متوهّماً أنها غصن ، فتلتقمه ، والعصفور يتجه لأعلى غصن في الشجرة ، طلباً للهواء ، وبعداً عن الشوك .

فسبحان من ألهمها ، وسبحان من جعل في غفلة حيوان رزقاً لآخر لا حيلة له إلا بمثل هذه الحيلة .

وليست هذه هي الحيلة الوحيدة لدى الحيّة، فلها أسلوب آخر لا يبعد عن هذا، وهو أن العصفور في البيداء الشاسعة، التي لا يجد فيها ما يحط عليه، والرمل الحار لا يغريه بالنزول عليه، يبحث عن أي عود يريح عليه، فتنصب الحيّة جسمها، في وسط الرمل الشاسع، كأنها نبتة شيطانية في هذه الصحراء، يراها العصفور من بعيد، فيأوي إليها لاجئاً، وما درى أن فيها الموت الزؤام. ولعل الله جعل لها من أصداف جسمها ما يقيها واهج الرمضاء الحارقة. فسبحان من أعطى ومنع بعدل وحكمة[1].

نعود إلى ما قلنا عن حيلة الضعيف، فهناك حيوان آخر اجتاز عقبة ضعفه بقوة التفكير السليم، والاستفادة من قدرته المتوفرة له في طبيعته. هذه أيضاً من قصص التراث، فلعلها تغريك بمراجعة كتب التراث، فيكون ما تأتيه صدًى لقول الخليفة

(١) ورد في كتاب «الحيوان» للجاحظ: ٤/ ١٠٧ تفصيل ممتع عن غرس الحية نفسها، في الرمل، للصيد.



المأمون عندما سئل : ما ألذ الأشياء؟ قال : التنزه في عقول الناس، يعني قراءة أقوالهم[1] .

ولا أشك أن مثل هذه القصص تعجبك ما دام أنها حول الحِيَل والتحايل، وكأني بعجلات آلة ذهنك تدور الآن، تقيس بعض هذه على ما تتمنى أن تطبقه على بعض أقرانك .

القصة الآتية عن ضعف حيلة القنفذ في نقل طعام عثر عليه وأعجبه، ويريد إطعام أولاده منه . يقال إن القنفذ يعمد عادة إلى الكرمة فيحركها، فيقع منها العنب، فيتمرغ عليه، حتى يملأ شوكَه، ويعود إلى مسكنه، فإذا بصرت به جِراؤه أطافت به، تلتقط ذلك الحب من شوكه، وتأكله[2] .

الصورة طريفة، وجديدة، علي أنا على الأقل، ولعلك تُجري تجربة على القنفذ، وتهيّء له كرمة العنب، وترى هل يفعل ما قيل أنه يفعله، أو أن

(١) عيون الأدب والسياسة : ١٥٨ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة : ١/ ١٧١ .



هذا خيال جامح لأحد الناس .

والآن نعوذ إلى النّخلة ، الصابرة ، المطيعة ، التي نتركها متى شئنا ، ونعوذ إليها متى أردنا ، ولا نجدها قد غضبت ، أو تأفّفت ، وهي في هذا مثل الكتاب الذي نضعه على الرفّ ، ونتركه إلى ما شاء الله ، وعندما تحين الفرصة ، ونحتاج إليه نجده بانتظارنا ، ليس فقط صابراً ، بل ومبتسماً ، باسطا كفيه يرحب بنا .

وبهذه المناسبة أود أن أنبهك ، يا بنيّ ، إلى أن ترك الكتاب ، دون قراءة ، يدخل في حقل العقوق ، ويُعبَّر عن تركه بالهَجْر ، وعقوبة هجر كتاب مفيد غالباً ما تكون في أن يسلط الله على صاحب الكتاب المهجور من يستعيره ، فلا يعيده ، أو يسلط عليه الأرضة ، وهي دويبة فعلها كبير ، تأتي على الكتب ، وعلى كل ما صنع من خشب . إذا حلّت بأرض عاثت فيها فسادًا . نسأل الله السلامة منها والعافية ، فهي حقاً آفة من آفات الله ، وجند من جنده ، يرسلها على ما يشاء ،



ومن يشاء .

وأرى أن «مغناطيس» الاستطراد، والقصص، يشدك، إلا أن النخلة تجذبني، وسأنجذب إليها، فإن شئت، فتعال معي، نلقِ نظرة على جزء جديد فيها، وهو الشّوك، وهو ينمو على جوانب كل عسيب، وهو حادّ ومؤذ، ولعل الله سبحانه أوجده ليحمي به هذه الثمرة الثمينة، «التمرة»، من الحيوانات، خاصة عندما تكون النخلة قصيرة، وعدم ارتفاعها يسمح للحيوان بأن يحاول أن يأكل ثمرتها؛ وهذا الشوك، عندما يبدأ موسم التمر، يُزال حتى يتمكن المُلَقِّح «والخارف»: جاني الثمرة من أن يقوم بعمله، دون أن يتعرَّض للأذى. وللشوكة استعمالات مختلفة بعد أن تجف، فقد «تدبس» وتخيط بها بعض «العُدول» و «الخِياش» و «الشُّوالات»، لأن رأسها مدبّب، سهل «الشّك» والدخول في الشيء المراد خياطته، وهي خياطة مؤقتة في الغالب. وله استعمالات أجمل، تستعمله الحسناوات لفرق شعر رأسهن، وهو أمر

لابد أن الشوكة تفاخر به، عندما يرتفع بذلك مقامها عن شبك «خيشة» التبن.

أرجو، يا بنيّ، أنني لم أنس شيئاً من النخلة وأجزائها لم أذكرها، بدأت بأهم شيء وهو التمر، وانتهيت بأبسط شيء وأقله، وهو الشوكة. وترى مما ذكرت أنه ليس هناك شيء في النخلة لا يستفاد منه، كل شيء فيها مفيد، وكل شيء نافع، وبعضه لا يستغنى عنه، ولا شيء يقوم مقامه. لو حسبت ما ذكرنا من المجالات التي يستعمل فيها جزء من النخلة، لوجدت عدداً كبيراً، وعَظَمَة النخلة تتبين فيما حل محل هذه الأجزاء، من المخترعات الحديثة؛ كان سقف البيت أغلبه، يا بنيّ، من النخلة، وفرش البيت معظمه، إن لم يكن كله، بالنسبة للفقراء، من النخلة، وأدوات المنزل أغلبها من النخلة، وما تحمله الدّابّة أغلبه من النخلة. فلا تستغرب، يا بنيّ، أن سُميت النخلة بالعمّة، بل استغرب أن لم تسم بالأم أو الوالدة.

قلت منذ قليل : أرجو أنني لم أنس شيئاً عن النخلة ، ويبدو أنه لم يبق شيء مهم من أجزائها إلا ذكرناه ، ولكن هناك ما يتصل بها : العين، يا بنيّ، حق، وأمرها يحتل جزءًا كبيرا من تفكير المجتمع ، ولعله كان في الماضي أكثر منه في الحاضر ، لأنه كان يُعزَى في الماضي كلُّ أذى إلى العين، حتى لو لم يكن بسببها حقا؛ أما الآن فالتشخيص للأمراض، والعلاج الحديث، حصر الإحالة إلى العين في أمور محدودة؛ وكانت تتركز إصابتها في الماضي على ازدهار المزارع، وفراهة الدواب، واكتمال أجسام الأفراد، واستواء أعضائهم. وتتأثر الأبقار خاصة في جسمها وحليبها. والنخلة، يا بنيّ، من الأهداف التي كانت محل أنظار «العائنين»، إذا حملت فأوقرت؛ فقد «تنصفق» وهذا مرض، وقد تصاب «بأبي غبير»، وهذا مرض، وقد «تشيّص» وهذا نقص، وقد ينخر جذرها «العنقر» وهذا بلاء. إلى غير ذلك من الآفات والأمراض.

ولعل أطرف قصة رويت، يا بنيّ، في هذا المجال،

ما قيل عن رجل، عرف بأنه من الذين عينهم لا تخطئ، «ينحتون» أو «ينظلون» أو «يحسدون»، صعد يوما ليجني من النخلة رطبا، فوقع عصفور أمامه على غصن، وهم «بِنَقد» بسرة منصّفة، كعادة العصفور، وكان الرجل قد سبقه على «تفرع» النخلة، والوصول إلى مجتمع القنوان. فضحك الرجل من هذا المتطفّل، وقال للعصفور: ارجع فعصفورها فيها، يقصد نفسه، فما أتم كلمته حتى انكسر العسيب الذي كان يمتطيه، ووجد نفسه ملقى على الأرض. فتحقق أنه أصاب نفسه بالعين!

ويقال إن هؤلاء الناس أحياناً لا يمسكون أنفسهم عن تسديد سهام أعينهم، وقد يصيبون دون قصد أعز الناس عليهم. وحتى الذي عرف أنه ليس «نحوتا» أو «نظولا» ولكنه جيد «التوصيف» أو التشبيه، يقال له امسك، فإنك إن لم «تنظل» فإنك «تفطّن» أي تنبّه «نظولا» غافلاً.

ويروى عمن رمى بالعين عزيزاً عليه، أن رجلاً



دخل عليه ضيف، وأخذ يتحدث معه في المكان الذي جلسا فيه، فدخل ابن صاحب البيت، وكان صغيراً، ولم يره الضيف منذ مدة، فلاحظ أن أسنانه قد نبتت، أو بعضاً منها، فأبدى ملاحظة لأبيه: بأنه: «ما شاء الله قد بدأ يسنن».

فرد الوالد: «هذا الذي بالمصباح والذي بالخلوة بعد».

أي هذه الظاهرة منها، قياساً على الدور الأول في المسجد، وينتظر خروج ما في الخلوة، وهو طابق تحت الأرض في المساجد. فما أتم الأب كلامه، والطفل يدرج عند عتبة الباب، إلا «وخمع» عثر، فانكسرت ثناياه!

هذا شيء يُروى، يا بنيّ، وستسمع الكثير منه، مما هو طريف ومسل، مثل رواية بعض الناس عن بعض هؤلاء «الناظلين» أنهم يفصِّلون نظلهم كما يريدون، ويخيّرون الحاضرين، عند العزم على إيقاف سيارة، إذا كانوا يريدون إيقافها عن طريق إتلاف

إحدى عجلاتها، اليمنى الأمامية أو الخلفية، أو اليسرى الأمامية أو الخليفة، أو يريدونها في الكوابح، أو في السائق، كأن الأمر اختيار بضاعة على رفوف في دكان.

هناك حكاية تدور على الألسن في المجالس، يقال: إنه كان في إحدى المدن رجلان اشتهرا بالنظل و «الحسد» والإصابة الشديدة بالعين، وأنهما يتقنانها إتقان من يكيف عجينة في يده، أو يُقَلِّب سبحة بين أنامله، وكان أحدهما بنّاءاً، وكان في أحد الأيام قائماً على سقالة «يشطب» بيتاً «بتشبيعه» و «تلييصه» وتنعيم جداره الخارجي، وكان مساعده يناوله مادة العمل. وكان مع «النظول» الآخر بقرة تبهى بالعين، ويريد أن يأخذها إلى مكان لا طريق له إليه إلا من الطريق الذي فيه البنّاء، وكان على يقين أنه لن يتركه البنّاء يمر بسلام، وأن بقرته سوف تكون هي الهدف، فسلّط عليه أسهم عينه، فأخذ البنّاء ينعِّم وجهه بالطين بدلاً من الجدار، حتى مرّ الآخر ببقرته بسلام. ففكّ



عن الباني محنته، وعرف الباني بما تمّ، فقال لمن معه: اذهبوا وانظروا ما سوف يصيب صديقنا، فذهبوا فوجدوه يتدحرج هو والبقرة، ولم ينقذهما من الشر المحتمل إلا سماح البناء بعد رجاء الناس له، وفك عسرة الرجل!!

ويقال إن هناك مجموعة من العاطلين في زمن مضى، كانوا يجلسون دائماً في مدخل البلدة، في «مشراق» اختاروه، منه يرون الناس، فيعلقون على تصرفاتهم، وفيه يتدفؤون بالشمس الشارقة، ومهمتهم الثالثة تسليط أحدهم، وقد عرف بالنظل، على جمال جالبي الإبل لبيعها في المدينة، حتى إذا اشتاقوا إلى اللحم الذي لا تصل إليه أيديهم، لضعف جيوبهم، أعمل زميلهم موهبته، واختار «حاشياً» صغيراً، من بين إبل الجلب، فرماه بسهم من عينه، يطيحه أرضاً، فيساعد هؤلاء صاحبه على تذكيته قبل الفوات، ويمنّون عليه، ويشترونه بأبخس الأثمان!!

وعندما يسمع المرء دقة التحكم في العين وسهامها،

والقدرة على تصريف الأمر بهذه الصورة، يتساءل ألا يمكن أن نُكَوّن جيشاً من هؤلاء «الناظلين»، ونوجه أسهمهم إلى الأعداء؟ قالوا: إن العين لا تصيب العدو. ما رأيك في ضرر لا يصيب إلا الصديق، والقريب والحبيب!

والغريب، يا بنيّ، إن الناس إذا رأوا شخصاً تواترت عنه قوة «النظل»، يخافون منه، ويحذرونه، ويصادقونه، والمتوقع في ضوء القاعدة السابقة أن يعادوه، مادام في العداء وِجَاء من عينه، وتُرس يحمي من سهامه.

ويقال عن العين، يا بنيّ، إن صاحبها إذا صُليّ عليه صلاة الميت تبطل قدرته على الإصابة بالعين، وتُكسَرَ شوكته، ويُعطل سمّه، وتختفي هذه الملكة عنده. والله سبحانه أعلم.

والعين، يا بنيّ، ليست فقط في شرقِنا، ولكنها كذلك في الغرب وغيره، فهم هناك يؤمنون بها،



ويخافون منها، وهم يتفاءلون أيضاً، ويتشاءمون، وإذا شعر أحدهم أنّ آخرَ قد رماه بسهم من عينه، سارع فلمس أقرب خشبة، أو أي شيء مصنوع من الخشب، معتقد أن الشحنة تتفرغ في هذه الخشبة، وأنه بهذا ينجو.

وهم يتفاءلون بالسواد عند رأس السنة، ويستبشرون عندما يدخل عليهم البيت، دون ترتيب مسبق، شخص أسود، أو قطة سوداء، ويفرحون فرحاً عظيماً، لأنهم يعتقدون أن سنتهم سوف تكون بيضاء؛ وهم كذلك يتفاءلون بنثر حب الأرز على العروسين، وهما يغادران الكنيسة، أو البيت، لقضاء شهر العسل؛ وهم يتفاءلون بحذوة الحصان، مع أنها لا يمكن أن تكون إلا علامةً لرفسه، ودوسه؛ إلا إذا كانت في يوم من الأيام رمزاً لمغادرة غاز، أو مبارحة محتل، يسرهم أن يروا أعقاب خيله، وهذا يماثل ما كان يحدث عندنا من رمي «طوبة» على من نفرح بمغادرته، عندما يغادر، وكسر الشربة، أو حتى الزير خلفه!

وهم، يا بنيّ، يتشاءمون من الرقم «١٣»، حتى أنهم يقفزونه في العمارات، والفنادق، فلا تجدُهُ، بين طوابقها، فكأنما ابتلعته الأرض، أو تخطفته الريح. ولا تجد غرفة «١٣» في الفندق، كأن غيابها يغيب الشؤم. وعدّد، يا بنيّ، وكثِّر، من هذا وأمثاله، وما أعطيتك إلا لمحة.

وقانا الله وإياك شر العين، ومن شر حاسد إذا حسد.

ولنقف هنا عما نحن فيه، لنلتفت إلى الوراء قليلاً، ونصغى بارتياح وابتهاج، إلى رأي أعرابي في النخلة، صاغه في جمل متناسقة، سبكه مختصراً ولكنه واف. قال: «جِذعها نَماء، ولِيفها رِشاء، وكَرَبُها صِلاء، وسَعَفُها ضِياء، وحَمْلها غِذاء»[1].

لقد أصاب كبد الحقيقة، يا بنيّ، لا فض فوه، فإنها حقاً كما قال، إن كان حقّاً قد قاله.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ٦٣.



وقبل أن نقفل باب الحديث عن تعداد أجزاء النخلة، وفوائدها، نقول شيئاً عن التمر، يهمك أن تسمعه، ففيه رائحة قصّة، وأمر القصص يعجبك، لأن القصة تسلية، وأنت تحب الحديث المسلِّي، ولا تلام، فأمثالك كثيرون.

قيل إن أحد الأعراب قُدِّم له تمر، يكثر نوعه في مدينة الرياض، وما حولها، وهو رطب زاك، كبير الحجم، كثير اللحم، حلو الطعم، صبور على الحفظ والكنز. نخلته من النوع الجيد، وتعتبر في هذه المنطقة النخلة الأولى بحقٍّ، مثلما يعتبر نوع السُّكّري في القصيم النخلة الأولى، والخلاص في الأحساء، والسِّري في وادي الدواسر، والروثان في المدينة، والحلوة في الشمال. وقد ينازع في هذا منازع، أو يعترض جازع، ولكن أنصار هذا التحديد كثيرون.

كان الأعرابي، يا بنيّ، جائعا، يكاد الجوع يفري أحشاءه، ويقطع أمعاءه، يأكل الحصى لو قُدِّم له، قُدّم له تمر، فأقدم عليه، يلتقم حبّاتِه، ويسارع

في دفعاته، كأن بينها وبينه ثأراً، لا تكاد ترتفع يده حتى تهوي، يزدرد التمر ازدرادا، ويذكرك، يا بنيّ، بالحافرة التي تراها في الشارع كفّها ينزل ويصعد، ولا يلام، فلعله مع الجوع، كان آتياً من سفر شاق، وأسكرته حلاوة التمر، فسأل ما اسم هذه النخلة، فقيل له: «نبتة سَيف».

فقال إقراراً بالفضل: «جِعْل سيفٍ في الجنّة».

حتى اكتفى، وكفّ عن الأكل.

ثم إن شدة حلاوة التمر، وكثرة ما أكل بدأت تعمل عملها في جوفه، فاتّقد نارًا مضطرمة، فكاد يهلك من العطش، إذْ لم يكن حوله ماء، وسرعان ما بدأ يدعو على سيف:

«جعل سيف في النار».

يرددها، وهو يلهث من العطش، ومن «فوح» الأتون في بطنه؛ ودواؤه ونعيمه «طاسة» ماء، أو إناء لبن.



هذه قصة تُروى في الحاضر، عن أمر وقع في الماضي، ولا يكاد يقدّم أحد نبتة سيف على السفرة اليوم إلا وتقفز هذه القصة إلى أذهان الآكلين، فيرددون كلمة الأعرابي.

والعطش، يا بنيّ، والحاجة إلى إطفائه، والاستماتة في هذا، تذكرني بقصة من التراث سبق أن قرأتها عليك من مرجعها[1]، ولعلك نسيتها، فأعيدها لك لعلها تجد في ذهنك صفحة بيضاء صافية، تنتقش فيها، فهي طريفة ومسلِّية، وقد تحتاجها مع مثيلاتها، فيما لو احتجت أن «تَحْمِلَ أَحَدا»، وذكّرِني بعد أن أقصّها عليك، لأحدثك عما تعْنيه كلمة «فيما لو احتجت أن تحمل أحدا»، لأن وراءها قصة طريفة، وهي أيضاً من التراث.

يقال إن شخصاً تحدّث، فقال: دخلت البادية، فاحتجت إلى الماء فجاءني أعرابي، ومعه قربة ملآنة، فأبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم، فدفعتها إليه

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي: ١٧٠، والأذكياء: ٧٤.

مضطراً، ثم أخذت القربة، فقلت ما رأيك يا أعرابي في السّويق؟

فقال: هات.

فأعطيته سويقاً ملتُوتا بزيت، فجعل يأكل حتى امتلأ، ثم عَطِش.

فقال: عليّ بشربة.

فقلت له: بخمسة دراهم على قدح من ماء، فقبل.

فاستردت الخمسة، وبقى الماء.

لا تنسَ، يا بنيّ، عندما تمرّ بقصّة من هذه القصص، أو تمرّ بك واحدة منها، أن تقف قليلاً، وتتفحصها، فقد لا تكون حقيقة، وإنما هي مصطنعة، دعا إلى ابتداعها، واختراعها، طرافة الفكرة عندما خطرت بالبال، وأحياناً يأتي الشك عندما تكون القصة تدور حول فئتين، تتسقّط إحداهما زلات الأخرى، فإذا لم تجد فئة زلة على الفئة الأخرى توهمتها، ثم سبكتها بقالب مشوق، حتى يُضمن قبولها وتداولها. وهذه

القصة يتوافر فيها عنصر الشك، لأنها تُري شعور التعالي الذي يظهره عادة الحضر على الأعراب، وقد تكون نُحلت ممن ادّعى أن القصة حدثت له.

قبل أن أنسى ما وعدتك به قبل قليل عن «حمل الشخص لآخر»، وقبل أن يتشعب الحديث، أفي بوعدي، وأخبرك بالقصة، التي سوف تزيد في راحتك، بما فيها من إحماض عن وصف النخلة وتمرها. وهذه القصة معروفة للمطّلعين على الأدب العربي، وهي تتردّد، وتتكرّر في كتب التراث، وأقرب كتاب أدلّك عليه في هذا المجال هو في متناول يديك: «كتاب الأذكياء» لابن الجوزي[1].

كان شَنٌّ من دهاة العرب، وأراد الزواج من امرأة ذكية تليق بذكائه ودهائه، فأقسم ليطوفنّ الأقطار، وليذرعنّ الأرض، حتى يجد المرأة التي يريد. فسار، وفي طريقه لقي رجلاً يريد القرية التي

(١) كتاب الأذكياء: ٢٢٠.



هو يريدها، فصحبه شنٌّ، فلما انطلقا قال له شن: «أتحملني أم أحملك؟».

تدبّر، يا بنيّ، لو قيل لك مثل هذا القول، بم كنت تجيب؟ الرجل لا يلام في الرد الذي ردّه، كما سوف ترى، فالسؤال ملتو.

فقال رفيق السفر لشنّ: يا جاهل! كيف يحمل الراكب الراكب؟

فسارا حتى إذا رأيا زرعاً قد استحصد، قال شنّ لرفيقه:

هذا الزرع قد أُكِل أم لا؟

إنّا لله وإنا إليه راجعون، أنا متأكد، يا بنيّ، لو كنت أنت المخاطب، لما استطعت عليه صبراً، فأنت لسنِّك، قليلُ الصبر، ولخرجت من هدومك، كما يقول الناس، ولفارقت الرجل غير آسف، ولظننتَ نفسك رابحاً بهذا. ولكن الرجل رد على شن رداً شفى غيظه.



قال لشنّ: يا جاهل! أما تراه قائماً لم يحصد؟!

فمرا بجنازة، فقال لشنّ: أترى صاحبها حياً أو ميتاً؟

هذه هي الطامة الكبرى، وحُقَّ له أن يقول: «هذا فراق بيني وبينك»، ولكّنه لم يقله، والحمد لله، يا بنيّ، إنها قصة، وإلا لو كانت حقيقة لمسك الرجل بجِران شنّ، وخنقه واستراح. أو لسد أذنيه إحداهما بطينة والأخرى بعجينة، كما يقول العامة. ولكن الرجل قال له:

ما رأيت أجهل منك أتراهم حملوا إلى القبور رجلا حيّا؟

ثم وصلا القرية، واستضاف الرجل شنّا، رغم ما حصل، وكانت للرجل ابنة ذكية، تسمى «طبقة» فقصّ عليها والدها الأمور العجيبة، التي أتى بها شن، ففسّرت له ما قال.

قالت: أما قوله: «تحملني أم أحملك» فقصد:

«تحدّثني أم أحدّثك؟» حتى نقطع الطريق، دون ملل من هزيز مشي الإبل.

أما قوله: «أترى هذا الزرع قد أُكِل أم لا؟» فأراد: «هل باعه أهله مقدّماً، فأكلوا ثمنه أم لا؟»، وهي عادة يقدم عليها بعض الناس للحاجة.

أما قوله في الميت: «أتراهم يحملون ميتاً أم حياً؟» فقد عنى: «أتَرَك عَقِبا يحيا به ذكره، أم لا؟» وحياة الميت بتركه ذِكراً حسناً.

فخرج الرجل إلى ضيفه، وأخذ يحادثه وعرّفه بقول ابنته، فخطبها إليه، فزوجه إياها، فحملها شنّ، وعاد بها إلى أهله، فلما عرفوا عقلها، ودهاءها، قالوا: «وافق شنّ طبقة»، وأصبحت، يا بنيّ، مثلا.

والآن نعود، يا بنيّ، إلى الصابرة المنتظرة النخلة، وبستانها، لنتفيّا الظلال الوارفة هناك، بعد أن جُلنا في رياض الفكر، بالاطلاع على بعض ومضات التراث.



في الماضي، يا بنيّ، كان البستان الذي يحوي نخلاً كثيراً يسمى «حائِطاً»، ولعلّ الاسم جاء من جداره الذي يسوّره، ويحيط به، وقد يحوي عشرات من النخيل، أو مئات منها. ويسمى «حُويِّطا» إذا احتوى على عدد قليل من النخلات، وأحياناً يكون ملحقاً بالبيت؛ ويحرص من في بيته متسع من المكان أن يغرس فيه نخلة أو نخلتين أو ثلاثاً، وتشرب هذه النخلات من فاضل الماء، الذي يغسل به الناس أيديهم، أو من ماء تجديد الوضوء. وليس هناك منظر، يا بنيّ، أجمل من منظر «فَرْع» النخلة، وهو يسامق البيت، ويؤنسه بعسبانه الخضراء، المتراقصة مع النسيم، ولا أبرد من ظل النخلة، في ردهة البيت والأطفال في الصيف «يَتَحَتحَتُون» أو «يَتَحَتَّتُون» تحتها، ويلتقطون ما يسقط من النخلة، بين آن وآخر، عندما يداعبها الهواء، أو تدغدغها أصابع النسيم.

ورغم أن «الحَتَات» في أوله مرّ، ويدمي حلقهم، إلا أنه بشائر «المقيظ»، و «مدموح» ذنبه، ومغفورة

زلته، ومقبول أذاه؛ فسرعان ما يأتي «البِطاط» بلونه الأحمر، أو الأصفر، ويُتَوِّجُه فيما بعد «النِّقادة» التي أخذ «زهوتها» العصفور، وبكبرياء المتكرم رمى الجريحة للطفل، الذي رفع رأسه الصغير بإجهاد، مظللا عينيه الكليلتين عن الشمس بيديه الرقيقتين، في انتظار هذه «النِّقادة» وأمثالها، مما قد يوقعه العصفور عن غير قصد من المجاورات لها، فيفرح بها الطفل، وكأنها وجبة، لا عن جوع في أغلب الأحيان، ولكن عن شوق، وسيرًا لإحياء عادة، وذكرَى، عن عام مضى، وكأن الموسم الجديد وعد الموسم الماضي، أن يحتفظ له بمظاهره، إبقاءًا لصفة من صفات الزمن، يتوارثها الخلف عن السلف؛ ترى ما موقف الطفل إذا وجد «البطاط» في «الغرْبِة»: الماء الراكد الآسن، وقد تلوّث، هل يغسله؟ أو «دَخَل الدِّخيل وَسَلِم»؛ قد يأخذ طريقاً بين طريقين: يمسحها بثوبه، الذي قد لا يكون فيه ممسحٍ، من كثرة ما استعمله لأشياء كثيرة، أقلها اللِّبس،

والاكتساء.

أسارع، يا بنيّ، هنا إلى إبعاد ما قد يكون عَلِق في ذهنك من وَهْم، وهو أن الأطفال يجلسون هادئين، منتظرين ما تجود به النخلة عليهم تكرماً وتعطفاً، مما تلقيه إلى حوضها من بطاط، أو ما يلقيه العصفور صدفة؛ لا، يا بنيّ، فأَندادك، أنت أعرف بهم، إنهم لا ينتظرون جُود أحد، فإن كانت النخلة قصيرة غزوها بأناملهم الغضة، التي لا تُبقِي ولا تذر، وإن كانت قابلة للهز هزوها، هزّ زلزال. وإن كان الهزّ لم يُفِد، وفرعها غير بعيد، رموها بالحجارة حتى تُعطي. وهذه لعبة مسلية، ومفيدة في نظرهم، وهذا لفت نظر بعض الشعراء فقال:

كُنْ كَالنَّخْلَةِ عَنِ الأَحْقَادِ مُرْتَفِعَا
تُرْمَى بِصَخْرٍ وَتُعطِي يَانِعَ التَّمَرِ[1]

وقال آخر:

---

(١) نخلة التمر: ٤٥.

يَا رَاميَ الشَّجَرِ العَالِي بِأُكْرَتِهِ
هلاَّ تَعَلَّمْتَ أَخْلاقًا مِنَ الشَّجَرِ
تَرْمِيْهِ بِالَحجَرِ القَاسِي لِتَرْجُمَهُ
وإِنَّــهَ دَائِمًــا يَـرْمِيْـكَ بِـالثَّمَـرِ

ويجلس الأطفال، يا بنيّ، يتحدثون، فيم يتحدثون؟ قد يتحدثون في أشياء لا علاقة لها بالنخلة، ولكن أحدهم فجأة، وكأنه سمع النخلة تخاطبه، وتقول: «أنتم في ظلي ولا تتكلمون عني!»، فيرفع رأسه، وتظنّه سمع حديثها، ولكنك تكتشف غير هذا، عندما يسأله أحد الذين معه:

لماذا رفعت رأسك؟

فيقول: «لأتأكد مما سمعته من الكبار من أن الذباب لا يقع على التّمر في النخلة، بينما يقبل على التمرة بعد أن تقطف».[1]

فيتناقشون في هذا، ويحاولون إجراء بحث مُبَسَّط، قوامه النظر إلى الشماريخ في القنوان في النخلة،

---

(١) نخلة التمر: ٤٥.

فلا يرون ذباباً، وينظرون إلى ما بين أيديهم من التمر، فيجدون أن الذباب قد «بذّهم» بدناءته، فكلما هشوه استسعر، وزاد إلحاحاً، وأرسل رادارات خفية لعصابته من زملائه، فأقبلوا كأنهم الطوفان يسبقه الصوت، وهو طنين كريه. فلا ينصر الصغار إلا أن ينقلوا التمر إلى بطونهم، ونعم المستقر، والمَحْفَظ، فينصرف الذّباب خاسئا وهو حسير.

وتنتهي هذه الجولة، يا بنيّ، من الفكر والتفكير، ثم ينتقلون إلى مُلْهٍ آخر، ومسلّ يجرهم إليه التفكير، عندما يرون «ذبة»(١) أو أنثى زنبور، تحوم حولهم، فيتحدثون، بعد أن يحاولوا اللعب عليها بأنواع

---

(١) الذُّبَّة في بعض بلدان نجد، وفي الحجاز الدَّبُّور: حشرة تشبه النحلة، تبني بيتاً لها، له هندسة جميلة، تبنيه من الماء والطين، تذهب مرة وتأتي بطين لزج، ثم تعود مرة أخرى بماء، وبعد أن يكتمل البناء تضع فيه بيضة واحدة، ثم تضع يرقات فَراش، فوق فِراش من ورق الشجر، يرقات مخدرات، فإذا ما فقست البيضة أكلت يرقات الدبور المفقوسة اليرقات المخدرة، وتضع أنثى الدبور في بيوت مختلفة عشر بيضات في ثمانية أسابيع. (هذه المعلومات من برنامج تليفزيوني أذيع في المحطة السعودية في الساعة ٣,٣٠ عصراً في ٢٠/ ٢/ ١٤١٣هـ.

الأذى الممكنة، ولها من أجنحتها ما يبعدها عنهم، ولكن بيت المسكينة، الذي بنته بإحكام، وهندسته بإتقان، قد لا يسلم من أذاهم، يكسرونه ليروا ما فرشته فيه من أثاث من ورق الشجر، نعّمته وهيأته، ووضعت فيه بيضها، وأحيانا يجدون هذا البيض قد صار يرقة، وهذا يزيدهم طرباً وبهجة، ثم يأخذون في إحصاء البيوت التي سبق أن هدموها، وآثار الدمار كأنها نياشين، تملأ حيطان المنزل وما حوله. يراقبونها أياماً وهي تحمل مرة الطين الذي تختاره بعناية، وتلبّنه بمهارة، وتنقله بفمها برفق، ثم تأخذ في البناء، وفي المرة الأخرى تأتي بما يلين الطين، ويُنعِّم البناء، وهكذا حتى تأتي إلى الفتحة التي سوف تضع عن طريقها البيض، في هذا «الخِنّ» ثم تقفله، وهي لا تدري أن عمره قصير، وأن هناك من يرقبها ليهدم ما بنته، ويخرب ما عمرته.

يتحدثون عنها، وعما يقال عنها من حكايات فيها عبر؛ ويروي بعضهم لبعض الجدل الذي يقوم



سنويا، بين أنثى الزنبور أو «الذبّة» وبين النّملة، وهو حوار عجيب، يا بنيّ، بُني على فلسفة واضحة الهدف، تحتار وأنت تسمع الجدل والحوار الذي يُنقل، وتفكر وتقول:

«إن هذه مصيبة في قولها»، ثم تستمع للأخرى وتقول:

«إن في قولها لحقا».

لأنك إذا نظرت إليه على أن عظة، وفائدة، وجدت أن قول النّملة قوي، وإن نظرت إلى جمال اللفظ، وحسن المخرج وجدت رجحاناً مع أنثى الزنبور، وإن أردت أن تحكم، وترجح أحد الرأيين احترت، وأيُّ حُكم تصدره فهو موضع جدل، فأنثى الزنبور لديها منطق جميل، ولسان ذرب، يرسم سياسة في الدنيا شائعة، تؤكد التمتع بنعم الله في الدنيا، مادام الظرف مواتياً، والإثم متجنباً، وما في الغيب يجب ألا يشغل البال، فالله متكفل به، وما الهمّ في أمر آت، وترك الراحة والمتعة في أمر حاضر. ثم تتدبر

ما قالته النّملة، فتجده يخاطب العقل، ويأتي بالحسنى، وينصح بما هو خير، وتقف معه في النهاية، لأن صوت العقل لا يغلبه زخرف القول، خاصة إذا عرفت أن الحصيلة في آخر الأمر في صالح النّملة. وخير الأمور، يا بنيّ، الوسط، خذ من الدنيا ما يساعدك على الحياة الطيبة، وتمتع بما حلله الله لك، ولا تنسَ الآخرة، ولا تلهُ عن عملك الذي منه معاشك.

أظنك الآن قد اشتقت إلى القصة التي سمعت التعليق عليها قبل أن تعرفها، وهذه إحدى وسائل التشويق، التي ألجأ إليها، لعلها تغريك بالقراءة، والتمعن.

النملة، يا بنيّ، حشرة صامتة، دؤوب في السعي لرزقها، لا تراها إلا عاملة، آتية أو غادية، مستكشفةً أو كاشفةً، معلمة أو عالمة، تذهب تجوب الأرض، طلباً للرزق، فإذا وجدته، فإن كان قليلاً حملته، وإن كان كثيراً، أعلمت صويحباتها، ليساعدن في نقله إلى بيوتهن. لهن طريقة في البحث، وفي إيصال



المعلومات، تراهن، يا بنيّ، عند مراقبتهن، يَعُدنَ فإذا قابلن نملة أخرى أسررن إليها بشيء، ثم تعود هذه، وتُسِرُّ السّر إلى أخرى، وهكذا. فإذا كان المطلوب نقلُهُ كثيراً فبالتعاون ينقلنه في أقصر مدة. ولعلّ النّملة، يا بنيّ، هي الحيوان الوحيد، أو الحشرة الوحيدة، التي قد تنقل أكثر من وزنها.

النملة[1]، يا بنيّ، عاملة دائماً، لا تلهو، ولا تستريح، تُرى هل هذا هو السبب في أنها نحيفة! أما أنثى الزنبور، يا بنيّ، فمخالفة لها تماماً، أغلب وقتها تغنّي، وتطير، وتسبح في فضاء الله، ولولا أن الله سبحانه وتعالى حمى الأجناس من الانقراض، بأن جعل لها مواسم، لتقوم باللقاح، والإنتاج، لما بقي جيلها، أو جنسها. وقد أزعجت «الذّبّةُ» النّملةَ بكثرة تدخلها في عملها. فقالت لها النملة:

---

(١) عن النملة راجع «الحيوان» للجاحظ: (٤/ ٥)، فهناك تفصيل مفيد، وإن كان لك يا بُنيّ، صديق اسمه مازن فاطلب منه أن يقرأ ما ورد عن اسمه عند الحديث عن النملة وبيضها.

«إنك طربة مغنية راقصة، تنتقلين من زهرة إلى أخرى، ومن وردة إلى مثلها، تستريحين في الظل، وتشمسين في الشمس. تأكلين في الصيف، وتشبعين، ولا يلهيك عن لهوك، ومرحك وطربك، شيء؛ «نسفتِ» هموم المستقبل خلفك، واحتضنت الحاضر بضيائه وجماله، واغترفت منه لذة، أسكرتك عن التفكير في الماضي أو المستقبل، تنسين في الصيف ما قاسيتِه في الشتاء، وتنسين وقت الجو البديع ما عانيت منه وقت الجو المريع. وأنا أُحِب الخير لنفسي وللآخرين، ولهذا أريد أن أنصحك: أنت سكرى بنشوة الحاضر، غافلة عن آلام المستقبل، متلذذة بنسيم الصيف، وبهجة الربيع، مالئة نظرك بخيرات هذين الفصلين، وأمامك خريف صارم، وشتاء قارس، ولا أراك ادّخرت شيئاً تستعينين به على شدتهما. وأخشى أن يتلاشى غدا غناؤك، ليفسح المجال لبكائك، ومرحك ليوسع الطريق لترحك، وأخشى أن تتبخر هذه البهجة لتحل محلها الكآبة



والبؤس، فاستيقظي مما أنت فيه، إلى ما أنت صائرة إليه. وتداركي أمرك، فلا يزال في الوقت متسع، وفي القوس منزع.

نزلت النصيحة هذه على أنثى الزنبور، كالعادة بين الناصح والمنصوح، إلا ما قل، نزولَ الصاعقة، وكادت أن تكدّر عليها صفو عيشها، وأن تنتزعها مما هي فيه، من غبطة ورفاهية. فسارعت واختصرت الجواب، مبتعدة عن رزانة المنطق، فليس عندها منه ما يماثل ما عند النّملة، لأن كل واحدة منها تغرف من طبيعة تختلف. وإذا كانت النملة تستوحي المنطق والعقل، فأنثى الزنبور استوحت العاطفة، وبهرج القول، وجمال اللفظ، بصرف النظر عن المعنى المهدر، والمدلول المذبوح. قالت بلهجة التعالي والغطرسة:

«ليلة من طَرَبي يَعدِلْكِ يا معكوفة الذَّنَبِ».

كلمة جميلة، يا بنيّ، في سجعها واختصارها،

ولكن هل تراها تقف أمام محك المنطق وعواصف الجدل، مثلما يقف المنطق الرصين؛ ولعل في ذهن أنثى الزنبور أن اللّذّة في أول الأمر، أو في آخره، متساوية، بل لعلّها ترجح أن تكون في الأول، لأنها أضمن، ولأن فيها على الأقل مجالاً للاستدراك فيما لو فات النجاح، في أول الأمر.

ودارت الأيام، ومرّ الصيف بدفئه وخيراته، وجاء الخريف برياحه وعصفه، وضكّ بأنثى الزنبور ضاكّ الزمن، ورصّها ضنك العسرة، ولا طعام عندها مدّخر، ولا لحم في جسمها يقيها البرد، ويحميها من زمهرير الشتاء، ولاكِنّاً يسترها من الريح الصرصر العاتية، التي لها صفير وعويل خارج المساكن؛ لقد أطل عليها وجه الشتاء، كالحاً، كاشراً، لا بسمة فيه، فتلاشت عندها الكبرياء، واختفت العنجهيّة، وتدنّت روح الاستعلاء، وأُجبرت على التنازل عن ترفُّعِها، فطرقت ذات ليلة باب النّملة، تريد حسنة تطرد بها قارص الجوع، وتجلب لها الدفء؛ فجاء



دور النملة الآن في الردّ عليها بمنطق يشبه منطقها السابق، ولكنه قول بمنطق، ولفظ، حسن. قالت النملة لأنثى الزنبور، وكأنها تؤكّد عليها ألا تنسى موقفها السابق:

«من غبّا عشاه أصبح يلقاه».

أي من وفّر عشاءه اليوم تغداه في الغد.

وأخذت أنثى الزنبور درساً لن تستفيد منه، لأن الله سبحانه قد طبعها على ما هي عليه، ولحكمة يعلمها ـ سبحانه وتعالى ـ مع ما قد يبدو لنا من أذى لها في الشتاء ولذّة في الصيف، فقد يكون في هذا ما له تأثر ضروري لحيوانات أخرى، أو حشرات ثانية، فسبحان مصرف الكون بحكمة لا يعلمها إلا هو.

ولا تظنن، يا بنيّ، أن أنثى الزنبور هي الوحيدة في هذا الإهمال، والجري وراء المتعة، فهناك غيرها، ولا تعجب يا بنيّ، عندما أقول لك إن بعض الناس في مثل حالتها، بل يَدْعون إلى ذلك، ولكنهم لَبِقون

في دعواهم ودعوتهم، ويلبسونها بمنطقهم الفصيح لباس القبول، اسمع أحدهم يقول شعراً في هذا:

لَعَمْرُكَ مَا كُلّ التَبَطُّلِ ضَائِرٌ
ولاَ كُلُّ شُغْلٍ فِيهِ لِلْمَرءِ مَنْفَعَهْ
إذَا كَانَتِ الأَرْزَاقُ فِي القُرْبِ والنَّوَى
علَيْكَ سَوَاءًا فَاغْتَنِم لَذَّةَ الدَّعَهْ
وإِنْ ضِقْتَ فَاصْبِرِ يُفْرِجُ الله مَا تَرَى
ألاَ كُلُّ ضِيقٍ فِي عَوَاقِبِهِ سَعَه[1]

صحيح أن ما عند الله كثير، والأمل في الله كبير، لكن لابد من السعي للرزق؛ ولاحظ أنه ليس في منطق الشاعر جانب قوي إلا كلمتي «اصبر يفرج الله ما ترى» و «كل ضيق في عواقبه سعه» والله أمر المرء أن يسعى وعليه سبحانه إنجاح المقاصد؛ والتوكل مطلوب، وهو مسعى من المساعي، لإكمال القصد. والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال

(١) المحاسن والمساوئ: ٢٨٦.



لصاحب النّاقة الذي استفسر منه: أيعقلها أم يتوكّل؟ قال: «إعقلها وتوكّل».

أعجبتني قصيصة قرأتها منذ مدة عن الشعبي أنه مر بإبل قد فشا فيها الجرب، فقال لصاحبها: أما تداوي إبلك؟

فقال: «إن لنا عجوزا، نتكل على دعائها».

فقال: «اجعل مع دعائها شيئاً من القطران»[1].

ولعل الشعبي خشي ألا تكون العجوز من مقبولي الدعاء[2].

والدِّين، يا بنيّ، نور يهدي المرء إلى هدفه في طريق مستقيم، والعلماء أقرب الناس إلى معرفة الحدود بين الحق والباطل، في حال الاشتباه؛ ولهم مَلَكَة، وعندهم مقدرة، اكتسبوها من تفقههم في الدين، والتبصّر في نصوصه، ومعرفة تواريخ التنزيل،

(١) محاضرات الأدباء: ٨، راجع قولاً مماثلاً في أخبار الظراف: ١١٧.

(٢) الشعبي يلمز إلى أنه لا يجوز التواكل، يسند إلى ذلك الحديث: اعقل وتوكل. ففعل السبب مطلوب، والدعاء معه مرغوب، ومندوب.

والناسخ والمنسوخ، وقوّة الرّواية وضعفها. باختصار، يا بنيّ، هم خبراء في فنّهم.

هذا ابن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ من منطلق العلم والإدراك عندما سأله رجل قائلاً:

«إذا نزعت ثيابي، ودخلت النهر أغتسل، فإلى القبلة أتوجه أم إلى غيرها؟».

فقال له: «الأفضل أن يكون وجهك إلى جهة ثيابك لئلا تسرق»[1].

فالجواب ظاهره فكاهة، وإنما فيه إشارة إلى أن الأمر أمر دنيا، ويحتاج إلى الحذر، ولا دخل لاستقبال القبلة في هذا.

ولعله يعجبك أمثال هذا الرّدّ يا بنيّ، لأن فيه فائدة، وترويحاً عن النفس، ويعطيك فكرة عن طِيب هؤلاء الناس، وسماحتهم. وشُريح القاضي له مواقف مرحة، أحدها أن رجلا أقر عنده بشيء،

---

(١) المراح في المزاح: ٣٤٣.



ثم أراد أن ينكر، فقال له شريح:

«لقد شهد عليك ابن أخت خالك!!».

يعنيه هو نفسه[1].

ومر أيضاً بمجلس لهمدان، فسلّم، فردوا عليه، وقاموا ورحبوا به. فقال: «يا معشر همدان، إني لأعرف أهل بيت منكم لا يحلّ لهم الكذب».

فقالوا: «من هم يا أبا أمية؟».

فقال: ما أنا بالذي يخبركم».

فجعلوا يسألونه، وتبعوه ميلا، أو قريبا منه، يقولون له:

«من هم؟».

وهو يقول:

«لا أخبركم». فانصرفوا عنه يتلهفون:

«ليته أخبرنا بهم!»[2].

والخليل لما قال له أحد أصحابه، ولعله كان على

(١) المراح في المزاح: ٣٤٣.

(٢) المراح في المزاح: ٣٤٤.



سبيل الانتقاد:

«إنك تمازح الناس».

فقال: «الناس في سجن ما لم يتمازحوا»(١).

نعود للشعبي فله مواقف مسلية، ولعلّي، إذا جمعتها لك هنا، تعفيني في المواضع القادمة من قصّ القصص، إذا لم يكن منها المناسب للموقف:

سأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية، فقال: «خلّلها بأصابعك».

فقال: «أخاف ألا تتبلّغ».

فقال الشعبي: : «إن خفت فانقعها من أول الليل».

وسأل رجل الشعبي: «هل يجوز للمحرم أن يحكّ بدنه؟».

قال: «نعم».

قال: «مقدار كم؟».

قال: «حتى يبدو العظم»(٢).

---

(١) المراح في المزاح: ٣٤٨.

(٢) المراح في المزاح: ٣٤٠.



وكان يروي حديث النبي ﷺ: «تسحروا ولو بأن يضع أحدكم أصبعه على التراب، ثم يضعها في فيه» فقال رجل للشعبي:

«أي الأصابع؟».

فتناول الشعبي إبهام رجله، وقال: «هذه»[1].

هؤلاء، السائلون، نهجوا نهج أصحاب البقرة التي طُلب منهم أن يذبحوها، فتمحّكوا في معرفة أوصافها، وشدّدوا، فشدّد الله عليهم.

وآخر ما في الجعبة، يا بنيّ، عن الشعبي وسائليه. قيل إن خياطاً مر بالشعبي، وهو مع امرأة في المسجد، ولعلها كانت تستفتيه، فقال الرجل: «أيكما الشعبي؟».

فقال الشعبي: مشيراً إلى المرأة: «هذه».

لابد أنك تعرفت على الشعبيّ وفقهه ومرحه، ولابد أنك أدركت أنه كان شخصًا فريدًا، لأنّ له

(١) المراح في المزاح: ٣٤٠.

من القصص ما امتلأت به صفحات؛ ولو هادنت كتب الأدب القديمة، وسالمتها، وقرأتها بتمعّن لوجدت فيها من الذخائر ما يملأ الرأس، ويفرح الروح؛ بعضها يروي حقائق حدثت، وبعضها يعطي فكرة عن عقلية العصر، من خلال مؤلّفها الذي قد يكون تخيّلها، فهي ذخائر تريك جوانب حياتهم البشرية، مضيئها، ومظلمها.

والآن نعود، يا بنيّ، إلى ما كنا فيه، وأرجو ألا أكون نسيت، ولا تلمني إذا نسيت مع الاستطراد، خاصة إذا كنت أنت لم تنس، مع أني متأكد أنك جَذِل جَذَل «الذباب الذي يحك ذراعه بذراعه» على قول صاحب المعلقة؛ ولكني يا بنيّ لا أستحيي من النسيان، وقبلي الجاحظ نسي كنيته، إذا صدق.

يقول أحد جلسائه أنه سمعه يقول: «نسيت كنيتي ثلاثة أيام، فأتيت أهلي، فقلت: «بم أكنى؟»».

فقالوا: «بأبي عثمان»[1].

---

(١) يبدو أن أمر الكُنى يهم الجاحظ، انظر حديثه عن كنية أبي حازم، وعرضه=



أتراه صادقاً؟! أو لعله في مُبتدإ تسميته بها، ولم يتعود عليها، واختارها من بين عدد من الكُنى، مثلك وأنت تعالج عدداً من الصور لتوقيعك، الذي لم تستقر عليه بعد، أحيانا تكتبه كتابة، وأحيانا «تشخبطه شخبطة»، وأحيانا تخرج له ذيلاً، وأحيانا تمدّ له رقبة، وأحيانا «تدلع» له لسانا، وأحيانا تضع فوقه عقالاً، وأحيانا برنيطة، وأحيانا تراه كأنه فأر خائف، وحينا كأنه قط متوثب. وأحيانا له سنام كالجمل، وأحيانا خرطوم كالفيل. وأحيانا هو محدودب، وتارة ممدّد، تحته النقط، كأنها مسارب نمل، أو زحف أفعى، سائحٌ بعض النُّقط على بعض، وأحيانا بدون نُقط؛ استقر، يا بنيّ، على صورة مبسطة، إنها أبعد ما تكون عن التزوير.

لقد خطر في ذهني شيء، وأنا أرقبك تمرّن يدك على إتقان الصورة، التي تنوي أن تكون عليها الصورة النهائية لتوقيعك. تذكرت، يا بنيّ، وسْم

= شراءها. الحيوان: ٣/ ٢٨.

آبائك وأجدادك، الذي كانوا يطبعونه في الغالب على فخذ البعير، أو على رقبته، ليثبت ملكيتهم له. لابد أنهم، يا بنيّ، قد مروا بالحيرة التي مررت بها، فأنت تحاول ألا تبعد عن توقيع والدك وجدك، ولكنك تريد أن يكون لتوقيعك، أو «إمضائك» شخصية مميزة عن توقيعهم. إن كانت حيرتك، يا بنيّ، جاءت من هذا، فحيرتهم عندما أرادوا أن يختاروا وسما تختلف، فالوسوم غالبا ما تتكون من «حلقات» و «مطارق»، ولعل ما حصرهم في هذا، و «حدّهم» عليه، الميسم البدائي، الذي كان يصعب تكييفه بغير ذلك؛ فالحلقة دائرة، والمطرق خط، ومن هذين العنصرين يستطيعون أن يكونوا مئات الوسوم، والدّقّة اللازمة تأتي من أن من يريد أن يبتدع وسما لعائلته عليه أن يختاره صعب التقليد، لأن إضافة «مطرق» أو «حلقة» على وسم سابق يدخله سرقة وتزويرا في ملكية شخص آخر. التنقيص في الوسم غير وارد فيه التزوير، ولكن الخطر في

الزيادة تدخل على الوسم .

على أي حال يبدو أن الهموم تورث ، فهمّ اختيار الوسم ، والخوف من تزويره ، قد ورثته أنت ، وجيلك ، في هم اختيار توقيع يصعب تقليده ، أو تزويره . فخذ بنصيحتي السابقة ، وبسّطه بقدر الإمكان ، فكلما بسطته صعب تقليده .

قبل أن أنتقل إلى حديث غير هذا يحسن أن أنبهك ، حتى لا تتذكر أثناء الحديث ، فتقاطعني بالسؤال ، أجدادك الذين لا يعرفون القراءة ، وليس لهم توقيع ، لم يكونوا يبصمون ، فالبصمات لم تعرف من قبل ، ولم يعترف بها إلاّ حديثاً ، فهي لم تكن شائعة ، إلا في أقطار متقدّمة . وكان يقوم مقامها ومقام التوقيع ، الختم أو «الرشم» كما يسمى أحياناً .

نعود إلى أنثى الزنبور ، وما قلنا عنها ، وعن قلة حكمتها ، وعن حكمة النملة ، ولابد ، يا بنيّ ، أن نعدِل الكّفة ، وننسخ الأبيات التي تدعو إلى التواكل

المطلق، بأبيات هي أقرب إلى ما يجب أن نتدبّره.
قال أحد الشعراء:

وَلَيْسَ الرِّزْقُ عَنْ طَلَبٍ حَثِيْثٍ
وَلٰكِنْ إِلْقِ دَلْوَكَ فِي الدِّلاَءِ
تجيْء بِمِلْئِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا
تجيءُ بِحَمْأَةٍ وَقَلِيْلِ مَاءِ[1]

يكفي هذا يا بنيّ عن النّملة، وأنثى الزنبور، ونترك الأولاد الصغار في ظل النّخلة يتمتعون. ونعود إلى العمّة، فهي لا تزال راسيةً، في مكانها ثابتة، لعلنا قلنا عنها كل شيء يمكن أن يقال عنها في الماضي، ولم يتغير في الحاضر إلا بعض ما مرّ عليها من تاريخ، أوجبه فترة الانتقال من العهد الماضي، باقتصاده المحدود، إلى الحاضر، باقتصاده العالمي، الذي أصبحنا جزءًا منه مؤثرين، ومتأثرين.

كانت النخلة، يا بُنَيَّ، كما رأيت، وسيلة معيشة

(١) المحاسن والمساوئ: ٢٨٦.



رئيسة، ومصدراً لكثير من الأدوات. وكان يساعدها في ذلك الزمن قلة تكاليف اليد العاملة، مما يُمكِّن أصحاب النخل من توفير من يعتني بنخلهم، بأقيام لا ترهقهم، ثم جاء وقت أصبحت النخلة عِبئًا، لأن العناية بها تُكلّف مبالغ طائلة، فاليد العاملة أصبحت تعمل في مهن أقل عناء، وتدرّ رزقاً أوسع. ولم يعد أبناء الفلاحين يحلّون محل آبائهم إذا كبروا، ولا يساعدونهم إذا احتاجوا، لأنهم التحقوا بالمدارس، وصار التعليم يأخذ منهم وقتهم، ومتابعتهُ تبعدهم عن مهن آبائهم؛ وإذا انتهوا، فهناك مجالات رحبة للعمل، يختارون منها ما يريدون، مما يعود بغلّة أكبر، وعمل أيسر. وزحفت المدن على بعض المزارع، وصارت قيمة أرض المزرعة تغري ببيعها، إذا قورن ما تنتجه بما قد يأتي به من سعر البيع. ولوحظ أن الناس لم يعودوا يُقبلون على التمر، كما كانوا في الماضي، ودخلت أنواع كثيرة متعدّدة، ومغرية من الفواكه، فحلّت على المائدة محل التمر، وصار

بعض الناس يعتبرها أكثر فائدة، وأقرب ملاءمة للمائدة الحديثة. وكاد يأفل نجم النخلة، وثمرتها.

ثم أخذ الأمر منحنى آخر، وبدأ نجم النخلة يسطع، ومقامها يرتفع، واسمها يعرف، وصوتها يسمع؛ وأقبل عليها أول من أقبل القادرون على الإنفاق، فأغدقوا عليها فيما أنفقوه، وتباروا في ابتداع «الحيطان» الجديدة، والمزارع الواسعة. وركضوا خلف «النوايع»، وفي ذهنهم أنه مادام أن التعب واحد، وما سوف يعمل لهذه النخلة الرخيصة يمكن أن يعمل للغالية، فالأفضل أن تغرس الغالية، وساعدهم على هذا سهولة المواصلات، وأدوات النقل، والفن الحديث في الزراعة. فغرس الناس النخيل، وجُلبت أنواعه، واستُفيد من البحوث الحديثة؛ وجاء من الدولة دفعةٌ جعلت الجميع يقبلون على الغرس، في المزارع، وفي البيوت، لأن هناك إعانة لمن يبدي اهتماماً. وواكب هذا إقبال على التمر، وتفاخر وتباهٍ به على المائدة، ومعرفة



وإدراك لقدره؛ واكتشف الناس طرقاً لتبريده، وحفظه، عند قطافه، ولحفظه إلى السنة التالية، طرياً جديداً. وأدخلوا طرقاً حديثة على كنزه، دون البعد عن الطرق القديمة. وتواجد في الأسواق طوال العام، بعد أن أنشئت المصانع، التي كلفت الملايين، وأمكن الإقدام على هذه الصناعة، للدعم السخيّ الذي تعطيه الدولة قرضاً لمن أبدى استعداداً، وأثبت جدّيته، والجدوى الاقتصادية لعمله؛ فالنخلة بهذا استفادت من الازدهار، الذي استفادت منه البلاد، في جميع جوانب الحياة فيها.

ولم يقتصر تشجيع الدولة على هذا، بل أعطت البلدية ميزات لمن يزرع في بيته نخلاً، وامتلأت الشوارع بالنخيل، ولعلك، يا بنيّ، تمرّ بشارع في الرياض يخترق حي النسيم، فتعد آلافاً منها؛ وهي في كل شارع تقريباً، عروس تزين الحقل، أينما اتّجهت؛ تذكّرك بالعزة والكرامة، رمز تفخر به، وتقدره.

إن الإقبال على غرسها، والإكثار منها، جعل أثمان «الغريس» يرتفع إلى حد لم يألفه الناس، ولم يكونوا يتوقعونه، وقد ربح بعض الناس من «فُرُوخ» النخل، قبل أن يربحوا من ثمرتها. ولأن النيّة حسنة، ولأن الأمر يستحق، توصلت البحوث إلى نتائج تبهر، فمن الجمارة الواحدة يمكن أن يستنبت ملايين من الغرسات. ولم يعد في الأمر مشكلة؛ وقد وصل عدد النخلات، التي غرسها أحد المتحمسين لزراعة النخيل في مزارعه فوق عشرين ألف نخلة كلها «نوائع».

وهكذا ترى، يا بنيّ، أن النخلة نعمة في الماضي، ونعمة في الحاضر رمز فخر لبلادنا، وغذاء كامل لأجسامنا، فالحمد لله أولاً وآخراً، وشكراً له واهباً، ومبقياً، ومديماً؛ أقولها لأذكرك كالعادة بواجب الشكر له سبحانه وتعالى، فإني أخشى أن تنسى، في غمرة القراءة، أو الاستماع، خاصة الجوانب المسلية منها، أن تشكر الله على هذه النعمة.



اشكره، يا بنيّ، كلما رأيت نخلة تنقل من تحت أمها، لتبدأ عائلة من النخل جديدة، مثل العروس تنقل من بيت أهلها إلى بيت زوجها.

اشكره وأنت ترى ناقل النخلة يعتني بقلعها، ويَمْهدها في مهد من «الخيش»، ليقيها شدة البرد في الشتاء، وشدة الحر في الصيف، ووهج الشمس في القيلولة، فهي عند غرسها لا تزال لِيْنَةً لَيِّنَةً، تحتاج إلى أن تظلل بظلال العطف، وتدللّ بأنواع الحنان، تُسقى القليل من الماء، في أول الأمر، ولكن بطريقة متتابعة مستديمة، وبكميات موزونة، حتى لا يطغى الماء على جذرها، «فيُخْوِر» أو «يَخِيس» أو «يُخَمِّجْ»، أو يتلف، أو يعطب.

وأشكره، وأنت تراها بدأت تُرِي بعض الاخضرار في قلبها، مما يعني أنها نجت من الموت، وأصبح الأمر، إن أراد الله، أمر وقت، وعلى صاحبها الانتظار، حتى تبدأ بشائر العسبان الجديدة، تتالى في طلوعها، رقيقة، في أول الأمر، ثم يشتد عودها، فتبدأ

تنهض عن الأرض قليلاً قليلاً .

واشكر الله ، يا بنيّ ، عندما ترى الكافور يطل كأنه لسان بشري ، يتوجب أن تطفح ، بسبب ظهوره ، البهجة والبشر على الوجوه . إنه بادرة الخير ، وباكورة النّماء ، يطلّ ، وكأنه يتعرف على محيطه والدنيا حوله ، يرى عسبانها تظلّله ، وشوكها يحميه ، وليفها يحتضنه ، كأنه فِراش وثير .

اشكره ، وأنت ترى الكافور يمتد إلى أعلى ، ثم ينفرج ، فيلقحه صاحب يد صناع ، ثم يكمّه ، بعد أن يكون ما حوله من عسبان قد «شُوّفت» وشُوِّكت ، حتى لا يعيق الشوك المُلَقِّح ، أو يزعجه أو يزعج «الخارف» : جاني الرطب ، فيما بعد ؛ والنخل ، يا بنيّ ، يختلف في طلب اللقاح ، فبعضه يحتاج إلى قليل منه ، وبعضه يحتاج إلى كثير ، والتجربة هي التي تحدّد المقدار ، وتقرّر الكمية ؛ يوضع اللقاح ، فتضم عليه ، وعلى غباره ، الشماريخ ، وكأنها رحم يضم جنيناً . وبعد ما يقرب من شهر يفسح المضموم ،



ويفكّك المكموم، ويفرج عن القنو بحبيباته الصغيرة، وقد تبين عقدها؛ ويخفف عن النخلة بطرق مختلفة إن كانت مثقلة.

واشكره، يا بنيّ، وأنت ترى الحبيبات تكبر، وقد تمركز القنو على الغصن، و «فحج» عليه، كأنه جحا على جذماره، هل تذكر جحا وجذماره؟ عندما أراد أخوه أن يتزوج، راح يستشير أمه، ويأخذ رأيها فيما يجب أن تكون عليه الزوجة التي تناسبه. قالت له:

اذهب إلى أخيك جحا، واسأله.

قال لها: جحا رجل مجنون، لا همّ له إلا الركض في الشوارع، وأمامه ثلّة من الصبيان، وخلفه مثلهم، يجوبون الأسواق والأزقة.

قالت له أمه بإصرار: اذهب واسأله.

فذهب إرضاءًا لها، فوجد جحا مع الصبيان كما توقّع، وقد ركب جذماراً اتخذه حصاناً، يَقدُم به موكبهم، أو يدخل ضمنه، يذرعون الطرق، جيئةً وذهاباً.

ورغم أن هذا المنظر لا يوحي بأن لدى صاحبه حكمة ، إلا أن طاعة الأم واجبة ، فامتثالاً لأمر أمه ، سأل أخو جحا جحا ، وقال له :

إني قد عزمت على الزواج ، وجئت استنصحك ، فبم تنصحني؟

قال له جحا : «ابعد عن الحمص[1] والرمص[2] وبيت القطوع[3] ووخّر عن درب الفرس[4] » .

ثم شقّ طريقه ومرّ ، تاركا أخاه فاغراً فاه ، دهشة من هذا الجواب . ولو كان جحا في زماننا لتمثل راكبا سيارة ، وقال :

«ابعد عن درب السيارة ، بيب بيب» ، كما كان يفعل أحد المجانين في زمن السيارات .

رجع الابن إلى أمه منتصراً ، وقال :

ألم أقل لك إنه مجنون؟

---

(١) الحمص أو الحبص : سقوط أهداب العين ، أو انكسار الاجفان .

(٢) الرمص : كثرة الغمص في العين ، وهو الوسخ المتجمع فيها .

(٣) بيت القطوع : العائلة التي لا نسب لها ، وقيل : هي قاطعة الرحم .

(٤) الفرس : هي الجذمار الذي كان يركبه ويعتبره فرساً .



قالت: ماذا قال لك؟

فأخبرها. فقالت لقد أعطاك من النصائح أثمنها:

وشرحت له ما عناه أخوه.

أي بنيّ!

يبدو أن هذه القصة التي كانت تُروى لنا في صغرنا، تسلسلت أصلا من قصص عربية، ودخلها بعض النقص، أو التحوير، إِمّا جهلاً من الراوي، أو قصدًا، حتى تأتي حسب عقول أهل زمانه، وما هو مقبول عندهم، وأمامنا الآن روايتان تماثلان قصتنا في الجوانب الرئيسة، ولكنها لا تُرويان عن جحا، الأولى هذه صياغتها:

«قال الأصمعي: حدثنا سوار قال:

طُلب رجل، فُجن وتحامق، ورَكِب قصبة، واتبعه الصبيان؛ وخطب رجل حتى أُعيي، فنذر أن يُشاور أولَ من يلقاه، فلقي القشعم. فقال:

إني نذرت أن أتزوج، قال:

بكر لك، ولا عليك، ثَيِّب لك وعليك، ذات



الجلاوز (الأولاد) عليك، ولا لك»[1] .

لقد عُلقت القصة على القشعم، ولعله هو الذي قيل عنه في أول القصة أنه جُنّ، وركب قصبة، وهذه القصة تتفق مع قصتنا الأصل في الجنون، وفي القصبة، وفي النصيحة السليمة.

والقصة الثانية هذه صياغتها:

«كان رجل حَلَفَ الاّ يتزوج حتى يستثير أول من يلقاه، فلقيه، فاستشاره، فقال:

البكر لك لا عليك، والثيّب لك وعليك، وذات الجلاوز (الأولاد) عليك ولا لك، خَلِّ سبيل الجواد، فقال له:

ما قصتك؟

قال: إن هؤلاء أرادوني على ذهاب ديني، (أي أرادوا أن يولوه القضاء)، فاخترت ذهاب عقلي، امضِ لسبيلك»[2] .

(١) أخبار القضاة: ٢/ ٦٦.
(٢) أخبار القضاة: ١/ ٢٥.

هذه القصة أيضاً فيها عناصر رئيسة من القصة السابقة ففيها العزم على سؤال أول طالع، وفيها التظاهر بالجنون، وفيها ركوب القصبة المعتبرة، وفيها نصيحة مماثلة، والاختلاف في بعض التعابير، وفي سياق القصة، واضح.

ولعل هذه القصة قد ركبت، لتحمل النصيحة التي قد تكون في الأصل أقل نسجاً من تلك القصص، فهناك صيغة أخرى هذا نصها:

«قال رجل:

سألت أناساً من أهل البادية إلى من أنكح؟

قالوا: اتق الدِّقَة المتوارثة، وأنكح إلى من شئت.

قلت: وما الدقة المتوارثة؟

قالوا: أخلاق سيئة، يرثها آخر من أول»[1].

لم يعجب الراوي أن يأتي بها نصيحة منه مباشرة لمن سوف يسمعها، لأنها تصبح كأنها موعظة جاءت

---

(١) مجالس ثعلب: ١/ ٥٩.



من رجل واحد، وهي قد تكون فجة، ومجيؤها في صيغة سؤال وجواب أكثر قبولاً، خاصة إذا كان مصدر الحكمة أعرابياً مجرباً، وصفاء ذهن الأعراب في مثل هذا الأمر معترف به.

أما إذا تعذر هذا النهج، وأصبح لابد أن تلقى على صفة نصيحة، فهناك الوصيّة من ناضج إلى من هو مقبل على النضوج، وليس أقرب لهذا من الأب لابنه، ولهذا جاءت نصيحة أب لابنه في أمر الزواج هكذا:

«قال رجل لابنه، يوصيه:

يا بني! إياك والرَّقوب، الغضوب، القطوب، الغَلْباء الرَّقباء، اللَّفُوت، الشَّوساء، المنانة، الأَنّانَة، الحنانة.

واعلم أن من النساء جِماعاً تَجمع، وربيعا تَرْبَع، وخَروجا تَطلُع، توهي الخَرْق، ولا تَرقَع.

يعني بالرقوب: التي تراقبه أن يموت فترثه؛



الغلباء الرقباء : الغليظة الرقبة ؛ واللفوت : التي عينها لا تثبت في موضع واحد ، إنما همّها أن يغفل عنها فتَغمِزَ غيره ؛ والشوساء : المتشاوسة النظر من التِّيه ، والمنّانة : التي تمنّ على زوجها بمالها ؛ والحنّانة : التي تحنّ إلى زوجها»[1] .

قد يكون زوجها الأول ، أما عند العامة في نجد ، فهي التي تحنّ كما يحَن البعير فقد إلفه ، أو الناقة ابتعد عنها حُوارها . ويقول العامة أيضاً : فلانة حنانة ونانة ، والونين بالعامي قريب للحنين في هذه اللهجة .

ويحضرني ، يا بني ، طرفة هنا هي :

نزل رجل من أهل الشمال عند رجل من أهل القصيم وقدم له تمراً ، لم يعرف اسمه ، فسأل مضيفة فقال : الونانة ، فضحك وقال : «الونّاني بداري إن جيت للصدق» .

والونانات في البيوت ليست قصرًا على دار في الشمال بل إنهن في كل مكان ، وفي الرجال أيضاً

(١) مجالس ثعلب : ٢١٤ .



ونّانون، وليس في النساء عيب يخلو منه الرجال، وإنما الذين يكتبون في الماضي هم الرجال، ويتوقع أن ترد النساء، بعد أن تعلمن، الصاع صاعين.

أبعدتنا، يا بنيّ، كلمة واحدة هذا البعد، وجرّنا حديثنا عن «فحج» القنو على الغصن، مثل جحا، إلى هذا المقطع من الحديث. فلنعد إلى القنو، وذخيرته من التمر.

ولأذكرك بشكر الله، وأنت ترقب «البلح» الخلال أخضر مستديراً أو مستطيلاً، لا يلبث أن يعلوه احمرار، أو أصفرار، وهذه كما تعرف، مرحلة من مراحل نموه، وخطوة قبل بدء نضجه، الذي يبدأ «بالتتمير» حلقة صغيرة من النضج، تمتد تدريجا، فإن تُرِكت أتت على البسرة كلها، وسلبتها اسمها من بسرة إلى تمرة، كما سلبت البسرة الخلال اسمه قبل ذلك.

وأخيرا احمد الله، وأنت تضع التمرة الحلوة في

فمك، واعلم، يا بنيّ، أن التمرة أسرع تمثلا في الدم من أي فاكهة أخرى، بل أسرع من السكر؛ وقد نأخذ من هذا حكمة تفضيل الإفطار بالتمر في رمضان، والصائم أحوج ما يكون إلى تمثل الغذاء في عروقه. فسبحان من أوجد وبيّن من الحِكَم ما بَيّن، وأخفى ما أخفى.

أي بني!

لعله يهمك أن تقرأ بعض ما كتب أحد العلماء عن التمر، والنخل، لتكتشف مدى اهتمامهم بهذه الشجرة المباركة، التي كان كل شيء فيها يستفاد منه، من أتفه جزء إلى أهم جزء، وحديثهم المفصل، الدقيق، يدلك على مدى حبهم لها، وتقديرهم إياها، وإعزازهم لها، لما فيها من فوائد؛ وليوثقوا الخبر الذي يروونه يأتون بسند يعتمد عليه، وفيما سآتي به درس لك في السند والرواية، ولعل هذه أول مرة تلامس عيناك مثل هذا، فكحّلها به، فنعم الكحل هو:

«أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن مِقْسم، ثنا



(أي حدثنا) أبو بكر محمد بن يحيى بن سليمان المروزي، إملاءاً، ثنا محمد بن عمرٍو، عن جدّه أبي عمرو الشيباني، قال:

النخلة التي تنبت من النّواة يقال لها: شَرْبة؛ والمحوّلة تسمى: فَصْلة، ويقال: افتصلتُها، والتي تنبت في جذع النخلة، ثم تحوّل إلى مكان آخر هي: الرِّكزة. الرَّاكوب ـ وهنّ الرواكيب ـ مادامت في مكانها، وأصلها في الجذع، تدعى: الصنبور، وجمعها: الصنابير؛ وإذا كان في الأصل الواحد أربع، أو خمس، فهو: العريش.

والحفرة، التي توضع فيها النخلة، يقال لها: القناة؛ يقال: قد قنّيت كذا، وكذا؛ والنخلة، التي تَنَاوَلها بيدك هي: البُهْزُرة، وهن البهازر.

قال حبيب القشيري:

بَهَـــازِرًا لَـــمْ تَتَّخِـــذْ مَـــآزرا

فهِيَ تَسَامَى حَوْلَ جِلْفٍ جَازِرا



والجِلْف: الذكر الذي يُلقح منه، ويقال له الفَحَّال، ويقال إذا أفسدها (لعلها أسفدها) قد جزرها، وهو يجـزِر؛ واللِّيـف إذا انتُـزع، يقـال لـه: الهَمَـل، والواحدة هَمَلَة.

وقال القُلعة: التي تُقتَلَع من أصل النخلة تنبت في الكربة، وهي: لاحقة؛ والنخلة تكون فيها أخرى، فهي: الفريق، والسَّلِسَة، التي قد ذهب كَرَبُها، فليس عليها منه شيء.

وأنشد:

لاَ تَرْجُونَّ بِذِي الآكَامِ حَامِلةً
ما لَم تكُنْ صَعْلَةً صَعْبًا مَرَاقِيْهَا
يقُولُ خَارِفُهَا والرِّيحُ يَنْفُضُهُ
لا بَارَكَ اللهُ فِيما فِي خَوَافِيهَا
جَرْدَاءُ مَعْطَاءُ لاَ لِيْفٌ وَلاَ كَرَبٌ
ولاَ يُنَـالُ بِغَيـرِ الكَـرِّ مَـا فِيْهَـا

مَعطاء: أي جرداء، والصّعلة: التي فيها عِوج،

وهي جرداءُ أصول السَّعَف، والعروق: هي النّواجم، وهي الأمراس، وواحد نواجم ناجم؛ والخوافي: السَّعَف الذي يلي القلب؛ والكَرّ الذي يسمى السَّلَب، وواحد خوافي خافية.

وقال: الصِّرام ما صَرَمْتَ، والبقيّة في النخلة بعد الصِّرام يقال له: الكُرابة؛ ويقال للرجل إذا صعد في قلب النخلة، يقال: صار في قمتها، فإذا نَفَض العِذْق، فرمى به، فهو التَّرَبك؛ والعذق: الكِباسة، والعذق: النخلة؛ وإذا لُقِطت فبقي فيها شيء، فهي الشماليل، واحدها شملال. والنخلة الطويلة العُذُوق يقال لها: بَائِنَة؛ وإذا كانت قصيرة العُذوق فهي: حاضِنَة، وهي كابس.

وأنشد الحبيب القُشَيري:

مِنْ كُلِّ بَائِنَةٍ تُبِينُ عُذُوقُهَا
منْهَا وَحَاضِنَةٍ لَهَا مِيقَارُ

ويقال للنخلة: قد أَوْقَرَت فهي مُوْقِر، وَمِيْقَار،



إذا كثر حملها. الدَّالِج: الذي يَنقل إلى النخل من البئر، يحمل الدلو بيده. دَلَج يَدْلُجُ دُلُوجًا، والدّالج، أيضاً، الذي ينقل الماء من البئر إلى الحوض، وما بينهما مَدْلَج.

الذي يسقط من البسر، قبل أن يدرك: السَّرَاء، الواحدة سَرَاءة، وهو الجدال، الواحدة جَدالة؛ وهو السَّداء، ممدود بلغة أهل اليمامة، وهو السَّدى بلغة أهل المدينة. وهو السَّيَاب، الواحد سَيابه بلغة أهل وادي القُرى، وهي الرّمخ (بلغة) طيٍّ، الواحدة رمخة وهو الخَلاَل بلغة أهل البصرة، وأهل البحرين، وأنشد في الجدال:

وَسَارَتْ إلَى يَبْرِين خَمْسًا فَأَصْبَحَتْ
يَخِرُّ عَلَى أَيْدِي السَّقَاةِ جَدَالُها

والكَرَابة هو ما بقي في أصول السَّعَف بلغة أهل اليمامة، والغُشَانة بلغة أهل عمان، يقال للرجل: تَكَرَّبْ هذه النخلة من الكُرابة، وتَغَشَّنْها من الغُشانَة،

وهي الخِلالة بلغة أهل البصرة والبحرين، يقال: تَحَلَّلْها، ويقال للنخلة إذا تناثر بسرها قد أسلت، وهي مِنْثار ونُثْرة، ومُسْلِس ومِسْلاس، وقال: الشِّسِيف: البُسر المشقق، يقال: شَسِّفُوهْ.

ويقال: قد فَلَقَ النخل إذا انشقّ عن الكافور، وهو نخل فُلُقٌ؛ وجمع الكافور كوافير، وهو الطَّلْع، وهي نخلة فالق، وإذا استبان البُسْر قيل: قد حَصَّل النخل، وهو الحصل، إذا تدحرج، أي صار مُدحَرجا.

ويقال إذا صار شِيصاً: قد أصاص النخل، وصَيَّص، وهو الصِّيصاء، ونخلة مُصِيص ومِصْياص؛ ويقال للبُسر إذا عظم شيئاً: قد جثمت العُذوق، وهو الجُثوم، جَثم يجْثم جُثوماً؛ ويقال: قد تلوّن إذا اصفرّ أو احمرّ، ونوّر.

ويقال النخلة أول ما تطعم، يقال لها: عُرف، وهي البكُور، وهي المِعجال، ويقال: القيقاءة، غلاف الكافور» .(١)

(١) مجالس ثعلب: ٢/ ٤٧٩-٤٨٥ .



وفي الحديث عن النخلة يحسن أن نورد رأي الأعراب عن النخلة، وقد لا يكون أي من الأعراب قال هذا الرأي، ولكنه مشجب علق عليه الأديب فكرة طرأت له، والقصة هكذا:

«قيل لأعرابي: صِفِ لنا النخلة.

فقال: صعبة المرتقى، بعيدة المهوى، مَهُولة المجتنَى، رهيبة السلاح، شديدة المؤونة، قليلة المعونة، خَشنة المَلْمَس، ضئيلة الظل»[1].

وهذا ـ كما نرى ـ ذم، والحضري لا يتوقع من ابن البادية أن يمدح النخلة، ولهذا وضع على لسانه هذا القول، الذي لا يرضينا.

ويتضح الأمر أكثر في القصة التالية، والأشخاص فيها معروفون، ولهذا كان لابد أن يكون هناك حذر وتوقٍّ، فجاء القول عادلاً، بيّن الحسنات، وعدد العيوب:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٩٥.

«يقال إن الخليل بن أحمد قال للنظام، وهو صغير:

صف لي هذه النخلة ـ وأومأ إلى نخلة في داره.

قال: بِمدح أم ذم؟

قال: بمدح.

قال حلو جناها، باسق منتهاها، ناضر أعلاها.

قال: فذمّها.

قال: صعبة المرُتقى، بعيدة الُمجتَنى، محفوفة بالأذى»[1].

ودعني أذكرك ببعض فضائل الشكر، فقد يكون بعضها نفر من ذاكرتك، نفور الدابة من عقالها، ولعله يعود عود الحمام، الذي تحبه، إلى أوكاره، أو أقفاصه، أو بيوته.

رُئِي يونس بن المختار في دار المأمون، ومرتبته في أعلى مراتب بني العباس، قاعداً على الأرض، فقال له الحاجب:

(١) سرح العيون: ٢٢٧.



ارتفع يا أبا المعلّ إلى مرتبتك .

قال : قد رفعني الله إليها بأمير المؤمنين ، وليس لي عمل يفي بها ، فلم لا أكرمها على القعود عنها ، إلى أن يتهيأ لي الشكر عليها؟

فبلغ الكلام المأمون : فقال :

هذا والله غاية الشكر ، وبمثله تدرّ النعم[1] .

واستمع ، يا بنيّ ، إلى ما كتب به عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إلى ابنه عبدالله :

«أما بعد : فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ؛ فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نيّة له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خَلِق له[2] .

ومن كلمات عمر ، رضي الله عنه :

لو أن الشكر والصبر بعيران ما باليت أيهما أركب .

---

(١) زهر الآداب : ٣٧/ ٢ .

(٢) زهر الآداب : ٧١/ ١ .

وإن لم تخني الذاكرة، فإني سبق أن ذكرت لك قولاً حكيماً في مجال الشكر وهو:

«إنّ أَشْكَر الناس لله أشكرهم للناس»[1].

واعجب، يا بنيّ، مع محمد بن إسحقِ بن حبيب، في هذه الأبيات:

إِذَا أَنَا أَعْطَيْتُ القَلِيلَ شَكَرتُمُ
وإِنْ أَنَا أَعْطَيْتُ الكَثِيرَ فَلاَ شُكْر
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِهِم
وَقَدْ كَانَ لِي فِيمَا اعْتذَرْتُ بِهِ عُذْرُ[2]

***

(١) عيون الأدب والسياسة: ١٥.
(٢) روضة العقلاء: ٢٨٠.



ما تنبت الأرض

أي بُنَيّ!

الفواكه، في الزمن الماضي، كانت قليلة ومحدودة، لأن النّاس كانوا ينظرون إليها على أنّها ليست من الضَّرورات، وحياة التقشّف هي التي أوحت إليهم بهذا؛ وصرفوا جهدهم إلى زراعة أطعمة الضرورة، مثل القمح، وغرس النخيل، والعناية بهما، وكذلك الشّعير، والذّرة، والدّخن، والسمسم في بعض المناطق، وما إليها من الأشياء التي تدخل في نطاق القوت.

والتّمر إن كان يحسب ضمن الفاكهة، إلا أنه قوت رئيس؛ وكانت تزرع بعض الفواكه في بعض المناطق مثل التّفاح البلدي، والرّمّان، والتّين، والخوخ، و«الجح»: (الحبحب)، و«الجراوه»: (الخربز)، العنب، والأترنج؛ وتكاد الفواكه في نجد لا تعدو هذه الأصناف؛ أما في الحجاز فيزيد عليها المشمش

والحماط: (نوع من التين)، والموز، والنبق، والسفرجل، والبخارَى، واللّيمون، والبرشومي، والتّوت، واللّوز. وقد اشتهر الطّائف بجودة الفواكه، خاصّة العنب والرّمّان، وهذان الصنفان لا يوجد مثلهما في الجودة في أي منطقة في المملكة، وإذا نقلا إلى منطقة أخرى لا يلبثان أن يفقدا، بعد فترة وجيزة، جودتهما، ويقتربان في نوعيتهما من فاكهة المنطقة التي زرعا فيها، إلا إذا زُرعا في بعض وديان الحجاز، فلاقتراب الطبيعة، وتماثل الأجواء، تبقى لهما طبيعتهما، وقد يزيدان في الجودة؛ وكما تعرف، يا بنيّ، البرشومي مشهور في الطائف، وله موسمه، الذي يفرح به محبوه، وحماط الطائف، وهو نوع خاص من التّين، لا مثيل له، وله طعم لذيذ، يكاد الإنسان لا يشبع منه.

والطائف كما تعرف أيضاً، يا بنيّ، كان المصيف الأول في المملكة، قبل أن تمهّد الطرق، وتعبّد، وكان الناس، خاصة أهل مكة، لا يمر بهم صيف دون أن



يصعدوا إلى الطائف. يتمتعون بجوّه البارد، وفاكهته المتعددة الأصناف، الشهيّة المذاق، الرخيصة الثمن في الماضي.

كانت المزارع تحفّ بالطائف، وتمتدّ إلى مساحات بعيدة، عنه، في الوديان التي اشتهرت بخصوبتها ومياهها، مثل «المَثناة» و «لِيّة» و «المُخواة»، وغيرها. وكان الناس يذهبون إلى البساتين، وكان الشخص يدفع رسما زهيدا، يسمح له به الفلاح أن يأكل طوال النهار من الفواكه، على شرط ألا يخرج بشيء منها. وقد يكون الرسم قرشاً أو قرشين، ولكنه ثمن جيد إذا عرفت أن الخروف، في ذلك الوقت، ثمنه يتراوح بين ريالين وثلاثة.

وكأني بك، يا بنيّ، كنت تود مني أن أبدأ حديثي معك اليوم بقصة، تكون فاكهة الحديث في نظرك، أما في نظري ففاكهة الحديث هو ما فيه فائدة مباشرة، دون الحاجة إلى تغليفها بغلاف برّاق؛ وكأنّي بك تقول: إن الفيتامينات، والمعادن المفيدة للجسم،

التي تأتـي في الأطعمـة الطبعية، مثل الفـواكه، والخضروات، أكثر فائدة من تلك التي تصنع حبوباً، يتناولها الإنسان مثلما يتناول الدّواء. فالفائدة في القصّة أشبه بالفيتامينات في الخوخ، أو غيره من الفواكه، والبروتين في اللحم خير منه في الكبسولات؛ وأنت، يا بنيّ، تعرف كيف تدّخر الحجج القوية، لكسب الجدل، عندما تريد شيئًا لصالحك، وهذا يدلّ على خير، لأنك عندما تنضج ستجد هذا مدخراً عندك، وتكون حجّتك حاضرة، عند كل جدل؛ ولكن عليك حيئنذ أن تكون عادلاً، وألا تجادل، وتجتهد في اقتناص الحجج القويّة، عندما يكون لك مصلحة، وتتراخى عندما تكون المصلحة لغيرك، وإلا فتكون مثل الموظف الذي يحفظ جميع الأنظمة، والتعليمات، التي توصله إلى الترقية، ولا يذكر منها ما يخدم عمله المفيد لجمهور مجتمعه.

والإِيثار، يا بنيّ، مطلوب، لأنه سِمَة النضج، وسمة الحضارة، وسمة إدراك أهمية الفرد في



المجتمع، إسمع أبا العلاء يقول:

فَـلاَ هَطَلَـتْ عَلَـيَّ وَلاَ بِـأَرْضِـي
سحَـائِـبُ لَيْـسَ تَنْتَظِـمُ الْبِـلاَدَا

أن يُذيب الإنسان مصلحته في مصلحة المجتمع عمل لا يستطيعه إلا ذوو العزم من الرِّجال، مَن يركبون الصعاب، من يغلبون أنفسهم، من يقاومون التّيّار المعتاد البُدائي، ويصعدون إلى ما لا يستطيع الارتقاء إليه إلا من أعطي القوة الداخلية، والمقدرة الفائقة، وكأنّ هناك، يا بنيّ، تياراتٍ روحية، جُعِل لها مسالك لا يراها الإنسان؛ إسعَ في مصلحة غيرك، خاصّة من لا يستطيع أن ينال مصلحته بنفسه، يُسهّل الله، من حيث لا تدري، لك مسالك تخدم مصلحتك دون أن تدري، ومسارب يعود إليك مردود عملك عن طريقها دون أن تتوقّع ذلك، وفي وقت أنت في حاجة إلى لطف الله وعونه. لا يضيع شيء عند الله، فاجعل عملك من أجل خلقه؛ إنّ ما أقوله ينطبق

عليه: اطلب الموت توهب لك الحياة؛ إعط النّاس ما تحبّه لنفسك، تعط ما وهبت، ومعه أجر وثواب.

لقد خرجت بك من أمور الفاكهة، التي توضع على المائدة، إلى ما أرجو أن يكون فاكهة تغذّي روحك، وكان قصدي أن أمهّد لأمر ينعشك، وأنت في طريقك من فواكه الطائف إلى فواكه الزِّيمة، وهي رحلة كانت في الماضي شاقّة، أما اليوم فإنّها ممتعة. الإنعاش الذي قصدته له قصة لها صلة بالزّرع، والغرس، والنّبات، الذي نحن بصدد الحديث عن بعض جوانبه:

دخل أبو دلامة على الخليفة المنصور، فأنشده قصيدة أعجبته، فقال له:

يا أبا دلامة، إن أمير المؤمنين قد أمر لك بكذا وكذا من صلة، وكساك، وجمّلك، وأقطعك أربع مئة جريب عامرة، ومئتين غامرة.

فقال أبو دلامة: أما ما ذكر أمير المؤمنين من



الصّلة فقد عرفته، وعرفت العامرة، فما الغامرة؟

قال: الذي لا نبت فيها ولا شجر.

قال: فقد أقطعتُ أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة.

قال: ويحك أين؟

قال: بين الحيرة والكوفة.

فضحك منه، وسوّغها إياه عامرة(١).

وأبو دلامة، يا بنيّ، رجل فكاهة، وخفيف ظل، مع ذكاء مفرط، كما رأيتَ، يُكسبه الكثير مما يطمح إليه، كما يبدو في القصص التي تُروى عنه. ومن المناسب أن أقص عليك قصة لا تدل على ذكاء لنعدل الكفة، ولها صلة بالفواكه، والمنتجات الزِّراعية، لأنها عن التّمر، وأكل التّمر:

قال أحد الناس: رأيت رجلاً محموما مصدّعا يأكل التمر، ويجمع النوى، فقلت:

---

(١) الأذكياء: ١٥٤.

ويحك! أنت بهذه الحال، وتأكل التمر؟

فقال: يا مولاي، عندي شاة ترضع، وما لها نوى، فأنا آكل هذا التمر، مع كراهيتي له، لأطعمها النوى.

فقلت: إطعمها التّمر والنّوى!

قال: أويجوز ذلك؟

قلت: نعم.

قال: والله لقد فرّجت عني، لا إلٰه إلاّ الله، ما أحسن العلم![1].

لا أظن أن هناك بين أقرانك من يحب الإختبار، وأنت أيضاً كذلك، ولكني سوف أختبرك، وكأني بك تقول:

هل كل استماع أو قراءة ينتهي باختبار؟

على رسلك، يا بنيّ، هذا الإختبار سوف تجده ممتعاً. وكأني بك أيضاً تقول:

وهل في الإختبار ممتع؟

---

(١) كتاب أخبار الحمقى والمغفلين: ١٦٨.



لا تعجل، يا بنيّ، تعست العجلة!

سأذكر لك حالة أحد الأغبياء، وسوف أسألك، وهذا هو الإختبار، أيهما أشد غباء، صاحب القصة الأولى، أم صاحب الثانية.

والقصة الثانية من المصدر السابق نفسه، لاحظ أني قلت: المصدر نفسه، ولم أقل: نفس المصدر، لأن المصدر ليس له نفس، وهذا التعبير خطأ شائع، ولم أتنبّه له، أنا نفسي، إلا منذ فترة وجيزة، عندما نبّهني أحد العارفين، جزاه الله خيراً، ونبّهني إلى خطأ كلمة «هامّة»، والصحيح «مُهِمَّة»، أو «مهم». فافهم؛ وقد أشقاني بهذا العلم، لأني قلّ أن أقرأ شيئًا إلا وأجد إحدى الغلطتين فيه، حتى في كتبي التي سبق أن ألفتها، وقد تداركت ذلك، في طبعة أحدها مؤخرا؛ وكلمّا مررت بهذا الخطأ الآن في كتاب أو صحيفة أشعر بوخزة في شعوري، يهتزّ لها بدني، وألاّ تعلم بالخطأ أحيانا أسعد من أن تعرفه، ولا تستطيع أن تعدّله.



والقصة تقول: قال أحد الناس لمملوكه:

أخرج، وانظر، هل السماء مُصحية أو مغيّمة؟

فخرج، ثم عاد، فقال:

والله ما تركني المطر أنظر، هل هي مغيّمة أم لا؟[1].

ولعلك لاحظت جملة «تَعِسَت العَجَلةُ» في سطر سابق؛ ولأنك نجحت في الإختبار، وكانت نتيجتك الحيرة: في أيهما أغبى! وهذا هو الجواب الصحيح، فسوف أقص عليك قصة تعست العجلة، مكافأة لك:

أرسل حيّ من الأعراب شابا، ليحضر لهم جمرة من حي آخر، ليشعلوا بها نارهم، فذهب الشاب، ووجد، في طريقه، جماعة يستعدّون لسفر بعيد، فعرض أن يصاحبهم، أو عرضوا هم عليه أن يصاحبهم في سفرهم، فسافر معهم، ولم

(١) كتاب أخبار الحمقى: ١٨٧.



يعد إلا بعد سنة، ومرّ في طريقه عائداً بالحي الذي كان طلب منه أن يُحضر منه «وِقْدة» في العام الماضي، فأخذ منهم الجمرة، وجاء حيّ أهله، وعندما أراد أن يدلف إلى بيت الشعر هناك، عثر بأحد أطناب البيت، فسقطت الجمرة، فقال: تعست العجلة!

يكفي هذا، يا بنيّ، فنحن نتّجه لهدفنا لنعرف أنواع الفواكه، في ذلك الزّمن، فما هو المكان الذي نريده؟ اسمع!

من الأماكن المشهورة بفاكهتها «الزّيمة»، وهي واحة خضراء في طريق الطائف، للصّاعد من مكّة؛ كانت مشهورة بزراعة الموز، ذي الرائحة الزّكية، والطعم اللذيذ المذاق، وفيها الليمون الجذاب الرائحة، وماؤه كثير؛ وكان الناس يفرحون عندما يصلون الزّيمة، لأنهم بها يريحون من عناء السفر، ويجدون فيها الماء العذب، والفاكهة الفريدة في طعمها، ويستظلون بظل أشجارها.

وكانت الوديان القريبة من مكة المكرمة، خاصة وادي فاطمة، وبساتين جعرانة، والمضيق، تمدّ مكة، شرفها الله، بالفاكهة حسب المواسم، وتوفّر الفاكهة فيها؛ وأبرز الأوقات وقت الصّيف، حيث يتوفر الحبحب، والخربز، ذو الرائحة النفّاذة، والعنب؛ وكان يأتي إلى مكة في مواسم الحج بعض أنواع من الفواكه الغريبة، تأتي مع الحجّاج، خاصة القادمين من شرق آسيا، بعضها جديد، وبعضها مجفّف، وكان التّمر أيضاً يأتيها من هذه الوديان القريبة منها، وموسمه يبدأ قبل موسم التّمر في نجد، وينتهي في فترة قصيرة، وربما يعود ذلك إلى حرارة الجو في المنطقة.

ونحن الآن، يا بنيّ، على سفر في مناطق متقاربة في الحجاز، نطلّ على البساتين، ونرى ما بها من الفواكه، وقد تكون الآن جائعاً، وذكر الفاكهة وأنت جائع، يجعلك لا تفكر إلا في أكلها، وليس في زراعتها، وأماكنها، ولا تلام، فالجوع يسيطر،



ويغلب، ولا أقوى منه إلا أن يكون المرء حاقنا .

ما رأيك، دام فضلك، في قصة تجمع بين السفر والأكل، وفيها عنصر يحبه بعض الناس، وهو الكسل، وعندما أقول بعض الناس، أرجو، ألا تظن أنّي أعنيك، أو أبناء جيلك، لأنكم إن شاء الله أبعد من أن توصفوا، أو توصموا، بالكسل، ومن فكّر في ذلك كذّبه ركض درزنين منكم لمدة خمس وأربعين دقيقة خلف كرة «محجورة» في ملعب مسوّر، تُتقاذف من رجل نشيط إلى رجل نشيط، يشهد على ذلك آلاف وآلاف ممن بُحّت حناجرهم، يوقدون نار مرجلكم، على هذه المسكينة التي تركلها أقدامكم، لا كلّت!

يقول أبو حيان في كتاب الامتاع والمؤانسة : ضمّ عثمان بن رواح السفر، ورفيقاً له، فقال له الرفيق :

امض إلى السوق، فاشتر لنا لحمًا .

فقال : والله ما أقدر .

قال: فمضى الرفيق، واشترى اللحم، ثم قال لعثمان:

قم الآن فاطبخ اللحم.

قال: والله ما أقدر.

فطبخه الرفيق، ثم قال:

قم الآن فاثرد.

قال: والله إني لأعجز عن ذلك.

فثرد الرفيق، ثم قال:

قم الآن، فكل. فقال: والله لقد استحييت من كثرة خلافي عليك، ولولا ذلك ما أكلت[1].

(لا فض الله فاه على هذا الجواب)!

أين هذا الضيف الثقيل، والرفيق الكسول، من صاحب اليت الآتي:

وَإِنّي لأَسْتَحْيِي رَفِيْقِي أَنْ يَرَى
مَكَانَ يَدِي مِنَ جَانِبِ الزَّادِ أَقْرَعَا[2]

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ص ٤٠، والأذكياء: ص ١٨١.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ص ٤٠.



لابد أن قائله من نوع رفيق ابن رواح، الذي قام بكل ما تطلّبه الأكل من خطوات؛ طبعًا أنت، إن شاء الله، تطمح أن تكون هذا الرفيق، لا أشك في هذا!

ومن أشهر الأماكن التي تموّن مكة المكرمة وأطرافها بالتمور، في هذه الفترة، تَرَبَة، والخُرْمَةُ ورَنْيَة، لخصب أراضيها، ولكثرة ما بها من النخيل والمياه، وما تنتجه بساتينها من التمر، ولقرب سوق مكة منها، وازدهاره.

والطائف يأخذ نصيبه أيضًا من هذه المنتجات التي لا يثمر نبتها فيه. فالتمر، والحبحب، والخربز، لا يُغرس، ولا يزرع في الطائف. ولعل برودة الجو هي السبب في هذا(١). مع أن من يزور حائل، يا بنيّ، يرى النخلة زاهية في هذه المنطقة الباردة، ترى النخلة وقد نبتت في مجرى سيل منحدر من أحد

(١) يبدو أن السبب يكمن في أن ارتفاع الطائف يزيد عن ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر وهو الحد الأدنى الذي يمكن أن تثمر فيه النخلة. نخيل التمر، ٦٩.

«شعبان» أجا، وتتعجب كيف تقاوم برد الشتاء هناك؛ وأذكر، يا بنيّ، أننا خيّمنا في وقت من أوقات الشتاء الدافئة، في أحد الشعاب التي في أجا، وصعدنا إلى مكان لعل اسمه «الرفايع» ورأينا كهلاً في مكان كأنه الصحن، فيه ما يقرب من عشرين نخلة، قد احتضنها الجبل، وأسال عليها شلالا منحدراً، يرويها، ويزيد؛ وكان الرجل يعتني بها، هو وابن له صغير، وكان يضع خَزَازًا على مكان الجُمّار، ويقول إنه يحميه من النّمس الذي هو عدوها اللدود.

ولعل أهل الطائف غرسوا النخيل وزهت، ولكنها لم تثمر، وعقمت.

ولعلّك، يا بنيّ، كالعادة، قد مللت المعلومات التي يسمّيها جيلك جافّة، لأنه ليس فيها قصة، ترفّه عنك، لأن الكسل عندكم له مزيّة، ولعلكم قد أخذتم بمبدإ صاحب الأبيات الآتية:

إِنَّ التَّهَـاوُنَ وَالكَسَـلْ أَحْلَى مَذَاقًا مِنْ عَسَلْ



إِنْ لَمْ تُصَدِّقْنِي فَسَلْ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِي الكَسَلْ

وهذه تذكرني بالكلمات المعسولة ، التي ذكرت لك أن أنثى الزنبور تلفظت بها ، أمام الحجة الدامغة ، التي أرسلتها مدوّية مجلجلة النملة الدؤوب . على أي حال لقد ذكرت لك من القصص هناك ما فيه الكفاية ، وهو دين عليك آخذ منه وفاء هنا . ولكنّ هناك شيئًا غير القصة ، لعلك تذكره ، أدوّنه هنا ، لأني أخشى ألا تخبر به ابنك ، فيضيع من جيل إلى جيل ، هذا الشيء هو اللغز الذي كان الأطفال يطلقونه على الرمّانة ، وهو «طاس طاس بالبحر غطّاس ، داخليّه لولو وطالعيّه نحاس» . وهو عن الفاكهة ، التي نحن بصدد الحديث عنها ، وسوف يجرّنا ، ونجعله مدخلاً للغز آخر لعلك تكسب مع ابنك ، أو أحد أبناء جيله ، رهاناً ، إذا لم يعرفه : «أربعة مع أربعة ، تقامزوا بالمزرعة ، معهم صُبيّ دُوبِلي ، يضرب مضاريب أربعة» هذا لغز عن يد المزارع والمِحَشّ ، أو المخلب : الأربعة الأولى أصابع اليد اليمنى ، والأربعة الثانية

أصابع اليد اليسرى، الأولى تمسك المخلب والثانية الزرع والصبي هو المخلب.

وهناك أربعة يمشون، وأربعة يبكون، ووراهم صبي مجنون. الأربعة الأولى يدا البقرة، ورجلاها، والأربعة الثانية حلمات الثدي، ثم ذيلها.

واتصلت، يا بنيّ، المملكة بالعالم الخارجي على نطاق واسع، بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن ازداد دخل المملكة، ومكّن لها من أن تستورد ما تحتاجه، وما أصبح بعد استنارة الفكر من الضروريات، فلم تعد الفواكه من الكماليات كما كان يُظنّ. بعد أن عرف الناس عناصر التغذية الصحيحة، وما يحتاجه الجسم، مما لم يكن متوفراً، سعوا إلى توفيره: شيء استوردوه، وشيء استوردوا بذوره، وزرعوها؛ وسرعان ما عجّت الأسواق بالفواكه، التي لم تكن معروفة، أو كان معروفاً نوع واحد منها، وأصبح المتواجد منها أنواعًا، بميزات مختلفة: فالموز،



والعنب، والتّفاح، والكمّثرى، والتّين، والخوخ، والبرتقال، (الذي لم يكن معروفاً إلا بالذكر، أو نادر المجيء)، أصبحت هذه تملأ الأسواق، وبأنواع مختلفة، وفي بلدان متعددة، وجلبت الكمّثرى، والمنجة، والكاكا، والكيوي، والمشمس، والكرز، وما لا يحصى من الأنواع والأشكال. هذا غير ما يرد معلبًا، أو عصيرًا، أو مجففًا.

آراك الآن اعتدلت في جلستك، ونظرت إليَّ نظرة ذات معنى، تكاد عيناك تنطقان، فتقولان: هذا أوان وجبة الإحماض، ولاحظ كلمة «وجبة» هنا، لها دلالة يتلاقى صداها مع صدى جوعك، والجائع يصوغ عباراته من مواد الأكل، يعجنها جملاً مفيدة، هل تذكر ما قاله مدرس علم النفس لطلابه؟ وكيف أن أحدهم، لأنه جائع، عندما طلب منه المدرس أن يصف الشمس، وصفها بقرص الخبز. ومعنى هذا، يا بنيّ، أن أول من قال: «قرص الشمس» كان جائعاً.



ولماذا أتحدث في هذا المجال عن مدرس علم النفس، وهناك من يهمك الحديث عنه أكثر: وهو الطفيلي، والطفيلي قرين جحا عندك، معزّة وتقديراً، فكلاهما تجذبك الأحاديث عنهما. ويروي المبرد أنه قيل لطفيلي:

كم اثنان في إثنين؟

قال: أربعة أرغفة.

وقال طفيلي آخر:

انتظرت فلانا مقدار ما يأكل الإنسان رغيفاً[1].

أرأيت، يا بنيّ، هذا التوقيت إنه متقن، لأن الوقت عند الطفيلي أكل، وهو لا يخطئ في أمر الأكل؛ وهذا باب واسع، يا بنيّ، عليك بالرجوع إليه في مقارّه، ومستودعاته في الكتب.

وكان بودّي ألا تستعجل في طلب الراحة، لأني كنت أفكر فيها، قبل أن تبدي علامات طلبها، ولو

---

(١) الأذكياء: ص ١٨١.



صبرت، كما قال الخليفة الراشد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لكنت اقترحتها، والعجلة، يا بنيّ، كما سبق أن قلنا: إنها من الشيطان إلا في خمسة أمور، فإنها من السنّة: إطعام الضيف إذا حلّ، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدّين، والتوبة من الذّنب[1].

أما قصة الخليفة الرّاشد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - التي مرّت عرضاً، قبل ثوان، فهي أنه قيل له:

ما الشجاعة؟ وهو معروف بها، فطلب من السائل أن يضع إصبعه بين أسنانه، ووضع هو - رضي الله عنه - إصبعه بين أسنان السائل، وقال له:

عض إصبعي، وأنا كذلك سوف أعض إصبعك، ونتصابر.

فلما أحس السائل بالألم، وكان شديداً، مما لم يستطع معه الصبر، صرخ: آه، دليل الشكوى والتسليم. فأخبره الخليفة بأنه كان يتألم مثله، ولو

(١) الامتاع والمؤانسة: ٢/ ٦٨.



صبر قليلا لكان الخليفة هو الذي استسلم .

والعجلة ، يا بنيّ ، ليست العيب الوحيد في بعض النشء ، ولكن هناك عيوب كثيرة ، لا أريد أن أسردها حتى لا تأخذ أنت جانباً (كما يقول التعبير الحديث ، قاصداً الانحياز جانبا ، تحفزا للانقضاض هنا) وسوف أقسط هذه العيوب عليك ، وآتي بها ختلا ، خلافاً لعادتي ، ولو أني أعرف أنك تحبّ الختل ، والسبب معروف ، ولكنك ، مع هذا ، تحبّ أن تكون خاتلا لا مختولاً ، ولكن هنا ليس لك خيار ، فالكرة في يدي ، فاحرس مرماك جيداً .

أقرب عيب حبّك لليقظة من النوم متأخراً ، ونومك في أوّل النهار مطولاً ، وسهرك بالليل نتيجة لهذا . وهذا كلّه يخالف الوضع الطبعي ، حتى في الإجازات ، وفيها تبرز حجتك ، وهي حجة باطلة ، لأنه لم يقل أحد من العاقلين بأن الإجازة سهر بالليل ، ونوم بالنهار .



يروي صاحب الامتاع والمؤانسة أن ابن إبراهيم بن السّندي قال :

أيقظت أعرابية أولاداً لها صغاراً، قبل الفجر، في غدوات الربيع . وقالت :

تنسّموا هذه الأرواح (جمع ريح)، واستنشقوا هذا النسيم، وتفهّموا هذا النعيم، فإنه يشد من منتكم[1] .

والقول في فوائد النوم ليلاً مبكراً، والنهوض في الصباح فجراً، يمكن أن يؤلف فيه مجلدات، تبدأ بقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾[2] .

ويكفي في اليقظة مبكراً ما سبق أن قلنا، وهو أنك به ترى مولد الشمس، بينما عند قدوم الليل ترى وفاة الشمس وموتها في مغيبها، وفرق بين الولادة والموت .

---

(١) الامتاع والمؤانسة : ٢/ ٦٧ .

(٢) القرآن الكريم، سورة النبأ، الآيتان : ١٠، ١١ .

ويجب أن نفرحك هنا، فنقول: ان العيوب ليست صفة لازمة لسنّ معينة، وإنما هي مشاعة، تلمس الأعمار كلها، وأقرب مثل لعيب أحد الذين تعدوا سنّ الشباب ذلك الرجل، الذي كنا نتحدث عما لاحظتَ أنت وزميلك عليه، وهو تدخّله في أمر لا يخصه، يعني «لِقَافته»، وهو أمر لم تطيقاه. لن أعلق على هذا حتى لا يكون في الأمر غيبة له، والناس، كما تعرف، ما أسرعهم إلى الغيبة، والتلذّذ بها، ولهذا شُدّد عليها في الدين. وإنما سوف أروي لك من التراث «لِقافة»، لن ننسبها لأحد، وسوف نجد في التراث كثيراً مما يعالج أمورنا الحاضرة، وفي إيراده، فائدة لمعرفة التراث، وفي الوقت نفسه فيه خروج وابتعاد عن نهش لحم المعاصرين. وقد حدثت القصة في وقت معاصر، ولكن لها مثيل مطابق حدث في الماضي.

حدّث عمرو بن العاص، قال: أعجبتني كلمة من أَمَة، قلت لها، ومعها طبق:

ما عليه يا جارية؟

قالت: فِلم غطيناه إذاً؟[1]

والآن نعود، يا بنيّ، إلى الفاكهة، والغريب أننا أبعدنا عنها كل هذا البعد، وقد يكون السبب أن الوقت متأخر، والإجهاد قد تحقّق، ولهذا نفرح بأي شيء يبعدنا عن حديثنا الأصل، حتى لو كان شيقاً، وهو الفاكهة، ولكن يبدو أن فاكهة البطن لا تكون مهمّة، إذا لم يكن المرء جائعاً.

لم يكن الجيل الماضي، يا بنيّ، كما قلت لك يهتم بالفاكهة، فهو لا يفقدها إن لم تقدّم له، وهو لا يطلبها إذا لم يجدها؛ وبقي هذا الاتجاه عندهم حتى اليوم، لا يقبلون على الفواكه، إلا في حدود ما يشعرون أنه لابد منه، أما الجيل الجديد، فقد فتح عينيه على الفواكه، وكثرتها، وإن لم يقبل أحيانا على الفاكهة، فلأن ما على السفرة من المغريات الشهية ما يُزاحم

(١) قيل لمزيد ـ وهو يحمل شيئًا تحت إبطه ـ: يا مزيد، ما هذا الذي تحت حضنك. قال: أحمق، ولِمَ خبّأته؟ بهجة المجالس: ١/ ١٠٤.

الفاكهة، التي رائحتها لا تجذب بقدر ما تجذب الابهارات والأبازير، ورائحة اللحم المشوي أو المقلي.

هذا، يا بنيّ، ما يمكن أن أقوله عن الفواكه، أمّا الخضروات فهي تسير معها جنباً إلى جنب، في بساطةِ ما كان موجوداً في الماضي، وإدخالِ المزيد في الحاضر، مع الوعي في الحاضر بفائدتها، والتفنّن في طبخها نتيجة الاتصال، وكثرة الزّوجات المتعلمات، اللاتي قد أنشأن مكتبات في المطبخ، تعجّ بالكتب، بلغات مختلفة، وألوان مغرية.

والأكل، يا بنيّ، حتى لو كنت غير جائع، أمره لابدّ أن يلفت نظرك، أو على الأصح، يحرّك معدتك، لتلفت نظرك. والحديث عنه يطول، لو ولجنا بابه، أو حاولنا سبر غوره، ولكننا سنلمسه لمساً، خاصة وأنه في السنّة ليس لنا منه إلا ما ملأ ثلث البطن، وإن كنا اعتدنا أن نخالف السنّة في الأكل، وأملنا في رحمة الله وغفرانه؛ فالجلوس، يا بنيّ، على السفرة أمر

يبطل العزائم، (ولا أقصد هنا الموائد، ولكني أقصد قوّة الارادة والمقاومة) وإذا كانت الشجاعة، كما سبق أن قلنا، في القرون الماضية، هي إظهار البطولة، بالضرب بالسيف والرّمح، في ميدان القتال، فهي في هذا الزمن تقاس بمقدار قهر الإنسان نفسه، عن الإيغال في الأكل، والإمعان فيه، إلى حدّ الضرر، ومخالفة التعليمات الصحيّة باصرار؛ ولكلّ طبق من الأطباق الشهيّة لسان «ذرب»، في مناداة الآكلين، تسمعه عيونهم، وأنوفهم، وأفواههم، وتتعاون هذه القوى المسنونة على الأطاحة بالأكل المسكين، فينقض الآكل على هذه الصحون، ويأتي عليها، والمعدة تصرخ، وتقول: قَطْني، مهلاً رويداً قد ملأت بطني»[١] ، والفم، وصدى صوت الشهية: «عطني»؛ و «عطني» صوت مسموع، لأن فيه أخذًا، وصوت الأخذ يعلو على صوت التخلّي.

---

(١) تمام البيت:

امتلأ الحوض وقال: قطني مهلا رويدًا قد ملأت بطني

وهو شاهد على دخول الضمير على «قطّ».

ثم بعد أن ينتهي الآكل من الأكل «تذهب السكرة وتأتي الفكرة»، كما يقول المثل العامي، ويندم الآكل، وقد يحلف ألا يعود، وهو يعرف أنه سيعود، ومتيقّن أنه سوف يكرّر ما عمل؛ ألا تذكر الصديق، الذي حكى أنه، كلما ذهب إلى مطعم هندي في لندن، وأكل، وأكثر من «كَرِي مِدْرَاس»، واندلعت ألسنة لهب الفلفل في جوفه، أقسم أغلظ الأيمان، والعرق يتصبب من جبينه، مع إحساسه ببُخار يتصاعد من صلعته، وجسمه «متبَلتي»: متهالك، ونَفَسَه ثقيل، أنه لن يقربه بعد ذلك اليوم؛ ولا يمرّ يوم أو يومان، إلا وهو يحوم حول حِمى المطعم الهندي، ولا يلبث أن يقع فيه راضياً مختاراً سعيداً. ثم تعود القصّة من جديد، ويأكل الرز بالكَرِي، وتلهب جوفه «الحباحر»، والفلافل، ولا ينقذه إلا قدوم الصيف، وانتهاء الدراسة، وعودته لأهله في الإجازة.

صديقك جحا، يا بنيّ، له قصة مع الأكل طريفة: قيل أنه شَمّ رائحة سمك عند جاره، فطرق الباب،



فتلصّص أهل الدار عليه، فعرفوه، فأسرعوا بإبعاد السمك الكبار من المائدة، ووضعوها في ركن بعيد من الغرفة، وتركوا الصغار منها على المائدة، ثم أذنوا له، فدخل، فَدَعَوْهُ إلى المائدة، فجلس معهم، وبدلاً من أن يأكل، قرّب إحدى السميكات إلى أذنه، وأخذ كأنه يستمع إلى قول تُسِرّ به إليه. فقال من حوله:

ما تفعل يا جحا؟

قال: سألت السمكة الصغيرة، إن كانت ممن أكل أبي، عندما غرقت سفينته، فأقسمت هذه أنها لم تكن من جملتهم، ولم تكن قد ولدت حينئذ، وإن الفاعلة موجودة تحت غطاء في الركن الشمالي من هذه الحجرة.

وبهذا فشلت حيلة أهل البيت، وأُحضر السمك الكبير، وأكل صديقك جحا، حتى بَشِم، مقدار ما بشمت ثعالب مصر في بيت المتنبي[1].

---

(١) بيت المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها — وقد بشمن وما تفنى العناقيد

ويروي صاحب الإمتاع أن أبا خليفة المفضّل بن الحُباب، دعي إلى وليمة، فرأى الصحاف توضع، وترفع، قبل أن يتمكن الآكلون من أخذ كفايتهم منها، فقال: ألِلّحن والمنظر دُعينا، أم للأكل والمخبر؟ فقيل للأكل والمخبر. قال فاتركوا الصحفة يُبلغ قعرها[1] .

تستحق هذه القصة، يا بنيّ، أن نقف عندها قليلاً، فالصحفة «هنا تذكرنا بصحاف نجد، التي كانت تستعمل قديماً، وكانت تصنع من الخشب، ويأكل الناس فيها، وهي أحجام، بعضها صغير، وبعضها كبير، حسب عدد الآكلين. ومن ميزتها أن الأكل فيها يبرد بسرعة، وهذا يساعد الجائعين، الذين لا صبر عندهم. وأحيانا يعتريها الخلل، فتنشق إحدى جنباتها، «فتُشرَّط» أي تلحم بشريط، ليلتئم جانبا الشق أو الكسر، ويتم هذا أحيانا بقِدّ، وأحيانا «بِسِيم» من حديد، ويقوم بذلك عادة أفراد من

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٣/ ٧.



قبائل «الصلب»، ولهم أوقات يمرّون فيها على المدن، والبوادي، وينادون «إهنا شيء يشرّط أو نقش رحى». وهم يجيدون هذا العمل؛ ولهذا فالناس يجمعون ما «ينشطب» من «مَوَاقع»، جمع موقعة، أو صحاف، والفرق بين الموقعة والصحفة أن الموقعة «أغوط» و «أقعر»، أما الصحفة فمسطّحة نوعاً ما؛ والمُوقعة أقرب شكلا «للبادية» اليوم، والصحفة أقرب للتبسي.

هذه، يا بنيّ، فائدة، أهديت لك في غير مكانها، وجاءت عرضاً، وبعض ما لا يقصد خير مما يقصد، وكما يقولون في موقف آخر: «ربّ صدفة خير من ألف موعد».

الأمر الثاني: أنه يلاحظ، في ذلك العصر، أن القوم لا يقدمون الطعام دفعة واحدة، وإنما يأتون به وعاءًا وعاءًا، وهذا يكشف أن الإفرنج ليسوا بدعا اليوم في طريقة الأكل التي تسمى «السرافيس»؛

ترى هل أخذوها منّا ، عن طريق رحلة لهذه العادة من المشرق ، إلى المغرب ، إلى الأندلس ، ثم دلفت تتهادى إلى أوروبا ، فوجدت أيد مفتوحة تقبّلتها ، كما تقبّلت قبل ذلك أموراً متعددة من وسائل الحضارة ، التي اندسّت في مجتمعهم ، وضاعت معالم أقدام رحلتها ، فلم يعرف إلا بالتّنقيب أنها من انجازاتنا الحضارية ، عمَّى آثارَها ما أدخل عليها من مظاهر حياتهم ، أو أمّحى أثرُها عندنا ، فلم يبق من أشباهها عندنا ما يدل على صلتها بأختها هناك .

ولعل حضارتنا انتقلت إليهم في أدق تفاصيلها ، وساعدتهم على الانتقال من دور الهمجية إلى دور المدنية ، تظهر الأفلام التي قدموها عن عهودهم السابقة همجية زائدة . ومادمنا في أمر الأكل فلن نخرج عن الهدف ، إذا ضربنا مثلاً لذلك : تراهم في هذه الأفلام التي تمثل ماضيهم ، يأكلون اللحم بأيديهم ، بطريقة بدائية ، فإذا انتهوا مسحوا أيديهم في أقرب شيء ، ولو بثيابهم . ولو قرأت رحلة ابن



فضلان، التي تمت قبل أكثر من ألف عام إلى أوروبا، لرأيت عجباً، وهذه الرحلة أصدرتها تهامة في كتاب، وهو من أهم ما نشرته تهامة[1].

على أي حال، إذا تدبرنا مسحهم أيديهم بثيابهم بعد الأكل، وقارنّا ذلك بما كان يفعله العرب، في هذا الوقت نفسه أو قبله، وجدنا العرب قد خصصوا منديلاً يحمي ثيابهم مما قد يتساقط عليها من فتات الأكل، ويمسحون به أيديهم بعد الأكل، تمهيداً لغسلها مباشرة. راجع، يا بنيّ، معجم الأدباء، حياة أحمد أبو رياش، تجده يتكلم عن «منديل الغمر»، وهو منديل تمسح به اليد إذا زهمت، ويوضح الشارح كلمة «غمر» بقوله: «قد غمرت يدي من اللحم، فهي غمرة أي زهمة (أي زفرة)»[2].

ولا احتاج إلى دليل عن غسلهم أيديهم، يا بنيّ، بعد الأكل، وقبله، وحرصهم عليه، وتهيئتهم

(١) راجع فهرس المراجع في آخر الكتاب.
(٢) معجم الأدباء: ٢/ ١٢٠٦.

الأدوات لذلك، من أباريق وطشوت، وإعداد خدم؛ ولعلك تذكر قصة الخليفة الذي كان يصب مملوكه على يده الماء، فأخطأ في الصب، فكتم الخليفة غضبه، واعتق العبد، حتى يحقق مرمى الدين في العفو والإحسان، والخليفة الذي قدم العالم لغسل يده قبله؛ وملاحظة أحد الخلفاء، وقد رأى أبناءه يتسابقون لغسل يد المعلم، وتقديم حذائه إليه، بأن هذا أكبر حظا من الخليفة نفسه. هذه كلها أمور تشير إلى أن هذه الناحية من النظافة البدنية تأخذ حيزاً مهمّا من حياتهم، وتفكيرهم.

ومن أجمل ما يمكن أن تسمعه، يا بنيّ، في آداب غسل اليدين القصة التالية، وهي جزء من قصة حياة الشافعي الكاملة، يرويها بنفسه، وما يخصنا هو جزء من صلته بالإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ وصلة الاثنين بآداب غسل اليدين.

قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: فما لبث مالك، رضي الله عنه، حتى أقبل هو والغلام (غلام مالك)



حاملاً طبقاً، فوضعه من يده، وسلم الإمام عليّ، ثم قال للعبد:

إغسل علينا.

ثم وثب الغلام للإناء، وأراد أن يغسل عليّ أولاً، فصاح عليه مالك، وقال:

الغسل في أول الطعام لربّ البيت، وفي آخر الطعام للضّيف.

قال الشافعي - رضي الله عنه -: فاستحسنت ذلك من الإمام مالك - رضي الله عنه - وسألته عن شرحه، فقال:

إنه يدعو الناس إلى كرمه، فحكمه أن يبتدئ بالغسل، وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل، فيأكل معه[1].

ولو لم يفسر الإمام مالك للشافعي السبب، لظننت أنا، وأنت، غير ما قاله. لأني عندما قرأت ذلك، في أول الأمر، وقبل أن أصل إلى التفسير، قست

---

(١) ثمرات الأوراق: ٢٧٣.

الأمر على ما في زماننا، وظننت أن غسل يد المضيف أولاً تعطيه الفرصة أن يذهب، ويطمئن على أن المائدة معدّة كما ينبغي، وأنه ارتفع هذا السبب بعد انتهاء الطعام.

الأمر الثالث، لعله أعجبك من ابن الحباب صراحته، وجرأته، فلم يسكت على الضيم، وطالب بحقه ونجح؛ لأنه لم يرد أن تحسب عليه دعوة لم ينل منها إلا ما نال اللقلق من دعوة «أبا الحصين» (الثعلب) الذي صبّ له الحساء على صفاة، لم يستطع منقاره أن يلتقط منها شيئاً، أما الثعلب فسَهُل عليه لعقها، هل تذكرها؟ لقد سبق لي أن قصصتها عليك، ارجع إلى ثنايا ذهنك تجدها مخبأة تحت إحدى طياته المظلمة، ولكن ما لي أتّهمك بأنك لا تذكرها، قبل أن أنتظر جوابك بالإيجاب أو عدمه، ولكنها العجلة التي نهيتك عنها، يا بنيّ، ومن عاب على أحد عيبا «طنزة» وتهكما، فقد يقع فيه، وأنت تعرف المثل الذي يقول: «لا تطنّز بأخيك يعافيه الله ويبتليك».



المهم، يا بنيّ، أن ابن الحُباب عدّل من أمر القوم ما مال، وأصلح ما فسد، فنال بغيته، وبلغ مرامه، وسنّ سنّة حسنة في تقويم ما اعوج، ونَصْب ما وقع. جميلة كلمته «اتركوا الصحفة حتي يُبلغ قعرها».

وهذا يذكرني بقصة أحد رجال البادية في الشمال، وقد ذهب ليخطب ابنة أحد كبار رجال العشائر، وأراد والد البنت أن يعرفه جيدّا، فقرّر أن يمتحنه، وأهم مواد الإختبار، في البادية الشجاعة، وقوة التحمل؛ فلما قُدّم الطعام، وكان والد البنت قد نبّه أهله أن يجعلوا اللحم في أسفل الإناء، وأن يُغطوه بالحبّ، والقمح، أو الأرز، لهذا لما جُهِّز الأكل، قال لضيفه:

«تفضّل يا خاطرنا ترى اللحم بالغوطة» أي لاحظ إن اللحم في أسفل الوعاء، فردّ «النشمي»، الشجاع، قائلاً وقد «فسّر» كمّه، وشمرّ عن ساعده، وعرف القصد: «إذا كان اللحم، يا معزبنا، في

الغوطة، غوّطنا له».

وكان بخار الأكل من شدة الحرارة يتصاعد، كأنه خارج من بركان. فدسّ الضيف يده إلى مرفقه وقلب أسفل الأكل أعلاه، وبدأ بتقطيع اللحم وأكله، ونجح في الإختبار، ونال شرف المصاهرة.

جرنا الحديث، يا بنيّ، كما رأيت من الفاكهة إلى القدر المغطّى، إلى الصحفة، ولا أدري كيف سنخرج من الحديث عن الأكل، ولا خروج إلا بشيء أقوى منه، إما بدخول وقت الصلاة، أو بحلول وقت النّوم، والنّوم، كما يقولون: سلطان جائر؛ أو بمجيء ضيف، ولكن أخشى أنه حتى هذه الأمور، كلها، لا تفيد في إبعادنا عما نحن فيه، أو الانتقال منه، لأننا بعد زوال سبب الانقطاع، وبعد العودة إلى الحديث، سنقول، كالعادة، وكما يقول كل متحدّث قطع عليه حديثه، أين أنا؟ أو أين وصلنا؟ أو ماذا كنا نقول، عندما انقطع حديثنا بكذا؟ ونعود من حيث انتهينا، لأن لنا هوى في هذا الحديث،



والهوى، يا بنيّ، يُعمى ويُصم، أجارنا الله وإياك من الهوى المنتقد!

هذه قصة لطيفة، ولها صلة بالأكل، وأصعب ما عليّ، يا بنيّ، أحياناً، أن أتذكر أين قرأت القصة، لأعود إليها، آخذها بنصها، أو بشبه ذلك، حتى أُلَبّي رغبة من رأى أن في ذكر المصدر فائدة، وإن كان عدم ذكر المصدر أحيانا يكلفني حذف القصة بكاملها، لأني لم أهتد إلى الطريق إليها، في أحد الكتب التي قرأتها فيه، ولا أكتفي بأن أقول إنها في الكتاب الفلاني، فهذا إذا كثر، مع غرابته أحيانا، يزرع الشك في صدق القائل. على أي حال محاولة التذكر، عندما تنجح، تعيد لي، على الأقل، الثقة بذاكرتي، التي بدأت أفقد الثقة فيها، إما لكثرة ما يمر بالفكر، أو للتقدم في السّن، أو لطول المدة وبعدها بالمقروء، أو بكل ذلك مجتمعاً.

حديثي عن الذاكرة، يا بنيّ، لن ينسيني القصة، التي وعدتك بها، وهي تكمل الحديث عن القِدر



والصحفة والموقعة. نسيت أن أبحث عن أسباب تسمية الموقعة بالموقعة، بعد أن تلمسنا السبب في تسمية الصحفة بالصحفة؛ والموقعة، والله أعلم، أن السبب في تسميتها بالموقعة أن الناس يقعون عليها عند الأكل، كما يقع الطير على الحب لالتقاطه، «ينذارون» عليها إدارة السوار بالمعصم، فلا يبتعدون عنها حتى ينظفوها، ويظهروا قاعها. ويصبح «يِلِقّ» ويلمع، كقاع في الربع الخالي، بين دعوس الرمل، أو وسط رأس حلق بالموسىٰ.

لقد نسيت القصة التي وعدتك بها، فارجع إلى الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، ففي أوله قصص شتى، اختر منها ما تريد، وإن تذكرتُ ما كنت سأقصه عليك فسوف آتي به، ولو في غير مكانه، لأن قنص الأفكار مثل قنص الظباء، لا يختار القانص المكان بالتحديد، وإن كان يختاره بالتقريب، والمقنوص هو الذي يختار الوقت والمكان. ولك أن تجادل في هذا، ففيه مجال

للجدل واسع .

ما رأيك في أن نختتم ما نحن فيه بهذه الأبيات التي تصف القدر ، فلعلك تحفظها ، فالحفظ يكثر مخزون ألفاظك ، ويقوي أسلوبك ، ويحسن تعبيرك ، ويجمِّل أقوالك :

إِذَا التَطَمَتْ أَمْوَاجُهَا فَكَأَنَّها
عوَائِذُ دُهْمٍ فِي المَحَلَّةِ قُيَّلُ
إذا ما انْتَحَاهَا المُرْمِلُونَ رَأَيْتَها
لوشْكِ قِرَاهَا وَهْيَ بَالجَزْلِ تُشْعَلُ
سَمِعْتَ لَهَا لَغْطًا إِذَا مَا تَغَطْمَطَتْ
كهَدْرِ الجِمَالِ رُزَّمًا حِين تَجْفُلُ(١)

هذا ومن الأفضل ، يا بنيّ ، أن نعود إلى «أطباق» الفاكهة ، أو سلال الخضار ، التي أخذنا في الحديث عنها ، ووصف ما كانت عليه في الماضي ، وما أضحت

---

(١) الامتاع والمؤانسة : ٣/ ١٧ (عوائذ دهم : خيل سود . قُيل : من القائلة . المرملون : الذين نفدت أزوادهم . الجزل : الحطب الغليظ . رزما : أصواتها تخرج من حلوقها ، لا تفتح بها أفواها) .

عليه اليوم، فإليك نبذة عن بعض هذه الخضروات:

في نجد وبعض البلدان المجاورة لها، لم يكن هناك، من الخضروات، إلا القرع، والكوسة، و (الجبا)، والباذنجان: (البيدجان)، والبندورة: (القوطة في بعض اللهجات، والطماطم في لهجة أخرى، والبذنجان الأحمر في لهجة رابعة) واللوبياء: (اللوبا)، وزهرة القرع؛ والقرع نوعان: نجدي، ومصري، والمصرية أحلى وأطعم، وأطول عمرًا، لأنها تبقى مدة طويلة بعد قطعها، ولهذا فهي الوفيّة، صيفاً وشتاءًا؛ وهناك الجرجير، والباميا.

أما في الحجاز، فهذه الخضروات متوفرة، مضافًا إليها أنواع أخرى، مثل الفاصوليا، والملوخية، والسبانخ، والباسلا، واللفت، والبقدونس، والفجل. وهناك القِثّاء، والخيار، وهي بين الفاكهة والخضار.

أما الآن فليس هناك خضرة على وجه الأرض لا توجد في المملكة، إلا بعض الخضروات النادرة،

خاصة من شرق آسيا، وقد دخل الكرنب، واللفت، والخس، والباقلا، وفول الصويا، وغيرها مما تضيق به الأسواق. وهذه الإضافات الجديدة، تساعد الناس على تنويع الاختيار، وعلى وزن التغذية، عند المهتمين بهذه الأمور.

وليس في مجال الفواكه والخضار، يا بنيّ، متّسع للحديث الشائق لك، لأنك وجيلك لا يعجبك إلا «الهمبرجر» بأنواعها، وكأنكم تبحثون عما لا يفيدكم، وكأن الفواكه، والخضار، ليس لها حظ معكم، وليس لكم حظ معها، بدليل أني لم أجد قصة واحدة عن الخضروات، والفواكه، أقصّها عليك، وإن كنت قد قدمت لك في فصل سابق ما هو زائد عن المعدل؛ ولكن، يا بنيّ، أنتم أحياناً في هذه السن، أو بعضكم، لا تعرفون أين مصلحتكم، وإنّما تبحثون عما يلذّ لكم؛ أتدري ماذا يقول العرب عَمَّن لا يعرف هذا من ذاك، لا، ليس ما أقصده هو ما في ذهنك من اللفظ العامي، الذي جاملتك بتدوين

كثير منه هنا، ووضعته بين قوسين، وأقدمت عليه، لأن فيما نتحدث به شيئاً من التراث، والعامي فيه تراث. على أي حال ما قصدته بالمثل ليس هو: «ما يعرف كوعه من كرسوعه» وإنما قول العرب الأوائل: «فلان من فرط نطاته لا يعرف قطاته من لطاته»[1] والقطاة مقعد الردف من الدابة، واللطاة دائرة في الجبهة[2].

ومن المفيد، أي بنيّ، أن أزيدك من هذا النوع من التعابير، لتزيد مفردات لغتك، ومعانيها، فإذا كنت في موقف يحتاج إلى استدعاء شيء منها للاستشهاد، أو سنْد فكرة من الفِكر، تجد أن بإمكانك أن تختار من أكثر من مَثَل، فخذ مثلاً هذا القول:

«لا يدري الحوّ من اللّو»، أي: لا يعرف الكلام الذي يفهم من الذي لا يفهم. و «لا يعرف قَبيلَهُ من

---

(١) عقلاء المجانين: ٢٥.

(٢) عقلاء المجانين: : ٢٥.



دَبيرَه»، أي: لا يدري فُتِل إلى فوق أو إلى أسفل.(1) .

وتفحص هذا الجدل، المغرق في اللغة، وهذا يفتح لك نافذة أخرى، تطل منها على نوع آخر من هذه الأنواع الممتعة؛ ولا عجب فالمتكلم لغوي:

قال أبورياش، اليمامي، اللغوي، لأبي الحسين ابن لنكك:

أنت كيف تحكم على الشعر، والشعراء، وليس تفرق بين «الزَّفيان» و «الرقبان»! (الرقبان: شاعر جاهلي قديم، يقال له أشعر الرقبان؛ وأمّا الزفيان، فهو الزفيان بن مالك بن عوافة، من بني تميم، راجز إسلامي، كثير الشعر ويعرف بالزفيان السعدي».(2)

على أني عندما أتهمك بعدم معرفة مصلحتكم، أنت، أو بعض جيلك، أضع لذلك زمناً قصيراً، تمرون به، إن شاء الله، مر الكرام، فلا تطيلون فيه

---

(1) مجالس ثعلب: 1/ 37.

(2) معجم الأدباء: 8/ 245.

المكث، وتدلفون منه إلى سن أنضج.

إن قبلت هذه التّهمة، قصيرة الأمد، وإلا وصفتك بأنك طمّاع، لأنه لم يكفك ما أسبقت لك؛ والطمع يوحي لي بقصص كثيرة عن أشعب، ولكني قد لا أدخل هذا المعترك، فأنت تعرف عنه الكثير، وقد أكتفي بما قيل عن طفيلي دخل مرة على رجل، قد أولم لأناس، فقال صاحب الدعوة للطفيلي:

«يا هذا هل قلت لك تجيء؟».
فقال الطفيلي مجيباً: «هل قلت لي لا تجيء؟»[1].

والقصة الثانية خذها عن أشعب فلم يسبق لك سماعها، وإن كنت وعدت ألا أخوض في قصص أشعب، ولكن في مثل هذا أنت تفرح أن أغير رأيي.

قيل إن سالم بن عبدالله، من وجهاء المدينة، في ذلك الزمن، خرج متنزها إلى ناحية من نواحي المدينة، هو وأهله، وجواريه، فبلغ أشعب الخبر،

(١) المراح والمزاح: ٣٢٩.

فذهب إلى الموضع الذي ذهبوا إليه، ليشاركهم طعامهم تطفلاً، فلما وصل حيث هم، وجد باب البستان مغلقاً، فتسوّر الحائط، وجاء إلى سالم، فقال له سالم:

«أما تستحي، يا أشعب، أما ترى بناتي، وأهلي معي؟».

فرد أشعب بآية من القرآن، أخرجها عن سياقها: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[1].

فضحك سالم وأعطاه من الطعام ما أشبعه، وما حمل معه إلى أهله[2].

وهذه القصة والاستشهاد بالقرآن، خروجاً عن سياقه، تذكرني بقصة حدثت في زمن آبائنا القريبين:

كان هناك شخص وُضع على الجمرك، وكان الناس في ذلك الوقت لا يستحبون العمل في الجمرك،

---

(١) سورة هود: ٧٩.

(٢) كتاب الأذكياء، لابن الجوزي: ١٧٨، والتطفيل: ٢٥٣.

ويتحاشون من يعمل فيه، لأنهم كانوا يعتبرون الجمرك مكساً. فدعا هذا بعض أصحابه وأقاربه على مائدة أعدّها لهم، وكان طلق الحديث، أنيس المجلس، فأخذ يحدّثهم، وهم يأكلون، وهم من بلدة عرف أهلها بالذكاء، وحضور البديهة، ولذعة الملاحظة؛ فالتفت أحدهم إلى الذي بجانبه، واصفاً حالهم في هذه اللحظة مع مضيفهم، فقال همساً: «نحن مع فلان»: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾(١).

أفضل شيء أن أفعل معك مثلما روى الأعمش لمحمد بن القاسم، فأقول لك:

«هل تريد قصة مسلّية، فيها من الطرائف ما يضحك ومن الحكم ما ينفعك، قصيرة وافية».

فتقول أنت: «نعم».

فأقول: «اقلب الصفحة، فتقلبها، ولا تجد شيئاً.

فتقول: «إني لم أجد شيئاً، فأقول لك: «هل قلت

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

لك إنك ستجد؟» .

أما قصة الأعمش مع محمد بن القاسم، فتجري هكذا:

قال الأعمش لجليس له: «أما تشتهي سمكاً، أزرق العين، أبيض البطن، أسود الظهر، وأرغفة ليّنة، وخلاّ حاذقا؟» .

قال الآخر: «بَلَى» .

قال: «فانهض بنا» .

فنهض الرجل معه، فأدخله منزله، وقال له: «جرّ تلك السلّة» فجرّها .

قال: «اكشفها» فكشفها، فإذا فيها رغيفان يابسان، فجعل يأكل منهما أمامه .

فقال له: «أين السمك؟» .

قال: «ما عندي سمك؛ إنّما قلت لك أتشتهيه!»[1]

وللأعمش يا بنيّ قصص لو بدأتُ بسردها لأبعدنا عن الهدف، ولكني أختم هذا الفصل بواحدة منها .

---

(١) المرح والمزاح: ٣٤١. انظر أيضاً: الحيوان: ٣/ ١٨ .

يقال إنه وقع بين الأعمش وامرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه، قيل إنه أبو البلاد، وقيل أبو ضيعة أن يصلح بينهما فقال لامرأة الأعمش:

«هذا سيدنا، وشيخنا، أبو محمد، فلا يزهدنّك فيه عمش عينيه، وخموشة ساقيه، وضعف ركبتيه، وقزل رجليه».

وجعل يصفه بهذه العيوب، وأمثالها.

فقال له الأعمش: «قم عنّا، قبّحك الله، فقد ذكرت لها من عيوبي ما لم تكن تعرفه». [١]

ونصل إلى نهاية المطاف في هذا الباب، وقد «تفسّحنا» وتفكّهنا، وخرجنا من طريق إلى جادة، ومن طريق إلى «طاروق»، ثم منحنى، ثم سوق، ثم شارع، وذلك بدون تتابع أو انتظام؛ وكل هذه توصل إلى هدف واحد: تدبّر النعم، التي أصبحنا نجدها، مقارنة بما كان في الماضي: تدبر توفرها،

(١) المرح والمزاح: ٣٤٢، وأخبار الحمقى والمغفلين: ١٤٥.



وسهولة الحصول عليها، وطرق نقلها، وحفظها، وكمياتها. ومع التدبر يأتي الشكر، الذي كثيراً ما طالبتك بمراعاته، حتى تدوم النّعم، ولن أملّ تكرار ذلك، وتذكيرك به، فمُدْمِن القرع للباب أوشك به أن يلج؛ وسوف يساعدني على ذلك اقتباس ما قيل وما ورد في هذا، فهو عصارة فكر متدبّر، وحصيلة معاناة وتصوّر؛ وبعضه قد أكون قلته لك من قبل، وهو معاد، ولكن المكرر في مثل هذا الأمر يحلو؛ انظر إليه، بجانب الاعتبار المطلوب، على أنه استقصاء لما قيل، بترداده، وتتبعه، يثبت ويستقر، ويهيء مفاحص في الذهن، مثل مفاحص القطا لبيضها، وفراخها، فيها الدفء والحنان، وأرجو أن يكون معها القبول.

قال صالح بن مسمار، في مجال شكر الله، بكلمات راقية، وتعبير ناضج: لا أدري أنعمته عليّ فيما بسط لي أفضل، أم نعمته فيما زوى عني؛ لأنه فيما بسط لي أحياني، وفيما زوى عني حماني. نظر لي بما يزيد

على نظري لنفسي، وآتاني من عنده أكثر مما عندي[1] .

انظر، يا بنيّ، إلى أي مدى يبلغ الشكر. قال محمد بن مسلم: تكلم رجل في مجلس ابن عباس، فأكثر الخطأ، فالتفت عبدالله بن عباس إلى عبدٍ له، فاعتقه، فقال له الرجل:

ما سبب هذا الشكر؟

قال ابن عباس: إذ لم يجعلني الله مثلك[2] .

وقال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في أحد كتبه، لابنه عبدالله: ومن شكر له (أي الله) زاده، ومن أقرضه جزاه[3] .

وقال ـ رضي الله عنه ـ (وقد سبق لك سماع هذا): ولو أن الشّكر والصّبر بعيران ما باليت أيهما أركب[4] .

---

(١) الامتاع والمؤانسة: ٢/ ١١٩ .

(٢) كتاب أخبار الحمقى والمغفلين: ١٦٠ .

(٣) زهر الآداب: ١/ ٧١ .

(٤) زهر الآداب: ١/ ١٧٢ .



واستمع لهذه العبارات الثمينة الفائقة، ومدلولها أنّ بقاء النعمة، وازديادها، إنما هو بشكرها:

استعان الخليفة أبو جعفر المنصور بالحارث بن حسان، قال له:

يا حارث، إني قد مكنتك من حسن رأيي فيك، فاحفظه بترك إغفال ما يجب عليك.

قال: يا أمير المؤمنين من أغفل سبب حلول النعمة، ولَهَا عن الحال التي أصارته إليها، استصحب اليأس من نيل مثلها، وانقطع رجاؤه من الزيادة فيها.

فقال أبو جعفر: من كانت عنده هذه المعرفة دامت النعمة له، وبقي الاحسان إليه[1].

وقديماً قيل:

الشكر ترجمان النية، ولسان الطوية، وشاهد الإخلاص، وعنوان الاختصاص.

والشكر نسيم النّعم، وهو السّبب إلى الزّيادة،

---

(١) زهر الآداب: ٢/ ٣٨.



والطّريق إلى السّعادة.

والشّكر قيد النّعمة، ومفتاح المزيد، وثمن الجنّة.

ومن شكر قليلاً استحقّ جزيلاً.

شكر المولى هو الأولى[1].

ونختم القول في الشكر بهذه الأبيات من كتاب: عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة[2]:

كان لعمرو بن سعيد صديق ينقطع إليه، فرأى يوماً ثوبه الذي يلي بدنه من تحت جبته فيه أثر بِلىً، فلما انصرف من عنده وجّه إليه «بتخت» من ثياب، وصّرة من دنانير، فأخذها الرجل، وكتب إليه:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
أَيَادِيَ لَمْ تَمْنُنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتًى غَيْرَ مَحْجُوبِ الغِنَى عَنْ صَدِيْقِهِ
وَلَا مظهر الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ

---

(١) زهر الآداب: ٢/ ٥٠.

(٢) عين الأدب والسياسة: ١٨٥.



رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا
فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

* * *

الصحراء، والقُرى، والمدن

أي بُنَيّ!

عندما أتحدّث معك عن الصحراء، والمدن، والقرى، فإننا نرسم صورة للإطار الذي يحيط بالحياة الاجتماعية في المملكة، وسنحدّد في داخله بعض الأمور التي سوف تملؤه بصور تسمح بالمقارنة، لتخرج بفكرة واضحة، عن هذا المجتمع، الذي تعيش فيه، أنت وجيلك؛ ومعرفتك بماضي الصحراء، وما كان يجرى فيها من حياة، والمدن، وما كانت تعج به من سكان، والقرى، وما كانت تحويه من مجتمع، سوف يكمّل لك صورة تجعل لنظرتك للحياة الحاضرة معنى، لأنها سوف تكون الأساس للحاضر، حيث أنها منطلقة من هذا الأساس، وفيها جذوره، وسوف تستطيع بعد أن تربّى المَلَكة أن تحكم على كثير مما يمرّ بك مما قد يبدو مبهماً بدون معرفة ماضية.

الصحراء، يا بنيّ، جميلة في عين ابنها، بكل



ما في هذه الصفة من معنى: زاهٍ منظرها، واسعٌ أفقها، متميزة أشجارها ونباتاتها، متنوعة حيواناتها، مختلف سهلها وجبلها، ساحر حزنها وواديها، خلاّبة شعابها ووهادها، عليل نسيمها، صاف نهارها، وداج ليلها؛ الصحراء رحبة، يا بنيّ، وواسعة، ومنيرة ومشمسة. وسترى صدق هذه الأوصاف في بعض ما سوف يمر بك.

طبيعة ساكن الصحراء من طبيعة بيئته، أعطته سعة الأفق، وصلابة التكوين، والإصرار في الرأي، والدأب في السير في أمور الحياة، التغيّر في حياته بطيء أو لا يكاد يذكر، هو مثل رمل الدهناء، أو رمل الربع الخالي، تكوينه هو هو منذ آلاف السنين، تحركه الرياح إلى اليمين، ثم تعيده كما كان إلى اليسار، قبل أن يدور الحول؛ ساكن الصحراء يابس العود، مثل شجرة السدر في الصحراء، لا تكاد تجد في جسمه ماءاً، فقد تكفلت بتجفيفه الشمس، وشُحّ المحيط. هو حذر مثل ظبي الصحراء، أو لعله مثل



ذئب الصحراء، الذي يقال إنه:

يَنَـامُ بِـإِحْـدَى مُقْلَتَيْـهِ وَيَتَّقِـي
بِأُخْرَى الأَعَادِي فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

والعربي في الصحراء لا يغيب الحذر عن ذهنه، فهو يعرف قدره لنفسه، ويلحظه في غيره، خاصة في الحيوان، فهو يقول في أمثاله: فلان أحذر من غراب، وأحذر من عقعق، وأحذر من ذئب، وأحذر من ظليم[1].

وابن الصحراء أذنه مصغية لكل صوت ناب، وحركة مفاجئة؛ هو شكاك مثل حيوانها، لأنه إما آكل أو مأكول؛ هو متربص مثل ذئبها لا يضيع الفرصة، ليقتنص ما يقيته. يعرف وقت الحرّ، ويستعدّ له، ويعرف وقت البرد فيهيئ أسبابه، للمطر مواسم، يستفيد منها، وللقحط سنوات، يحسب حسابها.

هذه بيئته رضي بها، ورضيت به؛ يقوم بينه وبينها

(١) الأذكياء: ٢٣٦، والظليم: ذكر النعام.



سلم، وينشب بينه وبينها معارك؛ أحيانا يغلبها، ويطوّعها، وأحيانا تقضي عليه، وعلى ما يملك من جِمَال، أو أغنام.

والذي يهمّك، يا بنيّ، هو حياة ابن البادية في هذا المحيط الذي هذا وصفه؛ إذا فقدت الحكومة السيطرة القوّية حكم نفسه، وحاول أن يحكم غيره، وهذا يدخله في صراع مع الآخرين، قد يكون قوام حياته، فينفقها في الإغارة، أو ردّها؛ وأسباب هذا كله الحرص على الحياة، في هذه الصحراء القاحلة، في كثير من الأزمان؛ فهو يُغِير، لأنه يريد لنفسه القوّة، والحياة الحسنة، ويُغِير، ليكون له إبل وغنم، أو ليزيد إبله وغنمه؛ وهو يُغِير ليثأر من آخر، طمع منه بما طمع هو به لدى الآخرين؛ يشوب ذلك قتل، ثم أخذ بالثأر؛ ويتخلل ذلك صيانة عرض من معتد على عرض.

وبالغوا في هذا الجانب، فكلمة، أو بيت شعر، قد تُفني قبيلة؛ كرهوا أشياء، وحاسبوا عليها،

وأحبوا أخرى، وكافؤا عليها؛ نبذوا أشياء فهجوها، وقربوا أشياء ومدحوها؛ استهجنوا أشياء، وعابوا من أقدم عليها، واستملحوا أشياء واستكثروا منها، وأثنوا على الحائز لها؛ ارتفع أناس في نظرهم، لمراعاتهم لتقاليدهم، وحرصهم عليها، وانخفض آخرون، لاستهتارهم، أو تهاونهم، تجاه هذه العادات والتقاليد؛ فخروا بأمور، وتنصلوا من أمور.

كل هذا، وغيره مما يدور في مجتمعهم، قيدوه، وسجلوه في شعر يتداول، وقصص تُروى، يختلط فيها الصدق بالخيال؛ هُدِف من تدوينه بهذه الصورة أن يثبت العادات في أذهان الناشئة، وأن يحث الصغار أن يأتوا بأكثر مما أتى به آباؤهم، وأن يحاولوا أن يصلوا إلى ما رسمه الخيال من بطولات، وما حملته القصص من أوصاف قد تصل إلى حدّ الخرافة.

جهلوا بعض مظاهر الطبيعة في محيطهم، فبحثوا عن أسباب لها، ولم يعثروا على شيء معقول، فَرَضُوا غير المعقول، ولكنهم ألبسوه لباسا رضوه، ولعب



الخيال عن الجنّ دوراً نشطا، ساعدتهم عليه رهبة الصحراء، ليلاً ونهاراً، والوحدة التي يتعرض لها الفرد، فهذا ذئب ينقلب إنسانا أو امرأة، وهذا إنسان يُستدرج متوحدًا في الصحراء، بما يوهمه أن هناك ماءًا، ألم تساعد الأرض في هذا الاتجاه بالسراب، الذي تستدرج به العطشان؟ إن السراب كثير في قصص ابن الصحراء الخيالية، ومنه السراب الذهني؛ فسرب القطا، وهو يشرب من الغدير، انقلب إلى فتيات جميلات، جئن يتبردن في هذا الغدير الصافي البارد؛ وهذه الناقة الكحلاء، انقلبت امرأة جميلة، بعد أن اكتمل القمر؛ وهذه أصوات تسمع من بعيد، تبعث رسالة إلى هذا المتفرد المنقطع عن مجتمعه، أظلم عليه الليل، وتوسد سواده، وأخذ يرقب السماء الصافية، بنجومها اللامعة، حتى طلع القمر، ليسدل عليها غشاءاً رقيقاً من نوره، فجعلت تبهت، وأصبح وميضها يبدو كأنه يستحيي أن يبين نفسه، أمام هذه البهجة الفضية التي نشرها القمر. وها هو القمر

يسير متأنيا، يقطع دائر الفلك، محافظاً على خطهِ المرسوم، وسرعته المحددة، تمرّ به غيمة، فتسلم من بعيد، أو تغشاه فيغمض عينيه لثوان. هذه غيمة تشبه قنّة الجبل، وهذه أخرى مثل البعير، تبلورت بعد ثوان إلى دحية قرص، ثم انداحت، وشفّت، حتى صارت كأنها وشاح عروس، ثم بدأت تتلاشى، حتى «اضمحلت»؛ وهذه سحابة أخرى، كأنها منجل كبير، تُرى أهي ترمى إلى حصد القمر! ولكنها تلتف حول نفسها، فتصبح كأنها عين، أتراها سوف تغمز للقمر! ولكنها في ثوان تنقسم إلى قسمين: أحدهما كأنه فك أسد، ولكنه لن يستطيع أن يلتقم ما أمامه، لأن ما أمامه أكبر منه، هل يكتفي بأن ينهشه؟ ثم ينام ابن الصحراء، وهذه الصور تمرّ أمامه، ويحلم، ويحلم، ويحلم، حتى توقظه ساعة داخلية في رأسه، تعوّدت أن توقظه كل يوم، في هذه الدقيقة، فيصحو، وينفض عن ملابسه الغبار، ويبدأ يومه الجديد، معيداً ما فعله أبوه من قبل، أو جده العاشر.



إن قانون طبيعة الصحراء منتظم، فهواؤها الصافي العليل يجعل النائم المتعب يكتفي بأربع ساعات أو خمس، أما ساكن المدينة فلا يكفيه منها إلا عشر ساعات، لأن الهواء عنده في محيطه ليس بصفاء هواء الصحراء، الذي لم يخالطه فساد، أو عفن، فجوّ الصّحراء تغسله الرّياح الذّاهبة والآتية باستمرار، أما جوّ المدينة، والبيت، فهواء محبوس مسجون آسن؛ في الصحراء تسمع صوت تنفّسك، للسكون المخيّم، الهدوء الذي يلف الصحراء، خاصة في الليل، لا يعد له هدوء؛ إنّك لا تجده في أي محيط في العالم، هو فقط في الصحراء أين وجدت؛ فالجبال ليس فيها هدوء، لأن الرياح تطرقها بعنف، فتسمع لها صفيرًا يخرق الأذن، والغابات للشجر فيها حفيف، وللريح فيها عويل، والبحر، بأمواجه الصاخبة، أبعد ما يكون عن الهدوء، ولا يبقى بعد ذلك إلا الصحراء.

ولا يمكن لإنسان أن يتصور هدوء الصّحراء إلا

إذا جرّبه. إنك تكاد تسمع دقّات قلب جارك أحياناً في الليل في الصحراء؛ إن صوت احتراق الحطب في النار يصبح كأنه فرقعة مدافع، لما يحيط بالمكان من هدوء؛ لو أجرى أطباء الآذان تجارب، في مدى فائدة هدوء الصحراء على الآذان المجهدة، لوجدوا أن الدواء فيه.

وعماد حياة ابن الصحراء «حَلاَلُه» جِمالا كانت أو أغناما؛ يرعاها، ويحافظ عليها، ويحميها من الإنسان المعتدي، والسبع الكاسر؛ وهي قوام معيشته الطبعية؛ أما الغارة وردّ الغارة فهي أمور يكرهها، ولكنه يجبر عليها؛ وتكرارها جعله يألفها، ويتطلع إليها، في أوقات احتياجه لها. فالقحط، والعدم، يجبرانه على ارتكاب ما يكرهه، وحماية ما يملكه، ممن يطمع فيه للسبب نفسه، وهذا يجعله يستميت في حماية عماد رزقه.

وكل شيء في حياته له أنظمة، تبلورت مع الوقت، واعترُف بها، له وعليه، يصافي اليوم، لأن مصلحة

القبيلتَين اقتضت هذا، وينقض هذه المصافاة، لأنه لم يعد لها داع، أو أجبر على نقضها ممن لم ير أن لبقائها داعياً؛ يأتي زمن يميل الناس إلى المهادنة، لأن الربيع يغري بالهدوء والمتعة، ولأن الخصب مِنْية جميع أبناء الصحراء، فلا يجب أن يضيع في حرب وضرب؛ وتستجمّ النفوس، وينمو «الحلال» استعدادا لجولات أخرى، يفنى فيها من ترعرع، ويولد من ينتظر، ليكون وقوداً لنار سوف تشتعل في المستقبل. يولد هذا اليوم، ليقتل غداً، ويُعلّم هذا أصول الهجوم والدفاع، لأنه لابد أن يقابل ما يحتاج فيه إلى المهارة الحربية.

عادت الجاهلية في وقت من الأوقات أو كادت، ولحق ابن الصحراء بؤسها، فلم يسلم من أخيه، ولم يسلم منه أخوه، ولم تسلم منه المدن، رغم أن من فيها منحدر منه في السلالة والنّسب، ولكنهما تباعدا بسبب رداء المدنيّة، الذي اكتسى منه أحدهما، ونفر منه الثاني. ولم يعرف ابن الصحراء غير هذه الحياة.



استمرّ هذا، يا بنيّ، إلى أن جاء العهد الذي تشهد أنت ثمار جهده، في تغيير الصورة إلى ما تراه من وجه حسن، وملامح مبتسمة.

قلت، يا بنيّ، إن عماد حياة ابن الصحراء على إبله، وأغنامه، ينمّيها، ويكثِّرها، ويحفظها، ومكسبه الإضافي يأتي مما ينهبه من أخيه من قبيلة أخرى، أو من مدينة قريبة يغير عليها، أو قرية يهجم عليها، أو قافلة يعترض طريقها، أو «خوّة»: يفرضها على من يمرّ بمنطقته، راكباً، أو راجلاً، أو متاجراً. والإبل والغنم تعيش على ما تنبته الأرض وقت الإنبات، فإذا شحت الأرض بدأت هموم ابن الصحراء، وقد «يجلب» للبيع ما لا يستطيع إعاشته، وقد ينتقل به إلى أرض أخرى فيها مرعى، وقد يصاب بنكبة قاضية، إذا لم يكن هذا، ولا هذا، فينعكس همّه على الآخرين، ينتقم من ظروف الحياة في الاقتصاص من أبناء البشر، وتصبح الحياة في الصحراء، وما حولها، حياة غاب.



تبلورت طبيعة ابن الصحراء من طبيعة الصحراء، ومن معيشته عليها، التي منها احتكاكه بالآخرين، في وقت رخائه أو عسره، وفي وقت خصبه وجدبه، في حال رضائه وغضبه، في حال محالفته أو محاربته، في وقت إغارته، أو صدّه غارة معتد، في تصرفه في الصيف، وفي ترتيبه في الشتاء؛ في صلته بقبيلته ومن تجيره، وفي صلته بمن يصاهرهم: يزوّجهم، أو يتزوج منهم. حياة متكاملة لها مظاهرها وبواطنها، متناسقة مع ما يطأ من أرض، وما يستظلّ به من سماء، هو قطعة منها يدور في فلكها.

انعزل في صحرائه، واندمج فيها، واغترب عن الدِّين حتى لم يبق منه في ذهنه إلا الاسم وبعض الشعائر، التي قد لا تلامس شغاف القلب، فلم يكن للدين والتفقّه فيه مجال في حياة متقشفة، قوامها الكدّ والتّعب والركض خلف الرزق والقوت؛ وبقي الأمر كذلك، حتى وصلت الدعوة السلفية خيمة ابن الصحراء، فتغيرّ الأمر، وشعّ في حياته نور جديد،

قوّاه وتقوّى به، وكانت نتيجته صلة تبلورت بين ابن الصحراء وابن المدينة والقرية، وتساعد الجميع لتوحيد مجتمع واسع، لم يكن أحد يحلم أنه سوف يجتمع، ويصبح كياناً واحداً.

أخاف هذا بعض القوى خارج الجزيرة، فسعت لاضعاف هذه القوة، التي ظهرت فيها فجأة، ونجحت جهود الإضعاف لفترة قصيرة، ثم عادت القوة إلى ما كانت عليه على الأسس الأولى من الدّين الصافي، والهدف النبيل، وزادت أن استفادت من التجارب السابقة، ومن الوسائل الحديثة، ودبّت في الصحراء روح جديدة، لم تكتف بأن تجذب ابن الصحراء إلى المدينة، كما كان معتادًا، ولكنها أوصلت المدنيّة إلى ابن الصحراء. دبّ الطريق الممهدّ إليه، ومدّ الطريق أذرعته يميناً ويسارًا، صعد الجبال، وهبط الوهاد، قطع المفازات، وتغلغل في القفار، سارت في أثره المدارس، تأخذ مقارّها هنا، وهناك، وانتشرت عن طريقه المستوصفات، والوحدات الصحيّة،



تتسلّل بين المنعطفات، وتصعد المرتفعات، تستقرّ في قرية، في قنّة جبل، أو في هجرة، في «جال» واد.

وُلِجت الصحراء، وجنباتها، بالسيارات الناهبة لها، والمكائن الحافرة للآبار فيها، ودارت رشّاشات المياه بأذرعتها الممتدة، تقلب «دُهمة» أرضها إلى خضرة، وبسقت في جنبات واحاتها النخيل والأشجار، وزُرعت مدن وقرى كما تزرع النبتة، وبين عشيّة وضحاها كثرت «النقط» على خارطة المملكة، وكثرت الخطوط التي تُري وسائل اتصالها ولم يعد مستغرباً أن تنزل الطائرة هنا، وهناك، في أماكن، إلى عهد قريب، لم تكن تعرف السيارة أو تتصورها؛ ولم يعد ابن الصحراء ابنها وحدها، ولكنه ابن المدينة أيضاً، فهو في الصحراء، وهو في المدينة، لم تنقطع صلته بالصحراء، وأوجد صلة جديدة بالمدينة.

مع سيادة العدل، وتوطّد الأمن، وثبات الاستقرار، تغيرّ وجه الصحراء، فلم تعد أرض كرّ وفرّ، ولا غارة

أو ردّ غارة، ولم يعد فيها ناهب أو منهوب، ولم يعد ابنها يتطلع إلى رزقه بأخذ ما بيد الآخرين، ولا يخشى أن يأخذ الآخرون ما بيده من الرزق؛ أصبح كل يعرف ما له وما عليه. فرص العمل متاحة لمن يريد أن يعمل، ووسائل الرزق متيسّرة، والحمد لله، ليس فقط لابن الصحراء، أو ابن المدينة، بل حتى للقادم من خارجها.

عندما وحّد الملك عبدالعزيز المملكة شجّع أبناء الصحراء على التوطن والاتجاه للزراعة، فأنشأ الهِجَر، ورتب أمورها، وشجّع على إقامتها، والتوسع فيها، وحرص، رحمه الله، على إيجاد من يبصّر الناس فيها بأمور دينهم، وما لهم في ضوئها، وما عليهم، فقدّر ابن الصحراء قيمة التوطّن والاستقرار، وتنظيم الحياة والمعيشة، فلا يكون عرضة لتقلبات الأجواء، ولا خاضعاً للصُّدف، وإنما يسعى سعياً منتظماً، يستفيد من وقت رخائه لوقت عسره، ومن وقت صحته لوقت مرضه؛ زاول ابن الصحراء التجارة



بأنواعها، فنجح حين توفرت له أسباب النجاح، وجرّب مجال الزراعة، واستفاد وكسب خبرة وتجارب. وساهم في الوظيفة، فكان عنصر خير، عضّد مرافق الخدمة في بلاده؛ خرج إلى العالم، ورأى واستفاد، وساهم بقدر طاقته في المجال الدولي والعالمي.

لم يفقد صفاته الحميدة، ولم ينقطع عن بيئته الأصل، وحافظ منها على ما وجد أن من واجبه أن يحافظ عليه. استفاد لحياته في الصحراء من الوسائل الحديثة، فوسائل النقل لم تعد الجمل، والغذاء لم يعد حليب «الخلفات»، ولا حليب «النعاج»، ولا لحمها وحده، وإنما ساهم في استنبات القمح، والخضروات، والفواكه، وشارك في إنشاء المصانع.

هذا ابن الصحراء، أما ابن المدينة فلم يعد في خوف، أو وجل، على تجارته أو على ممتلكاته، وأصبح يقطع الصحراء وحيداً دون وجل؛ ولم تعد وسيلة النقل لبضاعته الجمال، ولم يعد يبحث عن



حارس، أو قبيلة، يدفع لها جزية لتمرّ بضاعته، دون أذى؛ بضاعته تُحمل بالسيارات، أو القطار، أو الطائرة، أو عن طريق البحر، لا يفكّر إلا في قيمتها، وأجرة نقلها، وطريقة بيعها؛ هذا كل ما يأخذ وقته، ويشغل باله؛ مدينته كبرت، وقريته أصبحت مدينة، وزبائنه كثيرون، مما يعطيه الفرصة لتصريف بضاعته، وبيعها.

تغيّر وجه المدينة، أصبح فيها عمارات، وبيوت على الطراز الحديث، تُبنى بعد تصميم وتخطيط توضع في موقع يُحدّد، وتُحكم أمورها بالنسبة له. وأصبح هناك شوارع مزفلته، ولها أرصفة، ولها مرافق من مجار، ومياه، وكهرباء، وتليفونات؛ وفيها مدارس، ومساجد، وجامعات، ومستشفيات: حكومية وأهلية، وإطفاء، ودوائر شرطة، ومرور، ومقار للدوائر الحكومية المختلفة؛ وفيها جميع مكونات المدينة الحديثة.

والقُرى، يا بنيّ، تبدأ صغيرة، ولكنها تبدأ نواة

مدينة، ثم لا تلبث أن تجذب الناس، ثم تنمو حتى تكبر؛ وهناك قرى التحمت، وأصبحت مدنا لا ينقصها من مقومات المدينة المتكاملة شيء؛ وانتشار المدن، وإنشاء الطرق، وتوفر الخدمات في المدن، المنتشرة في المملكة، ساعد على تثبيت الناس في مناطقهم، فليس هناك من الهجرات المخيفة مثلما هو موجود في بعض الأقطار.

وقد طرأ على حياة الناس ما طرأ على صحرائهم ومدنهم، وكان إلى الأفضل، فلم يفقد النّاس شخصيتهم الأصل، لأن النموّ الذي دخل عليهم كان دخوله تدريجاً، وبطريقة تساعد على هضم الجديد، وصبغه بالصبغة التي ترضاها البلاد، وتقبلها. والنجاح في هذا المجال حدث لأنه ليس هناك تصنّع أوجبه مركب نقص، وهو عادة الآفة التي تقع فيها الشعوب غير العريقة، لأنها تسعى إلى التقليد المتكامل، لعدم رضاها عن حالتها، ولإعجابها بحالة غيرها، وتظنّ أن كمالها في أخذها من الآخرين



ما لديهم، دون تمحيص. وهذا كسل عقلي، يجرّ إلى هذه الرذيلة وأمثالها.

لعلك، يا بنيّ، الآن قد ضقت ذرعاً بهذه الصفحات، التي لم تخترقها قصة، ومن سمعك تجادل حول هذا ظنّ أن أساس هذا الحديث القصص، وهذا طمع جرّك إليه مطاوعتي لك، واستجابتي لطلبك، منذ أول وهلة، ولعل طبيعة الصحراء جعلتنا نتيه فيها، دون أن نجد وقتاً للقصّة، وسوف أقص عليك قصة هي من الصحراء، وتمثل طبيعة الصحراء، وتجعلك تحمد الله على ما أنت فيه، وما أنت عليه، إذا قارنت نفسك بصاحب القصة هذه، وهي ليست من العصر الحاضر، ولكن الصحراء هي الصحراء، في العصور القديمة، وقبل مئة عام.

قيل لأعرابي: «كيف تصنع في البادية إذا انتصف النّهار، وانتعل كل شيء ظلّه؟».

فقال: «وهل العيش إلاّ ذاك؟ يمشي أحدنا ميلاً،



فيرفضّ عرقا، كأنه الجُمان، ثم ينصب عصاه، ويُلقي عليها كساءه، وتقبل عليه الرياح من كل جانب، فكأنه في إيوان كسرى[1] .

وكتب الأدب، يا بنيّ، مليئة بالقصص الممتعة، الطافحة بالحكم، والتجارب، والترفيه، فليتك تقبل عليها وتعبّ منها، وترتع فيها، وتغيب في أعماقها، وقد ورد عن الخليفة الراشد علي ـ رضي الله عنه ـ :

«العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال يبيده الإنفاق، والعلم يزكو على الإنفاق، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه»[2] .

والقصص، يا بنيّ، عن الصحراء وطبائع أبناء الصحراء، وصراحتهم، وسرعة بديهتهم، و «ديموقراطيتهم» كثيرة ومتنوّعة، وقد غصّت بها كتب الأدب والتاريخ، وهذه واحدة منها، تريك هذه الصفات في ابن الصحراء، حاكما، أو محكوماً.

---

(١) المحاسن والمساوئ: ٣٠٢.

(٢) المحاسن والمساوئ: ٤٠٠.

وتريك نظرته العملية للأمور، وسرعة بديهته.

يقال إن صعصعة بن صوحان كان يأكل مع معاوية ابن أبي سفيان، فجعل معاوية يأكل من دجاجة بين يديه، فمدّ صعصعة يده، فجذب الدجاجة، فقال له معاوية:

«انتجعت؟».

فقال صعصعة: «من أجدب انتجع»[1].

وإجاباتهم، يا بنيّ، كما رأيت على البديهة، وسريعة، وصائبة. ولباقتهم في بعض ردودهم واضحة، نتيجة التربية، التي درجوا عليها، والقدوة التي احتذوها، فجعلت لهم هذه الملكة في حسن المنطق، وصواب الردّ.

استمع إلى سعيد بن مرّة الكندي، حين أتى معاوية فسأله:

(١) المحاسن والمساوئ: ٤٥٥، قارن هذا بما ورد في الأذكياء: ٦٣. انظر عن هذا القول: بهجة المجالس: ١/ ٢٢٢.

«أنت سعيد؟» .

فقال: «أمير المؤمنين سعيد، وأنا ابن مرّة»[1] .

قالها على البديهة دون أن يفكّر، أو يحضّر.

وهذا العباس بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - وقد نشأ في قريش في الجاهلية، ثم صقله الإسلام، فكان له من الخلق الرفيع ما جعله يجيب سائله: إن كان أكبر، أم رسول الله، ﷺ.

قال: هو - عليه السلام - أكبر منّي، وولدت قبله»[2] .

واسمع إحدى النساء، اللاتي عركن الحياة، وعرفنها، وقطعن طريقها، وعدّتهن خلق وأدب، زرعهُ فيهن مجتمع صحراوي إسلامي، وهي عجوز من بني ثعل، قال لها الخليفة المهدي:

«ممن العجوز؟» قالت: «من طيء» .

---

(١) المحاسن والمساوئ: ٥٩، ومحاضرات الأدباء: ٣٠.
(٢) المحاسن والمساوئ: ٤٥٩، والأذكياء: ١٤٨.

قال: «ما منع طيئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟».

(وفي هذا كما ترى، يا بنيّ بعض الاستفزاز، ولعله اختبار لمدى عمق ولائها، وأدبها، فلم يخرجها هذا عن أدبها مع وليّ أمرها، خليفة المسلمين)، فقالت:

«الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك»[1].

فأعجب الخليفة بقولها، ووصلها، (حقاً إنها تستحق الصلة).

ولعلك تريد، يا بنيّ، نموذجاً آخر من صفاتهم الفريدة، وسأختار لك مظهرًا للشّجاعة عندهم، وهي قصة قديمة، ولكنها صورة لابن الصحراء، الذي سلسل هذه الصفة مع القرون إلى ابنه:

لمّا التحم جيش مع آخر، في إحدى المواقع المشهورة، حمي وطيس المعركة، وتداخل الجيشان، شدّ رجل من أحد الجيشين على بطل آخر، فقطع رجله،

(١) المحاسن والمساوئ: ٤٥٩.



فزحف إلى رجله، حتى أخذها، ورمى بها قاطعها، فقتله بها، وقال:

يَا رِجْلُ لاَ تُرَاعِي فَـإِنَّ مَعِـي ذِرَاعِـي

ثم حَبَا إلى المقتول، فاتكأ عليه. فقيل له:

من ضربك؟

فقال: «وسادتي».

ولا ينجدك، يا بنيّ، في توسيع مداركك عن ماضي بلادك، وحياة أجدادك، إلا قراءة ما كتبه الأدباء والمؤرخون، ففيما كتبوا ذخائر، تزخر بها الكتب، يبدأ بعض الناس قراءتها، تسلية وطرافة، ثم تدريجاً ينقلب القارئ متمتّعاً بمعانيها ومغازيها، ويستمرّ مقوّما ومقدّرا، وحقل يجره إلى حقل، وجادة تصله بأخرى، وفن يدلف به إلى فن، حتى يشدّه ما يقرأ، فلا يطيق صبراً، عما تذوّق طعمه وحلاوته، وهذه طبيعة الأدب، يا بنيّ، وقد لاحظها السابقون، ففرقوا بين العلم والأدب، فقال أحدهم:

«إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد فنّا واحدا، وإن أردت أن تكون أديباً فخذ طرفاً من كل فن»[1] .

وتحسّ، يا بنيّ، أن أجدادك العرب كانوا يريدون أن يوصلوا إليك تراثهم، وأنهم أمناء على مصلحتك، قبل أن تولد بقرون، وقبل أن يولد آباؤك وأجدادك الأقربون. وتكاد تسمع صوتهم، يسجّل هذه الرغبة عندهم، وهذا الحرص منهم على أداء رسالة آمنوا بها، فتطرق أذنك كلمة عمرو بن العلاء عندما سئل:

«لِمَ كانت العرب تطيل؟»

قال: «ليسمع منها».

قيل: «فلم توجز؟».

قال: «ليُحفظ عنها»[2] .

ونضيف نحن هنا: «ولِمَ يُحفظ عنها؟».

ونجيب: «ليصلك تراثها».

ولغتهم، يا بنيّ، أمينة مثلهم، دقيقة دقة تصوّرهم،

---

(١) محاضرات الأدباء: ٢٦ .

(٢) محاضرات الأدباء: ٢٦٧ .



فالكلمة لها مدلول محدود، لا يزيد عما قصد به، ولا ينقص، إن زاد عَنَى شيئاً آخر، وإن نقص دخل في مدلول ثانٍ، تفزع آذانهم من الجملة، يدخلها الخلل، أو الكلمة، يعتريها الجنوح؛ هذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما قال لرجل:

«أتبيع هذا الثوب؟».

فقال: «لا. عافاك الله».

قال: «قل: لا. وعافاك الله»[1].

هذه الواو قال عنها أحد الأدباء أنه لم ير أجمل منها. وقد صدق، فقد قلبت مظهر الدعاء عليه بما يكره إلى الدعاء له بما يحب. ولا تحتقر شيئاً، يا بنيّ، إذا وضع في مكانه، ألا تذكر مفعول النقطة التي قيل أنها كانت من أسباب الفتنة أيام عثمان، سواء صحّ الخبر، أو لم يصح: «فاقبله» قيل إنها كتبت «فاقتله».

---

(١) محاضرات الأدباء: ٣٠، والأذكياء: ٨١. انظر: ثمرات الأوراق فقد قيل عنها أنها أحسن من واو الاصداغ: ١١.

ولهم، يا بنيّ السّحر الحلال في كلامهم، يتلفظ هذا بكلمات تسحرك على غفلة من تفكيرك، فيرد آخر بما ينقض عُقد السحر هذه، ولا تملك إلا أن تعجب بالقدرة على السيطرة على الفكر واللسان عندهم.

اسمع ما دار بين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، وقد دخل عليه عمرو، وعند معاوية بنيّة له يلاعبها، فقال له:

«انبذها عنك يا أمير المؤمنين فوالله إنّهن يلدن الأعداء، ويقرّبن البعداء، ويؤدّين إلى الضّغائن».

فقال معاوية: «لا تقل هذا، فما ندب الموتى، ولا تفقّد المرضى، ولا أعان على الحزن مثلهن»[1].

واسمع هذه القصة:

صعد خالد بن عبدالله القسري المنبر يوم الجمعة،

(١) محاضرات الأدباء: ١٣٧، وبهجة المجالس: ٢/ ٧٦٣، وقارن هذا بما جاء في بهجة المجالس: ٢/ ٧٧٨، حيث الحديث بين عبدالعزيز بن مروان وسعيد بن العاص، إذ قال الأول للثاني: «إني لأحبّهن على أنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، وهنّ عدد، ولسن بولد.



وهو إذ ذاك عامل على مكة، فذكر الحَجّاج، فحمد طاعته، وأثنى عليه خيراً.

فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب الخليفة سليمان بن عبدالملك، يأمره فيه بشتم الحجاج، ونشر عيوبه، وإظهار البراءة منه. فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

إنّ إبليس كان ملكاً من الملائكة، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً، وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفي على ملائكته، فلما أراد الله فضيحته أمره بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلعنوه. وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشّه وخبثه ما خفي عنا، فلمّا أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين، فلعنه، فالعنوه، لعنه الله! ثم نزل.

أرأيت، يا بنيّ، كيف أُعطي هذا الخطيب مقاليد

الكلم والفكر، لم تعوزه الحجّة، لتغيير رأيه عما كان طلب من الناس في جمعة مضت، أرأيت حسن المدخل والمخرج؛ تأكّدْ أنه لو جاءه أمر من أمير المؤمنين بإزالة اللّعن عن الحجاج، لوجد الحجّة لذلك؛ وقد قال رسول الله ﷺ لرجلين تكلّما أمامه مدح أحدهما الآخر، فلما لم يقنع الممدوح المدح، ولم يرِ للمادح فضلاً، واتّهمه بأن ما قاله مدحاً أقل مما كان يجب أن يمدحه به، وأنه غمطه حقّه، فذمّه الآخر عندما رأى أن أرضه سبخة، لم ينبت فيها المعروف؛ فلاحظ عليه الصلاة والسلام هذا الاختلاف في الرأي؛ فقال المادح الذّام رضينا فقلنا عنه خير ما علمنا، وسخطنا فقلنا أسوأ ما علمنا، فقال عليه السلام: «إن من البيان لسحرا»[1].

وتمتزج الصفات الحميدة في ابن الصحراء، يا بنيّ، مضيئة في ظلمة بعض العادات، فتقلب ليلها نهاراً، ودجنّتها ضياءًا. وتظهر السمات الحضارية التي

(١) انظر: زهر الآداب: ١/ ٣٨، والبيان والتبيين: ١/ ٣٤٩.



زرعوها، ورعوها، فتحمي مجتمعهم من الانهيار، وتقيه من الاضمحلال، بهذه الركائز، التي تكّونت مع تبلور مجتمعهم، فصوّرت الفروسية بأجلى صورها؛ واختلطت في هذه القصة التي سوف أرويها هذه الصفات، مع الذكاء، وحسن التخلّص:

يروي عمرو بن معد يكرب، قال:

خرجت يوماً حتى انتهيت إلى حيّ، فإذا بفرس مشدودة، ورمح مركوز، وإذا صاحبه في وهدة يقضي حاجته، فقلت:

خذ حذرك، فإني قاتلك.

قال: ومن أنت؟

قلت عمرو بن معد يكرب.

قال: يا أبا ثور، ما أنصفتني، أنت على ظهر فرسك، وأنا في بئر، فاعطني عهداً.

فعاهدته أن لا أقتله حتى يركب فرسه، ويأخذ حذره، فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احتبى

بسيفه، وجلس. فقلت له: ما هذا؟

قال: ما أنا براكب فرسي، ولا مقاتلك، فإن كنت نكثت عهداً، فأنت أعلم.

فتركته، ومضيت. فهذا أحيل ما رأيت[١].

وإذا تنقّلتُ بك، يا بنيّ، في المجالات المختلفة عما يخص الصحراء، وابن الصحراء، دون تنظيم، أو ترتيب، فإنما أحاول أن أعطيك صوراً متكاملة للمجتمع، وساكنيه، ومدى تأثير البيئة على هذا الساكن، وعدم الترتيب إنما هو هروب من احتمال مللك، وتبرّمك، وأنت تعرف أن الجالس على المائدة إذا لم يكن أمامه إلا طعام واحد، أو إذا أجبر ألا يمدّ يده إلى صحن ثان إلا بعد أن تعزف نفسه عن الصحن الأول، لم يهنأ بما أكل، ورغبته تكمن في إعطائه الحرية في التنقل، مثل النحلة من زهرة إلى أخرى، والعودة إلى ما قد كان تركه.

وسأنقل لك أبياتاً مطولّة، قالها أحد أبناء الصحراء،

(١) الأذكياء: ٨٧.



وأهميتها أنها تريك العربي، الذي يعتز بلغته، وجريها على السليقة، مسامقة لطبيعته، وطبيعة بيئته، وعزوفه، وأنفته، مما قد يراد إدخاله على لغته، مما لا تقبله طبيعته، أو ذوقه. وقد لمس في تعبيره في القصيدة بيئته، وصفاءها، وخلوّها مما يشين المدن، وألمح إلى فضيلة عدم التصنّع، وإلى فضيلة التأكد من مصادر الأخبار، التي يعتمد عليها، وهي المعاينة، والنظر، لا الرواية والسّماع:

مَاذَا لَقِيْتُ مِنَ المُسْتَعْرِبِيْنَ وَمِنْ
تأْسِيْسِ نَحْوِهُمُ هَذَا الّذِيْ ابْتَدَعُوا
إنْ قُلْتُ قَافِيَةً فِيْهِ يَكُونُ لَهَا
معْنَى يُخَالِفُ مَا قَاسُوا وَمَا وَضَعُوا
قالُوا: لَحَنْتَ، وَهَذا الحَرْفُ مُنْخَفِضٌ
وذَاكَ نَصْبٌ، وهَذَا لَيسَ يَرْتَفِعُ
وحَرَّشُوْا بَيْنَ عَبْدِاللهِ وَاجْتَهَدُوا
وبَيْنَ زَيْدٍ وَطَالَ الضَّرْبُ وَالوَجَعُ

إِنِّي نَشَأْتُ بِأَرْضٍ لاَ تُشَبُّ بِها
نَارُ المَجُوسِ، وَلاَ تُبْنَى بِهَا البِيَعُ
وَلاَ يَطَا القِرْدُ وَالخِنْزِيرُ سَاحَتَهَا
لَكِنْ بِهَا الهَيْقُ وَالسِّيدَانُ وَالصَّدَعُ
ما كلُّ قَوْلِي مَعْرُوْفُ لَكُمْ فَخُذُوا
مَا تَعْرِفُونَ وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَدَعُوا
كَمْ بَيْنَ قِومٍ قَدْ احْتَالُوا لِمَنْطِقِهِمْ
وَآخَرِيْن عَلَى إِعْرَابِهِم طُبِعُوا
وَبَيْنَ قَوْمٍ رَأَوا شَيْئًا مُعَايَنَةً
وَبَيْنَ قَوْمٍ رَوَوا بَعْضَ الذِّي سَمِعُوا[1]

والحديث، يا بنيّ، عن لغتهم، وبيئتهم، لو تتبعناه لطال بنا الأمر، فما دوّن منه غزير. وإن أردت الاستمتاع ببعض ما قيل عن ذلك، فارجع إلى كتاب الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، في الليلة السادسة من مجالسه، ففيها وصف مسهب بديع، يملأ النّفس بهجة، والروح سعادة، لما فيه من دِقّة

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ١٤٠.



وصف، ورِقّة عبارة، وقوّة أسلوب، وتَحَرٍّ للإنصاف، وسوف أقتطف لك منها بعضَ العبارات، لعلها تكون خيطاً دقيقاً يقودك إلى الكتاب، فتكرع في مياهه العذبة، وتتمتّع بعبق رياضه الفوّاحة:

ان العرب ليس لها أوّلٌ تؤمّه، ولا كتاب يدلّها؛ أهل بلد قفر، ووحشةٍ من الأنس؛ احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره، ونظره، وعقله، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض، فوسموا كل شيء بسمته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه، ويابسه، وأوقاته، وأزمنته، وما يصلح منه في الشاة والبعير.

ثم نظروا إلى الزمان واختلافه، فجعلوه ربيعياً، وصيفيا، وقيظيا، وشتويا؛ ثم علموا أن شربهم من السماء، فوضعوا لذلك الأنواء؛ وعرفوا تغيّر الزمان، فجعلوا له منازله من السّنة؛ واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجوم السماء أدلّة على

أطراف الأرض، وأقطارها، فسلكوا بها البلاد؛ وجعلوا بينهم شيئاً ينتهون به عن المنكر، ويرغبهم في الجميل، ويَتَجَنَّوْن به على الدناءة، ويحضهم على المكارم، حتى إن الرجل منهم، وهو في فجّ من الأرض، يصف المكارم، فما يُبقي من نعتها شيئًا، ويسرف في ذمّ المساوئ فلا يقصر.

ليس لهم كلام، إلا وهم يحاضّون به على اصطناع المعروف؛ ثم حفظ الجار، وبذل المال، وابتناء المحامد؛ كلّ واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته، وفكرته، فلا يتعلمون، إلا ويتأدبون، بل نحائز (عادات وتقاليد) مؤدّبة، وعقول عارفة.

إنهم أعقل الأمم، لصحة الفطرة، واعتدال البينة، وصواب الفكر، وذكاء الفهم[1].

ويقول عن العرب، عند مقارنته لهم بالأمم:

وللعرب النجدة، والقِرَى، والوفاء، والبلاء،

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٧٢.



والجود، والذمام، والخطابة، والبيان[1] .

وعلّق على وصف العباس بن مرداس السّلمي لبني عبدالمطلب، واصفاً قدودهم، ووجوههم وعمائمهم، ومنطقتهم بقوله:

وهذا شيء فاشٍ في العرب، لطول وِحدتها، وصفاء فكرتها، وجودة بِنْيَتِها، واعتدال هيئتها، وصحة فطرتها، وخلاء ذرعها، واتقاد طبعها، وسعة لغتها، وتصاريف كلامها، في أسمائها، وأفعالها وحروفها، وجولانها في اشتقاقها، ومآخذها البديعة في استعارتها، وغرائب تصّرفها في اختصاراتها، ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها، وفنون تبحبحها في أكناف مقاصدها، وعجيب مقاربتها في حركات لفظها.

وهذا وأضعافه مسلم لهم، وموفّر عليهم، ومعروف فيهم، ومنسوب إليهم، مع الشجاعة،

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٧٤.

والنّجدة، والذّمام، والضّيافة، والفطنة، والخطابة، والحميّة، والأنفة، والحفاظ، والوفاء، والبذل، والسخاء، والتّهالك في حُبّ الثّناء، والنّكَل الشديد عن الذمّ، والهجاء.[1]

ويقول عن العرب في موضع آخر، واصفا منحى آخر من مناحي حياتهم:

على أن العرب أحسنُ الناس حالاً، وعيشًا، إذا جادتهم السماء، وصدقتهم الأنواء، وازدانت الأرض، فهدّلت الثمار، واطّردت الأودية، وكثر اللّبن، والإقط، والجبن، واللّحم، والرّطب، والتّمر، والقمح، وقامت لهم الأسواق، وطابت المرابع، وفشا الخصب، وتوالى النّتاج، واتّصلت الميرة، وصدق المصابُ (القصد) وارفغ (توسّع) المنتج، وتلاقت القبائل على المحاضر، وتقاولوا، وتضايفوا، وتعاقدوا، وتعاهدوا، وتزاوروا، وتناشدوا، وعقدوا الذمم، ونطقوا بالحكم،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٧٦.

وقَرَوا الطرّاق، ووصلوا العُفاة، وزوّدوا السابلة، وأرشدوا الضّلاّل، وقاموا بالحمالات، وفكّوا الأسرى، وتداعوا الجفلى، وتعافوا النّقرى، وتنافسوا في أفعال المعروف.

هذا وهم في مساقط رؤوسهم، بين جبالهم، ورمالهم، ومناشئ آبائهم، وأجدادهم، وموالد أهلهم، وأولادهم[1].

هذا، ولولا الملل، يا بنيّ، الذي أخشى أن يدبّ إليك، وهو مثل «البُعبُع» يتراقص أمامي، لأخبرتك عما ورد في هذا المصدر، بأضعاف ما سمعت، فلعلك، في يوم من الأيام، تمرّ به، وتتصفح في هذه الصفحات تلك الدرر المنضودة، واللآلئ المكنونة، ففيما تركتُ أضعاف ما أثبتُّ، وفيما اختزن قليل مما تركت.

وأجد هنا شيئاً يشدّني لأفتح لك نافذة تطلّ منها على بعض جاذبيّة الصحراء، التي شدّت في يوم من

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٠.



الأيام خليفة من الخلفاء الأمويين هو عبدالملك بن مروان :

قيل إنّه قال لبعض جلسائه :

قد قضيت الوطر من كل شيء ، إلا من محادثة الإخوان ، في الليالي الزهر ، على التلال العفر[1] .

ودعنا الآن نضع الإمتاع والمؤانسة جانباً ، نقتلعه اقتلاع الضرس النافع لا اقتلاع الضرس الموجع .

* * *

(١) الإمتاع والمؤانسة : ١/ ٢٦ .



الخيل

أي بُنَيّ!

تذكر أننا تحدثنا عن الجمل، وهو حيوان الصحراء الأول، وله خدن وصاحب، نازعهُ حبّ الناس، وشاطرهُ اهتمامهم، ورجح أحياناً عليه، هذا الحيوان هو الحصان، وكنا ألمحنا إليه، ولم نطل، حينئذ، ومن حقِّه أن يُطال فيه، ولو قياسًا بطول رقبته، التي يزهو بها؛ وله الحق، وهو الذي ورد فيه، وفي جنسه، آيات عديدات في القرآن، وأحبّه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ واقتناه، وأوصى به، وكان سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ من المعروفين بالولع بالخيل، والالتفات إليها، والعناية بها، حتى فاتته إحدى الصلوات، أو كادت، كما ورد: وهو يستعرض الخيل[1].

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

(١) نسب الخيل: ٢٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

وقال : ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾[1] . وقال : ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾[2] . وقال : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[3] . وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾[5] .

وقال الرسول ﷺ من جملة ما قال عنها : «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها ، فامسحوا نواصيها ، وادعوا لها بالبركة»[6] . وقال ـ عليه السلام ـ عن إناثها : «ظهورها حِرز ،

---

(١) سورة العاديات ، الآيات : ١-٥ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤ .
(٣) سورة النحل ، الآية : : ٨ .
(٤) سورة ص ، الآيتان : ٣٠-٣١ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٤ .
(٦) عقد الاجياد : ١٠ .

وبطونها كَنز»[1] .

وقال خالد بن صفوان: الإِبل للبُعد، والبغال للنّقل، والبراذين للجبال والدّعة، والحمير للحوائج، والخيل للكرّ والفرّ[2] .

وقالت العرب أيضًا: «ثلاثة من خدمهم فقد رَأَس: الضيف والوالد والفرس»؛ والحصان عند العرب أجمل دابّة، وأكرم حيوان، وأقرب إلى قلب العارفين قدره؛ في تكوينه جمال، وفي لونه بهاء، وفي حركته خفّة، وفي عَدْوه سرعة؛ أحبّه العربي لهذا، ولفائدته له في الماضي، وأحبّه في الحاضر لسبب مثل هذا، وغيره.

كان في الماضي حصنه الذي يحتمي به، وقلعته التي يلجأ إليها، وأداة صيده التي يقتنص عليها، ويقيّد بها الأوابد؛ عليها يهاجم، وبها يدافع، ويباهي،

---

(١) عقد الأجياد: ١٠.

(٢) نسب الخيل: ٢٢.

ويفاخر؛ عزيزة عليه، ثمينة عنده، يعدل بها الولد، بل الوالد، بل يقدّمها عليه، وعلى أهله في الرعاية والعناية؛ قال أحدهم عندما سئل عنها: «إنّا لنؤثر الجياد على الأولاد»؛ وعندما سئل آخر عن معرفته بالخيل، قال: «معرفة الإنسان بنفسه، وأهله، وولده». وقال أحد الشعراء عن فرسه جروة[1] :

فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإِنِّي
وَجَرْوَةَ كَالشَّجَا تَحْتَ الوَرِيْدِ
أَقُوتُهَا بِقُوتِي إِنْ شَتَوْنَا
وَأَلْحِفُهَا رِدَائِي فِي الجَلِيدِ

وقال آخر[2] :

وَحَالفنَا السُّيوفُ وَصَافِنَاتٍ
سَوَاء هُنَّ فِينَا وَالعِيَال

وقال ثالث[3] :

---

(١) عقد الاجياد: ١٢.
(٢) كتاب الخيل، ص: ٤٠.
(٣) عقد الأجياد: ١٢.

أَحِبّوا الخَيلَ وَاصْطَبِرُوا عَلَيهَا
فَــإِن العِــزّ فِيهَــا وَالجَمَــالاَ
إذَا مَــا الخَيــلُ ضَيّعهَــا أُنَــاسٌ
ربَطنَــاهَــا وَشَــارَكَــتِ العِيَــالاَ
نُقَــاسِمُهــا المَعِيشَــةَ كُــلَّ يَــوْمٍ
ونكسُــوهَــا البَــرَاقِــعَ وَالجِــلاَلاَ

ومن الأبيات المشهورة عن الخيل قول الشاعر، وقد طلب أحد الملوك الأقدمين منه فرسه «سكاب» وفي هذه الأبيات عاطفة جيّاشة تجاه هذه الفرس[1] :

أَبيــتَ اللَّعــنَ إِنّ سَكَــابَ عِلــقٌ
نفِيـــسٌ لاَ تُعَـــارُ وَلاَ تُبَـــاعُ
مفَـــدَّاةٌ مُكَـــرَّمَـــةٌ عَلَينَـــا
تجــاعُ لَهَــا العِيَــالُ وَلاَ تُجَــاعُ
سلِيلَــةُ سَــابِقَيْــن تَنَــاجَــلاَهَــا
إذَا نُسِبَـــا يَضُمُّهُمَـــا الكُـــرَاعُ

(١) عقد الاجياد: ١٣، الحلبة في أسماء الخيل: ٩٣.

فَـلاَ تَطمَـعْ أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ فِيهَـا
وَمنْعُكَهَـا بِشَـيءٍ يُستَطَـاعْ

والأدب العربي مليء بما جاء عن الخيل، في العصور المختلفة، من وصف وتمجيد، وبما قيل فيها من أقوال وأشعار، بعضها في المباهاة، وبعضها في المفاخرة، أو في الاعتزاز؛ تعدّدت الأمثال فيها، وترادفت، وتنوعّت الأشعار، واختلفت الأرجاز، في أيام السلم والحرب، خاطبوها مخاطبتهم للإنسان، وشكروها على حسن صنيعها شكرهم للإنسان، ولاموها على تقصيرها مثلما يلام الإنسان. استماتوا دونها، واستماتوا لحيازتها. تمعّنوا فيها، ودوّنوا كل خاطرة تمرّ بذهنهم عنها، ووصفوا فيها مكامن الحسن، وغالوا وألمحوا إلى أماكن العيب فيها وتحسّروا، قُسّمت أقساما عندهم، أعزّها وأكرمها العربي الصريح، الذي لم يخالط نسبهُ عجمة، ويليه الهجين، وهو مَن أبوه عربي وأمه عجمية، ثم المُقرف، وهو من أبوه عجمي وأمّه عربيّة. وآخرها البرذون



وهذا أبوه وأمه عجميان.

يقول الشاعر عن شيء من ذلك[1] :

وَإِذَا تَقَـابَـلَ مُجـرَيَـانِ لِغَـايَـةٍ
عثَرَ الهَجِيْن وَأَسلَمَتْهُ الأَرْجُلُ
ويِجى الصَّرِيحُ مَعَ العتيقِ مُعوَّدَا
قُرْب الجِيَادِ فَلَم يَجئْهُ الأَفْكَلُ

ويبدو، يا بنيّ، أن حيوانات الركوب، في الأزمان المختلفة، لالتصاق الناس بها، ودخولها في حياتهم اليوميّة، تأخذ حيّزاً من تفكيرهم، وهذا يؤدي إلى تتبّع تفاصيل تركيبها وثباتها؛ فأنتم الآن تتحدثون عن اختلاف سيارة عن أخرى، في آلاتها، وما يتبع ذلك من أداء، تختلف كل واحدة فيه عن الأخرى، فهذه آلية (أتوماتيك) وتلك ليست آلية، وهذه بعض أدواتها «اليكترونية»، وهذه بخلافها، وهذه مبدّل السرعة فيها يعمل بنقل، وتلك بدون نقل متعدّد،

(١) عقد الاجياد: ٣٦.

أي يعمل آلياً. وهذه حرق وقودها بالنفّاثات، أو «البخّاخات»، وتلك بالنقط والقطر، وهذه لها أربعة أبواب، وهذه بابان، وهذا صنع البلاد الفلاني، وتلك البلد «العلاّني»، وهذه كابحها على الهواء، وتلك لا يحتاج كابحها للهواء، ويكفي أن يوطأ بالقدم. وهذه مقودها على الهواء، وهذه مقودها حرّ لا يحتاج إلى ذلك. وهذه لونها أبيض، وتلك أسود، وثالثة أخضر، ورابعة قمحي، وخامسة خليط من اثنين من الألوان. وهذه ألوانها داكنة، وهذه ألوانها مسفرة، وتلك بَيْن بَيْن.

وهذا قليل من كثير مما يمكن أن يقال عن صفاتها وشِياتها وطبائعها؛ ولهذا عندما ترى السيارة، أو الطيارة، تحسّ إحساسًا داخليًا، كأنك أمام حيوان فيه لحم ودم، فإذا أقبلت السيارة عليك، أو أقبلت عليها، ورأيت شبك خازن الماء «الاديتر» تصورته ثنايا أسنان فم يبتسم، يعضد إحساسك هذا عيناها اللتان لا تغمضان، إلا في بعض السيارات النادرة،

ورأيت مقدَّمي رفارفها، وكأنهما وجنتا خدّ، وتكاد المرآتان اللتان على جانبي مقدم السيارة توحيان لك بأنهما أذنان تسمعان، لا مرآتان تنظر بهما خلفك.

أما الطائرة فتوحي لك بأنها طائر كاسر، همّ بالوقوع أو النهوض، فَرَدَ جناحيه لذلك، وكأنّ له منقاراً، ومقصورة الطيار توحي بعينين في أعلاه فوق المنخرين، وفي العينين حدّة عيني النسر، أو العقاب، لحركة الطيارين خلف زجاج المقصورة. وتوحي عجلتاها، وارتفاعها، بانتهاض النّسر على قدميه؛ أما «السمتية»: الهوليكوبتر)، فكأن وجهها وجه جرادة، أو وجه (الدفّاع)، الذي تراه أبدًا يحوم ظهرًا حول البرك، وتجمّع المياه، يبحث عن عود ناتئ يحط عليه؛ وهو سلوة الأطفال، يتبعونه أين وقع، يأتون من خلفه، وبهدوء يُقَرِّب الواحد منهم يده، وقد شكّل أصابعه بشكل مصيدة، فإذا اعتقد أنه تعدّى طرف ذيله إلى الداخل أطبق عليه هذه الكلابة؛ وقد يخفق، وقد ينجح، فيلتوي المسكين

تجاه الداهية التي أطبقت عليه، ويحاول أن يخلّص نفسه بالعراك، والفرفرة، أو العضّ؛ ولكنّ هذا كله لا يجدي، بل أنه مسلٍّ لأنه جزء من اللعبة؛ أما لماذا سمي الدفّاع فلأمر خطير تقود إليه مطاردته، لأن الصّبي يتبعه من مكان إلى مكان، وقد يقوده إلى حافة البئر، ومع الحماس لا يحذر الحذر الكافي، فيقع في البئر، فيقال إن الدفّاع هو الذي دفعه؛ والدفاع يضرب به المثل في عدم الاستقرار.

ولعل ما يوحي بالشعور بأن السيارة والطيارة حيوانات هو حركتهما في الاندفاع، وفي الانحناء، يمينًا ويسارًا. ولا تنس أحيانا حرونهما عندما تكون البطارية قد استهلكت في السيارة، والمحرك قد عطب في الطيارة.

والذي أوحى بالاستطراد، يا بنيّ، ما سيأتي عن وصف ألوان الخيل وشياتها، وما قيل فيها من تفصيل يدلّ على اهتمام.



وفصّلوا الألوان، والشّيات، فقالوا: «أشقر، وأحمر، وكميت، وأدهم، وأشهب، وأصفر». وفرعوا من هذه ألوانا تتعدى الثلاثين في بعض الكتب. وتحدثوا عن غُرّة الفرس، وهي البياض الذي يأتي في جبهته، فإن صغر دلّ على شيء، وإن طال فله معنى؛ وتكلّموا عن التحجيل وهو بياض في القوائم؛ ووصفوا مفاصل الخيل، ومنابت شعرها، وأسنانها، وتحدّثوا عن طبائعها، وصهيلها، وتدريبها، وتضميرها، وأمراضها، وما تأكله؛ لم يتركوا شاردة، ولا واردة عن الخيل إلا تتبّعوها؛ كانوا يتناقلون أخبارها بلذّة، ويفصّلون في هذا، ويُدقِّقون.

تكلّموا مثلاً عن آذانها، وشبّهوها بأطراف الأقلام، ووصفوا ركض الفرس، وكيف أن الحصان «يباري ظلّه، ويباري عنانه، ويباري شباة الرمح».

ومن حبّهم لها، ومغالاتهم في طباعها المعجبة، ألحقوا بها قصص خيال، فقالوا إن أَصَلها أفراس من البحر، أخرجها الله لإسماعيل لما شبّ، وأنه كان

لها أجنحة، وأن اسمها في الأصل: «الخير»[1] .

وممّا يقال في هذا المجال، ممّا يحتاج إلى تروّ، أن مزاج الخيل أقرب إلى مزاج الإنسان، وأن الحصان يعرف صاحبه، ولا يسمح لغيره بركوبه؛ وقالوا مما يصعب تصديقه إلا بتأويل: إنه كان لمروان بن الحكم، وقيل لهشام بن عبدالملك، فرس لا يدخل عليه السائس إلا بإذن، فإذا حرك السائس المخلاة، وحمحم الفرس، دخل عليه السائس، وإلا فإنه إذا دخل، ولم يحمحم، فإنه يشتدّ عليه، ويهاجمه![2] .

وقالوا مما يدخل في نطاق ما يدهش، ويحتاج إلى تحقيق، وبعضه يكاد يكون مرفوضًا دون تحقيق: إن الخيل لا تأكل بقية علفٍ أكل منه غيرها؛ وقالوا عن أنثاها: إنها تحيض؛ وقالوا: إنها إذا وطأت أثر الذئب ارتعدت، وخرج الدّخان من جسدها؛ ويقال عن الخيل إنها الحيوان الذي يَرى في الظلمة، ولهذا

(١) نسب الخيل: ٢٥.

(٢) الحلبة في أسماء الخيل: ٨٦.



يقولون في المثل : «أبصر من فرس دهماء في ليلة ظلماء» ومع هذا هناك من يقول إن آذان الخيل أصدق من عينيها ، لقوة سمعها .

وقد احتفظ الحصان بمقامه ومركزه عبر العصور إلى أن زاحمته في ميادين القتال المصفّحات من السيارات ، و «الجيوب» ، وأخذت مكانه ، ودفعته إلى مجالات ضيقة ، قد تكون اقتصرت في الحرب على الجبال ، والمنحنيات الوعرة ، ولكنه احتفظ بمكانه في بعض المدن للدوريّات ، ولركوب الجند ، لتفريق المظاهرات ، أو للزينة في الاستعراضات العسكرية ، في المناسبات المختلفة .

أما الذي بقي مُزدهرًا ، وتعدّت فيه الخيل الحدود في القيمة والعناية ، فهو حقل المسابقات ؛ لقد عمرت البلدان العالمية المختلفة بميادين السباق ، وبحظائر الخيل ، التي ضمّت النادر ، والثمين ، منها ، ووصل ثمن بعضها ملايين الجنيهات ، لما تجلبه لأصحابها من الثروات في السّباق ؛ والرّهان على الخيل في بلدان



العالم أسواقه مزدهرة، تدخله ملايين الأموال، وتخرج منه ملايينها، وله مواسم لا يتأخر المتحمّسون عنها، يتطلع محبّوها إلى حلولها، ويساهمون في السّباق فيها، مساهمة فعّالة، جعلت من هذا الفن أمراً ناجحًا، في جانبه الاقتصادي.

وللخيل العربية في العالم سمعة ذائعة، ولها مقتنون من الأوربيين، والأمريكان، وغيرهم، ولا يقتني العربي منها إلا ذوو اليسار، المفرطون في الغِنى، لأن اقتناءهم لها هواية، وليس أحياناً للزجّ بها في ميادين السّباق، التي يكون فيها الهجين هو المهيأ لمثل السباقات، التي اعتادوا أن يقيموها. ويقال إن الحصان العربي لا يستطيع أن يسبق الهجين في السباق القصير، ولكنه أقدر منه في السير الطويل، لصبره، وقوة تحمله. والهجين يغلب أيضاً في القفز، ولعل ضخامة قطاته تساعده على ذلك؛ وهذا القول يحتاج إلى تأكيد الخبراء في الخيل؛ أمّا الذي لاشك فيه، فهو جمال الحصان العربي، بطول رقبته، وصغر



رأسه، وارتفاع أقدامه، وضمور بطنه، وصفاء أديمه، ونباهته وتجاوبه.

وكان للخيل في القرون الأخيرة في الجزيرة العربية شأن عظيم، وسمعة أبعدت كثيراً في الآفاق، وحرص أهل الجزيرة على تصفية أنساب خيلهم، وإبعاد الخلط عنها، فصفت أنسابها، وكرمت سلالاتها، وأصبح من أهلها خبراء، يرجعون كلاً إلى كل، وبمجرد أن يلقوا نظرة على الحصان، يستطيعون أن يحكموا بصراحته أو هجنته، أو نسبة الهجنة فيه؛ وهذه الخبرة توارثوها أباً عن جدّ، وأصبح عندهم ملكة، بها يستطيعون أن يقرّروا أمر الخيل، التي تعرض عليهم.

ومن بين حكام الجزيرة الذين كان لهم اهتمام بالخيل الإمام فيصل بن تركي رحمهما الله، واهتمامه هذا جعله يكلّف المؤرخ المعروف عثمان بن بشر بكتابة كتاب عن الخيل في زمنه، ففعل، وسمّى كتابه «سُهيل في ذكر الخيل»، وللأسف لم يصل إلينا

إلا المقدّمة، فيها فهرس للمواضيع التي عالجها الكتاب، ولعلّ بقية الكتاب تظهر في يوم من الأيّام، فهذا الكتاب يعتبر حلقةً مهمّة في تاريخ المملكة والجزيرة، لأن الخيل لعبت دوراً بارزاً في تكوين هذه المملكة، والاطلاع على ما احتواه الكتاب يعطي نورًا وهّاجا على ما كان الإمام فيصل ـ رحمه الله ـ يعدّه من رباط الخيل.

وإليك مقتطفات مما ورد في الكتاب تعطي فكرة عما ورد به، وتبينّ فائدته، وقيمته. قال ابن بشر في المقدمة:

«كان الإمام فيصل ـ متّع الله به ـ ملك من الخيل العتاق العربيات ما لا يملكه ملك من الملوك من جميع أنواعها الغالية، والأصائل العتاق العالية، من: الصقلاويات، والدّهم والعبيّات، والجازيات، والشّوافات، وغيرها من العراب المسمّيات، عنده في الرياض، وفي بلدان الخرج، وعند عمّاله، وأمرائه، في الحسا، والقطيف، وفي بلدة عنيزة، عند أخاه

(كذا) جَلَوي، ما يبلغ المئة أو ينيف؛ وجعلها لموجب صادر أمره، إذا نهض بجموعه لبلدان، أو أوطان، أو من خالف أمره من العربان.

وكان متع الله به إذا ركب غازيًا، أو متنزّها، خصّ على الخيار منها، وركبها، أو سار بها، واستجنبها. وكان يحب ركوب فرس سابق معلومة، وبكل صفة كاملة موسومة: الكحيلة يسمّونها شقراء ابن هزاع، متّفق على سبقها، وعتقها، بغير نزاع».

والكتاب من ستة فصول، ورغم أن هذه الفصول تشتمل، حسب ما يتبين منها، على ما جاء عن الخيل في الماضي، وهو ما جمعه من الكتب، إلا أنه يُؤَمَّل أن يكون في ثناياه ما يحكي تفصيلاً عن الخيل في زمن الإمام فيصل، كما ألمحت المقدمة.

على أي حال لعل الله أن يوفق من يقرأ، يا بنيّ، هذه الكلمات، فيبحث، ويعثر على ما ضاع من الكتاب.

ولعلك الآن، يا بنيّ، قد ضقت ذرعاً بهذا الحديث الجادّ، وكالعادة تريد أن تخرج من هذه الأرض الصلبة إلى أرض رخوة، تتناسب والراحة التي تطلبها دائمًا، وتحرص عليها، ولا تساوم عليها أو تنساها، إذًا دعنا نتحدث عن «الجربوع». وكأني بك تقول: «ما دخل الجربوع» وكعادتك أيضاً يوسوس لك فكرك بأني أبعدت عن الموضوع، وأني أفتعل حديثًا لادخل له فيما نحن بصدده، والعجلة يا بنيّ دائماً مَطِيّة مزلّة، لو تأنّى الإنسان، وانتظر، وصبر، لتبين له بَعد التروّي ما لم يتبين له قبله.

«الجربوع»، يا بنيّ، له صفة، وقيل عنه كلمة تتصل بالخيل، ولهذا أدخلته في الحديث. والجربوع كما تعرف، لأنك قاولت مرة من يصيده لك، وأحضر لك خمسة منها، جعلتها في قفص فترة ليست قصيرة، حتى هداك الله، ومننت عليها بالحرية، وأطلقت سراحها في بيئتها. ولعلها تدعو لك الآن لذلك، وتدعو لي، لاقناعي إياك بما فعلت، وحسنا فعلت.



«الجربوع»، يا بنيّ، كما رأيتَه، جميل، ونظيف، ويختلف عن الفأرة كليّاً، وإن كان قريباً منها في حجمه، وفي بعض من تكوينه: يداه، كما رأيت أقصر من رجليه، وإذا وقف، وقفتَ مندهشًا من جمال وقفته، وله ذيل طويل، ينتهي بوبر أبيض، يضفي عليه جمالاً، ومعروف عنه أنه عندما يحفر جحره الذي يختبئ فيه، يجعل له مدخلاً هو في الوقت نفسه مخرج، ولكن له «نطّاقة»، أو «نتّاقة»، وهي ممر ينتهي إلى جهة مخالفة للمدخل، يوصل إلى وجه الأرض، ولا يبقى به إلا طبقة رقيقة، يَرى من خلالها النور، ولا يراه من بخارجه على وجه الأرض، فإذا ضايقه عدو خرج منها بأن يقفز ويضربها برأسه، فيخترق بابها، الذي هو عبارة عن «سِلْب» رقيق من التراب اليابس. وهكذا ينجو، تُنَجّيه أقدامه، التي يستفيد منها للقفز؛ وأكبر أعدائه، وأشدّها الحيّة، ولكنّه قل أن يقع فريسة لها.

والجربوع، يا بنيّ، قد رأى «العبيّة» وهي كما

رأيت إحدى سلالات الخيل المعرّبة الصريحة، ومن السّابقات الجياد، وأُعجب بسرعتها، والسّرعة عنده بضاعة مطلوبة، فقال كلمة مشهورة، تقطر أسى، وتنضح بالألم: «لو إيديّه طول رجليّه، ما لحقتني بنت العبيّة». ولو تدبّر أمره لما تألّمّ، ولما تمنّى، إذ لم ينفعه إلا حالته من طول الرجلين، وقصر اليدين، مما يساعده على القفز، ولو كانت أقدامه متساوية لما قفز، وإنّما جرى، فلم يستطع أن يتخطّى الحواجز بسهولة.

أرأيت كيف أن الجربوع له مساس بالحديث الذي نحن بصدده، وله صلة بالخيل، كيف لا، وهو وهي، من بيئة واحدة، بيئة الصحراء التي نحبّها؛ ويشدّنا الحديث إليها دون أن نشعر، ونقسر أنفسنا للعودة إلى الحديث الذي بدأناه، ولم يكن عنها.

ومع حرصنا على عدم الابتعاد عن الحديث عن الخيل، إلا أن هناك ما يغري بالحديث عن اليرابيع (الجرابيع) لطرافته، ولا تدقّق في أمر صحّته، لأنّك



إن دقّقت استوجب الأمر منك أن تبحث، وهذا يفتح عليك بابًا واسعًا، أنت في غِنى عنه، لأنّي أعرف أنّ البحث العلمي ليس أمراً تحرص عليه الآن، وأرجو أن يكون عزوفك عنه طلبًا للراحة اليوم، ادّخاراً لنشاط، سوف تصرفه إليه في المستقبل.

سوف نقتبس عن اليرابيع قولاً، سطّره صاحب الامتاع والمؤانسة يقول فيه:

اليرابيع إذا اجتمعت في موضع ارتفع رئيس لها حتى يكون في موضع مشرف، أو على صخرة، أو تلّ، ينظر منه إلى الطريق، من كلّ ناحية، فإن رأى أحداً مقبلاً، أو سبعًا، صّر بأسنانه، وصوّت، فإذا سمعته انصرفَت عن الموضع إلى جحرتها، فإذا أغفل ذلك، وعاينت البقية سبعًا، أو راجلاً، قبل أن يراه ذلك الرئيس، انصرفت إليه، وقتلته، لتضييعه، أو غَفلَتِهِ.

وإذا كان حسن الرصد، مضت اليرابيع، فقطعت

أطرأ ما يكون من الخضرة، وأطيب العشب، فحملته بأفواهها، حتى تأتيه تحيّيه، وتكرمه.

وإذا كانت في جحرتها خرج الرئيس أولاً، فيبصر الطريق، فإن لم ير أحداً صرّ بأسنانه، وصوّت لها لتخرج، فترعى[1].

ومما يقال عن اليربوع، وفهمه، أنه لا يتخذ جحره إلا في كدوة، وهي الموضع الصلب المرتفع، ليرتفع عن السّيل، فيسلم من مجاري المياه، ومدقّ الحافر، فيحفر في الصلابة، ويعمّق، ثم يتّخذ في زوايا بيته القاصعاء، والنافقاء، والرامقاء، والرهطاء، وهي بيوت قد اتّخذها، ورقّق أبوابها، فإذا أحسّ شراً دفع أحدها، وخرج.

ولما علم من نفسه أنه كثير النّسيان، لم يحفر بيته إلا عند أكمة، أو صخرة، أو شجرة، ليكون إذا تباعد عن جحره، بطلب طعمه، أو خوف، حسن

---

(١) الامتاع والمؤانسة: ١/ ١٧٥.

اهتداؤه إليه[1] .

قلت لك، يا بنيّ، إن الحصان دخل قلب العربي من باب واسع، فلم يكتف مُحِبُّهُ بذكر الحقائق الثابتة حوله، بل أخذ ينسج بعض صور من الخيال، وقد سمعتَ بعضها، ليضفي عليه من الهالة ما يخرجه من حدود الحيوان المعتاد؛ هذا كان في الماضي، وصار مثله في ما قبل الحاضر مباشرة؛ وأمور الجنّ، يا بنيّ، وما ينسج حولها من خيال تساعد في هذا، ومتى ما وجد القاصّ نفسه في مأزق سرعان ما يجد هذا الباب واسعًا، يلج منه أو يخرج؛ لعلك تذكر قصة الحصان خضير، التي سبق أن قصصتها عليك، لتسلمك إلى النوم، حاملة لك، على جناح خيالها، إلى عالم الأحلام؛ تَذَكَّرْها، وتذكر أنها أحياناً تقصر إذا سارع إليك النّوم، وتطول إذا عاند، وأبطأ، خاصة ليلة السبت، لأنكّ صباح الجمعة أطلت النّوم، إذ لا روضة ولا قيام مبكراً. وأحيانًا يلحم بها غيرها، بطريقة فنيّة،

---

(١) الأذكياء: ٢٣٩.

لا تشعر معهما أنهما قصتان، ويتوالى عليك لحم القصص بعضها ببعض، أو تعدادها، خاصة إذا كان معك غيرك، وتعدّدت الرغبات، واختلفت الأذواق في الاختيار.

ولا أدري هل رغبتك التي أبديتَها الآن، لسماع قصتها، نابعة من أنك فعلاً تريد أن تسمعها، فقد يكون فاتك جانب فني فيها أو تفصيل، أو أنك تريد أن تقارن بين تقبلك لها حينئذ والآن، أو أنك، وهذا سوء ظن، تريد أن ترى هل أُغيِّر فيها أو أبدل؛ وسوء الظن معك تقتضيه الحكمة، لأنَّكم في سنّكم، حاسّة «المقالب» و «العفرته» نشطه، لم تلجم بلجام، ولم تحبس بعقال.

على أي حال هي قصّة ساذجة، وسأقص لك منها ما يخص الحصان، وهذا أقل الزلل، فيما لو تبيّن أنك مترصد للتغيير، الذي تأكّد، أنه لن يدخل على القصة.



كان هناك رجل، وأخته، وخادمة لها مملوكة، وللأخ هذا حصان، اسمه «خضير»، قد ربط في اسطبل في أسفل البيت، وكان «متجنسا» أي جنيا، دون أن يُعلم منه ذلك في أول الأمر؛ ولعل الأخ غاب في إحدى سفراته، أو لعل الأمر تعدّى طاقته، فرغم تحذيره لأخته الجميلة ألا يراها الحصان، فإنه رآها، وعشقها، وجنّ جنونه بها، وحاول أن يوجد فتحة في سقف الاسطبل على غرفتها، فلما رأت أنه قارب أن يتغلب على حبسه، جمعت ما تحتاج إليه، من ملابس، وغيرها، وهربت مع «عبدتها». وكانتا على يقين أنه سوف يتبعهما ويلحق بهما.

سافرتا في صحراء طويلة المسار، فلما قطعتا شوطاً في سيرهما، وقدّرت البنت أنه قد خرج من اسطبله، وبسرعة الحصان، ومعرفة قدرة الجِنّي، لابد أنه الآن قد بدأ طريقه إليهما؛ فقالت لعبدتها الجملة المشهورة لدى الأطفال: «يا عبيدتي تطلّعي، واشتافي» فقالت في أول الأمر: «لا أرى شيئاً».

ولا تناقش، يا بنيّ، فتقول لماذا تطلب من العُبيدة أن تنظر، ولا تنظر هي، وتؤول هذا بأنه جزء من تخديم الجارية، أو يشطح بك الخيال فتظن أن العبيدة أحسن من سيدتها نظراً، وأقوى إبصاراً، فهذا لا يتّفق مع جمالها، الذي أشادت به القصة، والأفضل أن تظن أنه ترتيب فنّي، وضع لتُعرف درجات الترقب، التي كانت تدور في صدري الفتاتين. على أي حال لولا هذا لما تسجلت لك هذه الجملة الرائعة، التي اخترقت قارات الزمن، مثلما يخترق الصاروخ القارات الأرضية.

وبعد فترة قالت لها: «يا عبيدتي، تطلّعي، واشتافي» فقالت: «أراه بحجم الذرّة». وبعد مدّة أعادت عليها الطلب، فقالت: «أراه بحجم القعس»، أو النملة الكبيرة، ثم بعد مدّة طلبت منها أن تنظر إلى الخلف وتخبرها، فقالت: «أراه بحجم الذبّة» أنثى الزنبور، ثم بعد مدة أعادت السؤال، فقالت: «أراه بحجم العصفور» ثم بعد مدة عند الطلب



قالت: «أراه بحجم الدّجاجة» ثم اقترب أكثر من ذي قبل، فرأته بحجم الشّاة، ثم رأته بحجم العجل، ثم وصل، فتداركتا نفسيهما، بأن صعدتا إلى أعلى شجرة كانت هناك، فوقف تحت الشجرة يزمجر، يرفع يديه ويضعهما، ويحاول أن يصل إلى الفتاة، وعبدتها، برأسه. فخاطبته البنت قائلة: «خضير هِج اثمك وأطيح به» أي أفتح فمك، وسأقع فيه، فصدّق قولها فرمت بعض ملابسها، فازدردها، ولم تغنه، فخاطبته مرة أخرى، ليفتح فاه، ففعل، فرمت ثيابا أخرى، وفي المرة الثالثة رمت «البقجة» بكاملها، فلم تغنهما شيئًا. وفي المرة الرابعة لم يبق معها إلا المقص، ففتحته ورمته في فمه، فاعترض في حلقه ومات الحصان.

وهذه يا بنيّ ليست نهاية القصّة كما تذكر، ولكنّ هذا هو ما يخص الحصان؛ وأنت وغيرك تعرفون القصّة، ويكفي أنّي ذكرتكم بها، وعليكم اجترار الباقي منها.

والملك عبدالعزيز، يا بنيّ، من الذين تملكوا خيلاً من خيرة الخيل العربية الأصيلة، ولا تزال سلالاتها مربوطة في مرابطها، وتنال من العناية ما تناله، وفي بعض البلدان العربية، خاصة عند البادية، بعض سلالات من الخيل الأصيلة الصريحة النسب؛ ولا عجب أن تكون صفوتها عند الملك عبدالعزيز، وهو الذي خاض الحروب، وكسب المعارك، وهو البصير بالخيل، والقادر على «اقتنائها»، وحيازتها. ولأبنائه ولع بها ـ وكذلك أحفاده، جعلها تستبقى عزّها، ومجدها، ولها سباقات في مناطق متعدّدة من المملكة، وأهمها السباق الذي يقام في الرياض، في نادي الفروسية، تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي العهد، ونائب رئيس مجلس الوزراء، ورئيس الحرس الوطني، ويساعده في هذا صاحب السمو الملكي الأمير بدر بن عبدالعزيز نائب رئيس الحرس الوطني؛ وللحرس الوطني عناية خاصة بالخيل ترى آثارها في بعض

الاستعراضات، التي تقام أحياناً.

ولا عجب، يا بنيّ، أن يبقى للخيل في الجانب العسكري من حياة الأمم دور، سواء كان ذلك في الحرس الوطني، أو في الشرطة، أو في القوى البريّة، فالحصان مظهر من مظاهر الفروسية، وعلامة من علامات إكمال الشجاعة، وركوب الخيل عنصر من ثلاثة عناصر حُث على إتقان الشاب لها، ثانيهما الرمي، وثالثهما السباحة. والإسلام مدح المتّصف بها. والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حث على تعلمها، وقال الشاعر معطياً صورة جميلة عن هذا الجانب من الفروسية:

أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ
وخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وقد صدق، يا بنيّ، وجمع في هذا البيت الوافي أمرين يجمل بالإنسان أن يتمّمهما.

والأمثال التي يرددها الناس، ويتناقلونها،

تكشف ما في أنفسهم عما قيلت فيه، وفي الخيل قيلت أمثال كثيرة، لا يحصيها إلا الله، ولم تقتصر على اللغة العربية، فالإنجليز مثلاً يقولون: لا تفتح فم الحصان إذا أُهْدِيَ إليك، لتعرف سنّه. وهي لفتة تعلّم الأدب، وقد بدأت، يا بنيّ، بالمثل الانجليزي لأنه لا يحضرني عن غير العرب غيره الآن.

ومن الأمثال العاميّة قولهم: «إذا طرّيت الحصان فوّلم العنان» أي إذا ذكرت الحصان فاحضر اللّجام، وهو مثل يقولونه عندما يخوضون في حديث يلمس شخصًا ما، وفجأة يطلع عليهم هذا الشخص، أو يدخل عليهم، وهو مثل يقوله الكبار، وإذا قارنته مع ما يقوله الصغار أمثالك عن المعنى نفسه، رأيت الفرق الشاسع، والبون البعيد بينهما، فأنتم تقولون باللسان العامي: «إذا طرّيت الكلب فولم العصا»، وهو يتناسب مع ما تتّجهون إليه من استعمال كلمات يتحاشا الكبار التلفّظ بها. ألا تذكر وأنت صغير، ومؤدبوك يقولون لك إن مثل هذه الكلمات تتسبب



في انتشار «حبوب» و «دمامل» في الفم، فكنت تتجنب مثل هذه الكلمات خوفًا من «الدمامل».

ومن المناسب للمقام أن ننتقل إلى بعض الأمثال العربية الفصيحة، حتى تعرف طرفاً منها، ولعليّ أذكر شيئاً فيما بعد عن الأمثال العامية المتصلة بالخيل، هناك مثل تدل عليه كلماته: «اتبع الفرس لجامها» والفرس، كما ترى، يا بنيّ، لها لجام مثلما للبعير رسن، وهذا من دقة اللغة العربية؛ وهناك مثل آخر لابد أنه منطلق من الخيل: «ما يشق له غبار». دليل على السرعة. وهناك مثل، وراءه قصة طويلة، نجتزئ منها ما يخص المثل، والمثل يجرى هكذا: «يا ضل ما تجري به العصا». والعصا في هذا المثل هي فرس جذيمة بن الأبرش.

خطب جذيمة الزّبّاء، ولها معه ثأر، فقبلت، فنصحه قُصَيِّر أن لا يفعل، وألاّ يذهب إليها، وبصّره ببعض الأمور، ودلّه على أبواب الحيطة منها، وحثّه

على أن يلجأ إلى ظهر العصا ، إن رأى بادرة غدر ، ولكن خطة الزباء محكمة ، ولم تعطه فرصة للنجاة ، ونجا قصيرٌ على ظهر العصا ، فأطلق جذيمة المثل ، وهو ينظر إلى العصا ، وقد انطلق على ظهرها قصيّر ، وهي تنهب الأرض .

وهناك مثل يقول : «أسمع من فرس» ، وغريب ، يا بني ، أن تكون الفرس أقوى سمعاً من الحمار ، وهو أطول منها أذنا ، ولكن المظهر لا يكفي ، هذا إذا صح أن الفرس تسمع أكثر من غيرها من الحيوانات ؛ والعرب مغرمون بأمثال هذا الوصف ، يقولون مثلاً : «إنه لأبصر من غراب» . أو «أحذر من غراب» . وقد يكون في هذا منطق ، ولكنّ قولهم : «أضل من ورل» ، أو «أضلّ من ضبّ» وأنت ترى كلا الاثنين يستدل على مستكنّه بسهولة ، وتحتاج إلى شحذ ذهنك ، لمعرفة أسباب قولهم هذا ؛ والضّبّ تعرفه ، وسبق أن رأيته ، أما الورل ، فرغم أنه سبق أن مرّ بك ذكره ، فتحتاج إلى البحث عن صورته في أحد الكتب ، أو

محنطًا في أحد المتاحف لتعرف شكله جيداً .

ويقولون ، يا بنيّ ، في المثل : «إن الجواد قد يعثر» وهذا يحدث فعلاً ، وقد تكون عثرته لها ثمن عال ، وغال ، بل لابد أن يعثر الجواد ، ولو عثرة واحدة ، حتى يصح المثل الذي يقول : «لكل جواد كبوة» . وفيها تلميح مليح ، يا بنيّ ، في أنه لا يخطئ إلا من يعمل ، مثلما أنه لا يقع إلا من يمشي ؛ وهذا خلاف الفلسفة التي يقال إن الانجليز ينصحون بها وهي أنه : إذا أمكنك أن تمشي فلا تجْرِ ، وإذا أمكنك أن تقف فلا تمش ، وإذا أمكنك أن تجلس فلا تقف ، وإذا أمكنك أن تضطجع فلا تجلس ؛ وهذا يذكرك بالبيتين اللذين سبق أن سقتهما لك عن الكسل[1] ؛ وأظنك تذكرهما جيدا ، وكنت تنساهما لو كانا عن النشاط .

وأختم الأمثال الفصيحة بهذا المثل : «الخيل تجري على مساويها» : أي مهما كان فيها من عيوب فهي تجري ، ولعل فيها شيء من المعنى الذي رمى إليه

(١) انظر ما سبق ، ص : ١٤٦ .

المثل الانجليزي الذي يقول: «في كل سحابة سوداء بطانة بيضاء». والميزات لا تقضي عليها العيوب، إلا إذا رجحت عليها، وأصبحت تلك، وما فيها من عناء، ليست شيئاً بجانب هذه، وما فيها من مكسب.

والآن دعنا نجوس خلال الذاكرة، فقد يكون فيها شيء من الأمثال عن الخيل باللغة الدارجة، ولو كنتَ، يا بنيّ، في زمن مضى لعرفت أحد التعبيرات التي يغرم بها الصغار من الشباب، عندما يدخلون معارك اللعب بينهم وبين بعضهم بعضًا، يقول أحدهم وهو يهجم: «خيّال الخيل وأنا أخو من طاع الله». أما الأمثال المتواترة على الألسن عن الخيل فأحدها: «الخيل تضمّر لأجل ساعة» وهو مثل لا يحتاج إلى شرح، وهو مثل صادق يصف كثيراً من مظاهر الحياة المكلفة، والتي لا يُعرف متى تأتي بالمردود، الذي يقابل ما صرف عليها. ولعل مَن قالها اختار الخيل، لأن الصرف عليها، وإطعامها،



ووزن ذلك، ودقته، يتناسب مع صعوده مع قصر الساعة التي قد يُحتاج إليها فيها، لكنها قد ترد هولاً يُغطِّي على كل عبء تُحُمِّل من أجلها، أو تعب بُذِل تجاهها.

ومثل آخر: «الخيل خشر إلى قلّ النّصي» وهو مثل يعبر تعبيرًا دقيقاً عن الحاجة التي تضطر المرء إلى المشاركة في أمر لولا الحاجة لما فُكّر في المشاركة فيه؛ والنّصي نبت ترعاه الدواب في وقت تقل فيه الأعشاب التي يمكن أن ترعاها الدواب، فهو يمثل قلة توفر الشيء خير تمثيل. وقد لا يكون معه إلا «الصّبط» و «الصّمعاء»، وهذه أقرب إلى شعف رقاب الخيل، بجمالها وحركتها، و «خشر» أي مشاركة.

وآخر مثلين أسوقهما، وأرجو أن لا تكون قد مللت، هو قولهم: ما يعرف للخيل إلا رَكّابها، أو «خَلِّ الخيل لرَكَّابها»، ركوب الخيل يحتاج إلى تدريب، ومعرفة جيدة بالركوب، والثاني: «ما كل من ركب

فرسا خيّال»، وهذا حق.

هذه هي الخيل، يا بنيّ، زينة وثروة، ومركبًا عزيزًا، وأنت لابد أنك الآن تقارنها في ذهنك بالدبّاب: «البَقِي»، صنع اليابان، بعجلاته الثلاث، أو الأربع، وبضجيجه الذي يصمّ الآذان، ويقلق الجيران؛ وبمزاجه الذي يلازمه في أول أمره، وأثناء جدّته، ويفارقه بعد مرور زمن قصير، فيفسد مزاجه، ويسوء طبعه، فلا تدبّ فيه الروح إلا بعد لأي، ولا يتحرّك إلا بعد عناء. طعامه غال، ورائحته كريهة، قطع غياره لا تنقطع حاجته منها ومُصْلِحه يزن وقته بالذّهب؛ هو أذى للآذان، وخراب للنجيل، والأنابيب، في الحدائق، أعان الله من دخل حديقة بيته؛ وأسارع لأختم هذا الفصل، حتى لا تبدأ في تعداد عيوب الاحتفاظ بالخيل في أحواش البيوت الحديثة، فأنت إن فعلت وجدت مرتعاً خصبًا.

أو دعني أشغلك بالتفكير في أمر يولجك في بحر



خضم من متابعة التفكير، ولكنه ممتع، وليس في السباحة فيه إجهاد، بل قد تجد في أعماقه، إذا أنت غصت، درراً وجواهر، وكنوزاً ثمينة. هل فكرت، يا بنيّ، لماذا سميت الخيل خيلاً، طبعاً الكتب التي تكلّمت عن الخيل عرضا، أو قصدا، ذكرت بعض التخمينات، ولكني أريدك أن تحاول أن تستشف شيئاً من مظهر الكلمة يعطي معناها. تعرف، يا بنيّ، الخيلاء وهي تحتوي على حروف كلمة «خيل» وبالترتيب نفسه، ولاشك أن من ينظر إلى الخيل في جمالها وزينتها، وحركتها يتذكر الخيلاء، فهذا احتمال في سبب تسميتها بالخيل وقد فتحت لك الطريق.

وقد تفكر بالطريقة نفسها في أسباب تسمية الحصان حصاناً، أليس هو حصن العربي، إذا امتطى صهوته؟ ألم يُقَل ذلك صراحة؟ ولكن هل الحصان أخذ اسمه من الحصن، لمناعته، وتحصينه، أو أن الحصن استعار اسمه من الحصان، لأنه قبله، ولأن مخلوقات الله أقدم من منشآت البشر؛ أو ترى أن تطور اللغة، واختلاف

اللغات، لا يسمح بذلك؛ ألم أقل لك أنها لجّة لا يخرج منها إلا السابح الماهر.

الفرس كلمة فيها مجال للتعليل على هذا النمط، وبهذا النسق، ألا يفترس الصيد بها، ألا يفرس الإنسان طريقه في الحرب إذا امتطى ظهرها، وهَمَزها، وسبحت بين الصفوف.

الدخول، يا بنيّ، في تأويل الأسماء، وتعليلها، أحياناً، يوصل إلى نتيجة معقولة، وأحياناً تكون مبتسرة، ومستكرهة، فلا يكون لها طعم لذيذ، وتبقى ثقيلة على النفس ثقل الوجبة الدسمة في هذا العصر الحديث؛ لعلكّ تذكر حديثنا في أحد الأيام عن إحدى الحاجات المستعملة في العصر القديم، وهي «المِحْدَرَة»، وهي أخت «الزّنبيل» أو «الزّبيل»، لمّا بحثنا عن أسباب تسميتها وجدنا أن الباب المحتمل للتسمية ضيّق، وإن كان مقبولاً، فهي قد تُحدَر، أي تنزّل، بحبل من أعلى البناء، أو إلى البئر، أو من النّخلة.



وهيّء نفسك لأذكرك بشيء أغرب، تحدّثنا عنه، وهو «المِطْحَن» والكلمة توحي بالطّحن، والدقيق، والحب، وهي أمور أبعد من أن يستعمل لها «المطحن»، وإن كان غير مستحيل أن يستعمل لها؛ «والمطحن»، كما تعرف، هو الوعاء من الخوص توضع فيه «طاسة الخَرَاف»، للصعود إلى النّخلة، لجني التّمر؛ والأَولى أن يسمى «المخرف»، أو «المجنَى» أو «المِقْطَف»، ولكن لأن أولئك الناس كانوا يتكلمون بالسليقة، والذي يتكلم بالسليقة قريب من المنطق، فلابدّ أن المطحن كان يستعمل للطحين، أو الدقيق، وأنه كان يبطّن بجلد، لئلا يضيع الدقيق بين مسامّه.

والزبدية، يا بنيّ، أكبر من أن يتصور أنها مهيأة للزبدة، ومع هذا فمهما كددت ذهنك، فلا تجد أن هناك تعليلاً يقبل غير هذا؛ ثم لماذا سميت السفرة سفرة، هل لها دخل بالسفر؟ ارجع إلى القاموس، فقد يكون هناك تعليل لم نعرفه.

وليس من المناسب، يا بنيّ، أن نختم حديثنا عن الخيل بحديث عن الزبدية، ولهذا سنعود إلى الخيل مرة أخرى، وندخل في عمق الترّاث، ليكون ختامنا لهذا الحديث متماشيا مع ما قضيناه من وقت، ليس بالقصير، مع الخيل، في كل مجال يخصّها. إنّ ما سأقوله عنها الآن شيء أحببتَه في سنّ سابقة، وتعلقتَ به كثيرا، وردّدتَه، ووجدتَه ممتعاً، ثم «زلّت الطّفّة»[1]، ولم يعد يشدّك أو يهمّك، الآن. وقبل أن أكشف عما أقصده، هل تتصور أنه يمكنك إدخال الخيل معك في الفراش، واللعب عليها وإعلافها، كان ذلك ممكنا وأنت صغير، فخيالك حينئذ أكثر جموحاً، لم يسلسل بالعقل، ولم يربط أو يقيّد بالحِجى.

ما أقصده هو الجملة التي تعلمتم ترديدها، ولم تكونوا تصلون فيها إلى نهاية، ويغلبكم النّوم، وأنتم لا تزالون تبحثون عن عشاء للحصان؛ كانت

(١) أي «زالت الرغبة»، وطف بالشيء عامية تعني أقبل عليه، وانقطع له، وتعلق به.



الجملة يقولها أحدكم:

«حصاني سَيسِباني تَوّه جاي من عماني وِشْ تعشّيه؟».

فيرد عليكم راد كبير أو صغير، قائلا: «أعشيه شعير».

فتردّون: «شَعَّرك الذي لا ينتشعّر مثلما شعّرت حصاني سيسباني، توهّ جاي من عِمانِ، وش تعشّيه؟».

ثم يأتي الرّد: «أعشّيه قَت».

فيأتي الطلب: «قتتك الذي لا ينتقتت مثل ما قتت حصاني سيسباني توهّ جاي من عماني وش تعشّيه؟».

ثم بعد أن ينتهي ما هو معروف من أكل الحيوانات، وصاحب الحصان يظهر قدرته على صيغة الكلمة على القالب، الذي ارتضاه، ليسير مع نغمة الجملة، ومدرجها، تبحثون عن شيء حولكم غير علف الحيوانات، فيكون أقرب شيء الفِراش الذي أنتم عليه، تهبونه عشاءًا للحصان، فيرد عليكم صاحبه:

«فرّشك الذي لا ينتفرش مثل ما فرشت حصاني سيسباني، توهّ جاي من عماني، وش تعيشيه؟».

ثم تستوعبون كل ما ترونه من أثاث ورياش ومبانٍ، والأيام تنقضي، والحصان لا يشبع، ثم يبدأ الهزل عندما تبدؤون تلقون للحصان الأشخاص، فتقولون:

«أعشيه إبراهيم» مثلاً، فيقول برهمك الذي لا ينتبرهم مثل ما برهمت حصاني سيسباني، توّه جاي من عماني وش تعشّيه؟».

ثم تبدأ مرحلة أبعد من الهزل والاستهزاء، وتعشّونه صفيراً تخرجونه من فمكم، أو نفساً من أنفكم، أو حتى حركة من رأسكم، ولا يعدم ذاك أن يجد الصياغة في قالبه.

والغالب أنكم تنامون، وتنيمون، بتثاؤبكم من معكم، ويستريح الحصان، ويسلم المدّخر من المؤونة، التي استُنزِفت، إلا ما لم يذكر منها.

وهذا، يا بنيّ، هو الختام الذي أردت أن أختم به، وهذا قسطي من الأمر، أما أنت فاختم الاستماع



بالتفكير في هذه المحاورة، والمقدرة على تكوينها، ولماذا تركّزت على الحصان، فقد يكون السبب أن هذا من وحي البيئة التي كان الحصان هو زينتها، وظرفها كان ظرف حرب وقتال، خير أدواته الحصان. أما لماذا جاء الحصان من عمان، ولماذا هو سيسباني، فهو ما عليك أن تفكّر فيه، وأنت في سبيلك إلى النّوم فإن لم تجد التعليل الصحيح في اليقظة، فقد تجده في النوم، حلماً مؤنساً.

وإن أردت أن تؤنس هذه القصة بقصة من التراث، البعيد نوعاً ما، وأن تؤنس الحصان بالحمام، وإن تبدل عمان بواسط، فتعال نستمع إلى الجاحظ في كتابه «الحيوان» (جـ٣، ص: ٢٩٤):

«وأما أبو أحمد التمَّار، المتكلم، فإنه شاهد صاحب حمَام، في يوم مجيء حمامه من واسط، وكانت واسط، يومئذ، الغاية، (منتهى مضمار السباق)؛ فرآه كلما أقبل طائرٌ من حمامه نعر (صرخ)، ورقص، فقال له:

والله إني لأرى منك عجبًا، أراك تفرح بأن جاءك حمام من واسط، وهو ذلك الذي كان، وهو الذي جاء، وهو الذي اهتدى، وأنت لم تجئ، ولم تهتد، وحين جاء من واسط لم يجئ معه بشيء من خبر أبي حمزة، ولا بشيء من مقاريض واسط، وبزبون (السندس)؛ ولا جاء معه، أيضاً، بشيء من خطميٍّ (نبَت يشبه الورد)، ولا بشيء من جوز، ولا بشيء من زبيب[1] . وقد مرّ بكسكر، فأين كان عن جداء كسكر، ودجاج كسكر، وسمك كسكر، وصحناهُ (إدام من سمك صغار)، ورُبيثاء (سمك صغار) كسكر. وذهب صحيحًا نشيطاً، ورجع مريضًا كسلان، وقد غرمتَ ما غرمت، فقل لي ما وجه فرحك؟

فقال: فرحي أني أرجو أن أبيعه بخمسين دينارًا.

قال: ومن يشتريه منك بخمسين دينارًا؟

قال: فلان، وفلان.

---

(١) أي بالعامي: «لم يأت برأس كليب» فلم الرقص والفرح والزعيق.



فقام، ومضى إلى فلان، فقال:

زعم فلان أنك تشتري منه حماما، جاء من واسط، بخمسين دينارًا؟

قال: صدق.

قال: فقل لي، لم تشتريه بخمسين دينارًا؟

قال: لأنه جاء من واسط.

قال: فإذا جاء من واسط، فلم تشتريه بخمسين دينارًا؟.

قال: لأني أبيع الفرخ منه بثلاثة دنانير، والبيضة بدينارين.

قال: ومن يشتري منك؟

قال: مثل فلان، وفلان.

فأخذ نعله، ومضى إلى فلان.

فقال: زعم فلان أنك تشتري منه فرخاً من طائر جاء من واسط بثلاثة دنانير، والبيضة بدينارين.

قال: صدق.

قال: فقل لي، لِمَ تشتري فرخه بثلاثة دنانير؟



قال : لأن أباه جاء من واسط .

قال : ولم تشتريه بثلاثة دنانير إذا جاء أبوه من واسط؟

قال : لأني أرجو أن يجيء من واسط .

قال : وإذا جاء من واسط ، فأيّ شيء يكون؟

قال : يكون أن أبيعه بخمسين دينارًا .

قال : ومن يشتريه منك بخمسين دينارًا؟

قال : فلان .

فتركه ، ومضى إلى فلان ، فقال : زعم فلان أن فرخاً من فراخه ، إذا جاء أبوه من واسط ، اشتريتَه أنت منه بخمسين دينارًا .

قال : صدق .

قال : ولم تشتريه بخمسين دينارًا؟

قال : فأعاد عليه مثل الأول .

فقال : لا رزق الله من يشتري حماما جاء من واسط بخمسين دينارًا ، ولا رزق الله إلا من لا يشتريه بقليل ، ولا بكثير» .



لقد ضاق صدر أبي أحمد التمار، وخرج من ثيابه حنقًا، وأنهى هذا الفصل الممتع، ونرجو ألا يكون الجاحظ قد اخترع هذه القصة، وهي (عند لحيته كما يقول العامة) أي أن هذه عادته، فإذا طرأت له فكرة طريفة، ركبها على أحد، فإذا لم يجد أحداً ركبها على نفسه.

على أي حال نحن، يا بنيّ، أبرد أعصاباً من أبي أحمد التمار، أو أبرد مما تصوره الجاحظ، فنحن لم ندعُ على الحصان بالموت، ولم ندع على من أعلفه بقطع رزقه، ولكنّ هناك فروقاً بيننا وبينه، أحدها أننا نريد الإطالة، حتى نضمن النوم، والثاني أننا مجهدون، فليس لدينا القوة أن ندعو على أحد.

إذا كان مثل هذه القصص يعجبك، فيمكن أن نسوق قصة ثالثة، حتى تكتمل أثافي القدر، لأنه لا يجلس إلا على ثلاث، وسوف نختار القصة، هذه المرة، من الغرب، ولن يكون بطلها حصانًا، ولا حمامة،

ولكن كلباً، وهذا يتوقع من قصة عنهم، لشغفهم بالكلاب، وملخص القصة كمايلي:

«كان عند رجل كلب، وكان يطعمه، ويسقيه، وهيأ له مكانا لألعابه، واضطر إلى سفر مفاجئ، فسافر، وانشغل بالعمل، ونسي أن يوصي أحدًا، ليعتني بكلبه؛ ولما عاد وجد الكلب قد مات، فحفر له قبرًا، لائقاً به، وأضجعه فيه، ووضع فوق القبر لوحة، كتب عليها:

هذا قبر كلبي، الذي سافرت؛ ونسيت أن أوصي بتفقده، والعناية به، فمات في غرفته المقفلة، جوعاً، وعطشاً، فحفرت له هذا القبر، ووضعت هذه اللوحة، وكتبت عليها:

«هذا قبر كلبي، الذي سافرت، ونسيت أن أوصي بتفقده، والعناية به، فمات، في غرفته المقفلة، جوعاً، وعطشاً، فحفرت له هذا القبر، ووضعت هذه اللوحة عليه، وكتبت عليها:».



«هذا قبر كلبي، الذي سافرت، ونسيت أن أوصي بتفقده، والعناية به، فمات، في غرفته المقفلة، جوعًا، وعطشًا، فحفرت له هذا القبر، ووضعت هذه اللوحة عليه، وكتبت عليها» :

«هذا قبر كلبي، الذي سافرت، ونسيت أن أوصي بتفقده، والعناية به، فمات، في غرفته المقفلة، جوعًا، وعطشًا، فحفرت له هذا القبر، ووضعت هذه اللوحة عليه، وكتبت عليها» :

هذا قبر كلبي، الذي سافرت، ونسيت أن أوصي بتفقده، والعناية به، فمات، في غرفته المقفلة، جوعًا، وعطشًا، فحفرت له هذا القبر، ووضعت هذه اللوحة عليه، وكتبت عليها» :

وهكذا، يا بنيّ، تبقى القصة بلا نهاية، ولو سمعها أحد أهلنا لقال: «موتة كلب بساجور»، وهي ميتة تشبه هذه الميتة، ولكن قصتها قصيرة، كلب وضع في حلقهِ سلسلة، وترك حتى مات.

الأعيــاد

أي بُنَيّ!

اخترت لك اليوم الحديث عن الأعياد، فأنت لا تتصورها في القديم، وكيف كان الناس يستقبلونها، ويحتفلون بها؛ لم يكن في السّنة إلا عيدان، عيد الفطر، وعيد الأضحى.

وعيد الفطر، عند الأطفال، مفرح مبهج، لأنه يعني نهاية الصّيام، الذي فيه الجوع والعطش، وعيد الأضحى كذلك مفرح، لأن فيه الأضاحي، والأضاحي، عند الأطفال، تعني «الخَلْع» (قطع شحم مختلط باللحم)، وتعني مصير أبو قاعه (القولون في الخروف)، هذا للأكل، وهذا «بالون» للّعب، وقبل العيد بيوم أو يومين يعني العيد اللعب على الخرفان، بالركوب عليها. وبعضهم يعتقد أن الخروف هو الذي سوف يركبه الناس، خرافة، يوم القيامة، فإذا لم يكن الخروف عاليًا فإنّ جدّهم، الذي الخروف

أضحية له، سوف «تسحب» أقدامه على الأرض، فلا يستريح في الركوب.

والخراف، يا بنيّ، سلوة للطفل، ليس فقط أيام الأضاحي، لا، بل حتى في غيرها، إذا سنحت الفرصة، وهي تعني أشياء كثيرة بالنسبة لهم، لأنهم عندما يرونها يتذكرون القصص التي تقصّها عليهم أمهاتهم في اللّيل عنها. وإحدى هذه القصص مضحكة حقًا.

يقال إن هناك اثنين من العبيد الرعاة، وكانا ساذجين، أخذا أغنام «أسيادهما» إلى المرعى، وصادف أن تأخرا في العودة من المرعى إلى حيث يقيم سادتهما. وكان قد بلغ منهما التعب مبلغه، وبلغ من الأغنام أيضًا الجهد والعناء مبلغه، فجلسا يستريحان، فربضت الأغنام، وأخذت تجترّ، ومن التعب أخذت تئنّ، كما هي عادة الأغنام؛ وكانا قد أوقدا نارًا، صار لهبها الراقص يلمع في أعين الأغنام الرابضة؛ فاخافتهما العيون، ولمعان النار فيها، وزاد من

خوفهما أنين الأغنام، فقال أحدهما للآخر:
«الأغنام تأتمر بنا».
فقال الثاني: «ما الحيلة؟».
فقال الأول: «نستعدّ ونهرب».

فوافق الثاني، فقاما فجأة، فقامت الأغنام، فركضا فركضت خلفهما الأغنام، كما هي عادتها في مثل هذه الحال، واستمر الفريقان يركضان، العبدان في المقدّمة، والأغنام خلفهما، حتى وصلوا جميعًا إلى مضارب باديتهم، وهما في آخر نَفَس لهما، والأغنام كذلك، وجزى الله الخوف خيرًا، فقد وصل الجميع بسرعة، وكان عملهما مدعاة للضّحك والسخرية، والتندّر، وصار ما فعلا، إن كانا حقًّا قد فعلاه، قصّة تُروى للأطفال.

وهذان الراعيان الساذجان، أو راعيان آخران مثلهما. صادا حبارتين، وأرادا أن يشوياهما، ولم يكن لديهما نار، وليس معهما زند يقدحانه، ولا كبريت يشعلان به حطباً. ورأيا رمادًا على أثر نار



كانت أوقدت، والرماد بارد، فقالا نشويهما في هذا الرماد، واعتبراه «ملّة»، فأخذ أحدهما يعجن الطير فيه، حتى وجد الطير فرصة وفرّ بعيداً عنهما، فركّزا على الحبارَى الثانية، وأخذ أحدهما يعركها في الرماد، وهي تصدر أصواتًا من الألَم، فيقول: «أحدهما»:

«قوقا الهبارى من النجا». أي «أن الحبارَى تصرخ من النضج».

فردّ الثاني قائلاً: «والذي هدر للشئيب أنجى وانجا». أي أن الذي طار إلى الشعيب أكثر نضجًا، وأنه ذهب هناك ليبرد.

ونقص الذكاء ليس وقفًا على أمة دون أمة، أو على جنس دون جنس، أو أنه في الذكور دون النساء، أو في النساء دون الرجال. وللأغبياء طرائف تُتناقل حاضرًا وماضيًا؛ لايزال كثير مما تميّز به بعض المعاصرين يدور على ألسنة الناس، وفي كتب التراث مما دُوّن عن الماضي حصيلة جيدة، لو رجعت، يا بنيّ، إلى كتاب «الحمقى والمغفلين»، أو كتاب «الأذكياء»،

لابن الجوزي، لرأيت عجبًا.

اسمعه يتكلم عن أحد الحمقى، وقد كسر لوزا، فطارت لوزة، فقال لا إلٰه إلا الله كل شيء يهرب من الموت حتى البهائم[1].

أيهما البهيمة في صغر عقله، اللوزة أم هذا الرجل؟

ونقص الذكاء، أحيانًا، يتبين جليًا واضحًا لدى الشخص الذي يكد ذهنا خاويا، ويقدح فكرًا أجذم، فهو يتعب نفسه ظنًّا منه أنه ذكي، ولكنّه قد لا يعدم الأجر على السرور الذي يحدثه غباؤه لدى السامعين، قال بعض القصّاص:

يا معشر الناس، إن الشيطان إذا سُمّي على الطعام والشراب لم يقربه، فكلوا خبز الأرز المالح ولا تُسمّوا، فيأكل معكم، ثم اشربوا الماء فسمّوا حتى تقتلوه عطشًا[2].

(١) كتاب الحمقى والمغفلين: ٥١.

(٢) كتاب الحمقى والمغفلين: ١٣٤.



زاده الله مما يسعد الناس .

وإذا كان الذكاء ، يا بنيّ ، له مسارب ، فكما رأيت . الحمق له مسارب في الذهن ، وله جوادّ يمشي فيها مسرعا ، أو متباطئا ، ما رأيك فيمن يتبرع باستعراض ذكائه .

قال رجل لرجل في يوم بارد :

أصب عليك جرة ماء ، وأعطيك درهما !

فتلكأ المُخاطَب ، فقال آخر ، كان حاضرًا : افعل ذلك عليّ ، والدرهم بيني وبينك[1] .

وأكتفي بهذا عما في كتب التراث ، وإذا أردت المزيد فعليك أن تتعب قليلاً ، وتشتري هذين الكتابين ، وأمثالهما ، واطلع على ما فيهما مما ورد في هذا الباب ، ففي قصصهما ما يكون مسلِّياً ، وفيه ما تكون فيه العظة[2] .

---

(١) كتاب الحمقى والمغفلين : ١٥١ .

(٢) الكتابان هما : كتاب الحمقى والمغفلين ، وكتاب الأذكياء .

ودعنا الآن نعود للعيد، ونرى ما كان الشباب يفعلونه فيه.

كان الأطفال والشباب، يا بنيّ، ليلة العيد «يتساوقون» أي كل واحد منهم يأتي بشيء، أو يشترون شيئًا: «حمبص» و «حب قرع» أو «حب جح»، أو «حب جراوة» أي «فصفص» وقد يكون أيضاً هناك كليجا (بسكوت وطني)، ويسهرون ليلة العيد؛ وقد يجتمعون في أسفل المنارة في مسجد الحيّ، طلبًا للدفء في الشتاء. وقبل الصباح، وبعد صلاة الفجر، يذهبون إلى بيوتهم، ليلبسوا ثياب العيد؛ والناس في ذلك الوقت، يا بنيّ، حالهم رقيقة، قد لا يفصّل أحدهم ثوبًا إلا للعيد، ويعني هذا أن الواحد يفصّل ثوبًا في عيد الفطر، وآخر في عيد الأضحى، يلبس أحدهم الثوب، ويغسل الثاني؛ وفي نجد لم يكونوا يعرفون كيّ الملابس، ومثلما سبق أن تحدثنا كان الأغلب يغسلون الثياب بالإشنان.



يذهب الرّجال والشّباب إلى مصلّى العيد، ومصلّى العيد كان دائمًا خارج المدينة أو القرية. وبعد الصلاة يسلّم الناس بعضهم على بعض، ويُهنّئ بعضهم بعضاً. ومن هنّأ شخصًا في المصلّى اكتفَى بذلك، فلا يذهب إليه في بيته؛ ويتفرّغ الناس بعدها لأكل العيد؛ وكان الناس في نجد يجرون على عادة جميلة، يُخرج كل بيت عيده، وهو عبارة عن أكل يختاره من بين عدد محدود من الأكلات: إما «مطازيز» أو «مرقوق» أو «قرصان» أو «جريش»، أو جريش وفوقه قرصان، ثم يجتمع أهل كل شارع صفّاً في وسطه، وقد صُفَّت الأعياد، فيأكلون مجتمعين، ويحرص كل واحد أن «يتذوّق العِيَده» أي يمرّ على كل وعاء، ويأخذ منه قليلاً. ويجتمع الرجال، والشباب، والصغار. وهي فرصة للناس أن يلتقوا، ويتوادّوا، ويتحابّوا، ويزيلوا ما قد يكون حدث بينهم، أثناء العام، من سوء تفاهم؛ ثم يبدؤون ينفضّون، ويذهب الرجال إلى بعض البيوت لتهنئة بعض الشيوخ، والعجائز،

ممن لم يروهم في المصلّى، أو ممن يعجز عن الذهاب إليه.

أما النساء والبنات فيتزيّنّ بعد صلاة الفجر، بعد أن يعددن الطعام؛ وقبل أن يعود الرجال من المصلّى، يخرجن إلى الشوارع ويرقصن «يَحنِدن» بحرّيّة تامة، لأن الرجال كلّهم في مصلّى العيد، ثم عندما يشعرن بعودة الرجال يفرنقعن إلى بيوتهن؛ وأحيانا يفاجئهن بعض الشباب، ويخجلونهن بقولهم: «حِبَّة العيد ما بَهْ منّة»، ولكن هيهات هنّ أسرع منهم على الاختفاء، وقفل الأبواب، ولا ينال الشباب إلاّ خيبة الأمل.

وأغلب النّاس يبقى بثياب العيد؛ والعيد في نجد كان يوماً واحداً، يعود الناس في اليوم التالي إلى أعمالهم، وبعضهم يبدأ صيام السّتّ من شوال. وبعضهم لا يبقى عليه ثوب العيد إلا إلى الظّهر، خاصّة إذا كان فلاّحا، فإنه يعود إلى «فلاحته» ويخلع ثوب العيد، ويلبس ثوب العمل.

وتحدث في العيد أحيانا طرائف لا تخطر بالبال، تتخلل بهجة العيد كما يتخلل «المخلّل» حلاوة الطعام:

ألبست امرأة فقيرة ابنها وابنتها ثيابهما الجديدة يوم العيد، وعمّتهما بهذا الفرحة، ولعلها أوحت لهما بآمال وأماني، فرأيا أمّهما وقد ذهبت خارج البيت، وأحضرت بقِدْر معها ماء، ثم توضّأت لصلاة الظهر، وهما جالسان. ورغم صغرهما إلا أنهما أدركا حاجة أمهما إلى الرّاحة، والتمتّع بالعيد، فقال الابن لاخته، وأمّهما قد دخلت الآن في الصلاة:

عندما أكبر سوف أحفر بئرا في البيت، وأكفي أمّي عناء الذهاب لجلب الماء، وسأطوي البئر بالحصى، وسأجلب دلوا ورشاءا.

فقالت أخته: عند ذلك أبدأ أنا «زْعِبّ زْعِبّ» مشيرة إلى أنها سوف تمتح الماء لأمّها.

ويبدو أن الصغير يريد الفضل كله له، ولا يريد أن تنازعه أخته إياه، أو تشاركه، فيه. فقال لها:

ثم تقطعين الرشاء، وتفسدين الدّلو .

قالت : وإن كان، إنّه لم يوضع إلا لهذا .

فزادت حدّة النّقاش .

وقال لها : والله إن فعلت لأجعلنّك عجينة .

فقالت : أنت أقل من ذلك .

ودلعت له لسانها إمعانًا في التحدّي؛ فامتدت يده إلى شعرها، وامتدت يدها إلى وجهه، وبدأ عراك اضطرت أمهما إلى قطع صَلاَتِها من أجله، ولو لم تقطعها لما عقلتها، وتدخّلت بين المتعاركين، وذكّرتهما أنهما استعجلا بالعمل قبل وجود أداته، وبالشّرّ قبل حلول الخير .

وبعد : لن نخلف العادة، يا بنيّ، فسوف نروي بعد هذه القصّة الحديثة قصّة أخرى من التراث، تسير على نمطها، ولكن لا ندري هل حدثت مثل هذه يوم العيد أو في يوم آخر، ولكنّها حصلت في البيد، وليس بين العيد والبيد اختلاف، كما ترى، إلا في حرف واحد!

قعد طائي وطائية (ينتسبان إلى طيء) في الشمس، فقالت له امرأته:

والله لئن ترحّل الحي غداً لاتبعنّ قماشهم، وأصوافهم، ثم لأنفشنّه، ولأغسلنّه، ولأغزلنّه، ثم لأبعثنّه إلى بعض الأمصار، فيباع، فأشتري بثمنه بكرًا، فارتحل عليه مع الحي إذا ترحلوا.

قال: الزوج: أفتراك الآن تاركتي وابني بالعراء؟

قالت: أي والله.

قال: كلا والله.

وما زال الكلام بينهما حتى قام يضربها، فأقبلت أمّها. فقالت:

ما شأنكم، وصرخت: يا آل فلان! أفتضرب ابنتي على كدّ يديها، ورزق رزقها الله؟

فاجتمع الحي، فقالوا: ما شأنكم؟

فأخبروهم الخبر. فقالوا: ويلكم، القوم لم يرحلوا، وقد تعجّلتم الخصومة[1].

(١) كتاب أخبار الحمقى والمغفلين: ١١٤.

والقصّة المؤلمة حقًا، يا بنيّ، هي ما كاد يحدث من كارثة في صباح أحد أيام عيد الأضحى، في أحد البيوت الهادئة:

اختلّ عقل صاحب البيت، وكان معروفًا بالرّزانة، والهدوء، إلا أن العقل جوهرة، يمكن أن تعطب من سبب طفيف، وقال النّاس إن فلانا «طار من رأسه وشرة»: أي قطعة، وهو تعبير عامي، يعبر به أدبًا عن الجنون؛ ولم يكن الرجل يؤذي الناس، أو يعترض سبيلهم، إلا أنه يأتي منه ما يدلّ على أنه لم يعد مأمونًا مثل السابق؛ وغالبًا ما يتطور الأمر، في مثل هذه الحال، إلى ما يوجب الحذر، لأن المفاجآت محتملة، وحجمها، وضررها، لا يعلمه إلا الله.

لعل أمور العيد، لفقره، كانت تشغل ذهنه، وكان يفكر بوالديه ـ رحمهما الله ورحمه ـ وكيف سيمرّ العيد دون أن يجد ما يضحّي به لهما، وأوصله تفكيره إلى أن زوجته تصلح أضحية لوالديه، ووالديها،

فقررّ أن يضحي بها في اليوم التّالي. فسنّ السكين وأحدّها، ولما جاءت اللحظة المرتقبة، وفاجأ المرأة واضجعها، وقبّلها القِبلة، وسمّى وكبرّ، وجد أن أذنها «مشرومة» مشقوقة، نتيجة لحادث حدث لها في الصغر، شرم قرطها أذنَها بسببه. فأحجم الزوج عن التذكية وحسبل، وحوقل، وقال:

لا بارك الله فيك، إذنك مشرومة، والنعجة ذات الاذن المشرومة لا تضحّي. قومي، لا بارك الله فيك، حتى للذّبح لا تصلحين!

ولننتقل من هذا المنظر الذي انتهى إلى خير، إلى أيام عيد الأضحى المبهجة.

أما عيد الأضحى فذبح الأضاحي أحيانا يستمِرُّ إلى اليوم الثالث، إذا كانت الأضاحي كثيرة، وهو العيد الأكبر عند الأطفال. والعيدان فيهما للأطفال «الحَقَاق»، وهو هديّة العيد، وكانت في تلك الأيام لا تعدو أن تكون «حمبص» و «ملبس» أو «معمول»

أو «كلِيجا» أو «علوك ملوك» ، وكانت شيئًا عظيمًا عند الطفل في تلك الأيام، لأنه لا يرى الحلوى، والملبّس، إلا في العيد.

وعيد الأضحى أيضًا عيد عظيم عند الكبار ، لأنه اليوم الذي يأكل فيه كل إنسان لحمًا ، فاللحم في ذلك الزمن لا يعرف إلا في العيد ، والموسر يعرفه في الأيام الأخرى ، إذا كان عنده لحم مجفّف ، أو في مناسبة من المناسبات كالدعوات ، أو «العُرُوس» الأعراس ، أو الختان ، أما بقية الأيام فنادرًا ما يشتري المرء لحمًا . وقد «يشرك» الشخص أي يشتري «السقط» ، وخوفًا من العين يحتال بشتى الحيل حتى لا يراه أحد ، فأحيانًا يُدخل ما يشتريه تحت «عباءته» ، أو تحت ثوبه . وكأنه لا يدري أن هذا أدعى للفت النظر .

هناك قصة ، يا بنيّ ، حدثت فعلاً ، وهي قصة فيها «مقلب» ، وهي سوف تعجبك ، لأن فيها العنصر



الأول وهو التسلية، والعنصر الثاني وهو الخبث أو الأذى، وهو ما يعجبك وزملاؤك أكثر:

رأى رجلان، عرفا «بالمقالب»، ثالثًا وقد اشترى لحمًا، ودسّه تحت عباءته، وأوصله إلى بيته، وعاد وجلس عند صاحب دكّان صديقٍ له، وكان الرجلان الهازلان يجلسان في دكانين محيطين بالدكان الذي جلس فيه الرجل، فأخذا يتجاذبان الحديث، وهو يسمع، فقال أحدهما للآخر:

«هل سمعت بما جرى لفلان القصّاب؟».

فقال الثاني: «لا».

فقال الأول: «إن رجالٍ الأمير جاؤا اليوم وأخذوه، وسجنوه، واليوم عصرا سوف (يرطب): يجلد أمام المسجد الجامع».

قال الثاني: «لماذا؟».

قال الأول: «لأنهم اكتشفوا أن اللّحم الذي كان يبيعه لحم حمير».

قال الثاني: وكيف اكتشفوا؟».

قال الأول: وجدوا رأس أحد الحمير عنده اليوم، بعد أن وُشي به» .

فلما سمع الذي اشترى اللحم هذا الحديث، انسلّ بهدوء، وذهب إلى أهله، وطلب منهم أن يلقوا بما في القدر من اللحم خارجًا، وأن يغسلوا القدر، والسكين جيدًا .

وحَرص هذا الرجل الذي «شرب المقلب» على أن يصلي العصر في الجامع، ليشهد تأديب هذا المجرم، الذي كان يبيع على النّاس لحم الحمير؛ وبعد الصلاة خرج ليرى الرجل يجلد، ولكنه لم يرَ أثرًا لذلك، ولم ير الناس مجتمعين كالعادة عندما يكون هناك تعزير، أو تأديب، لأحد، ورأى الأمير كالعادة، وحوله رجاله، جالسًا على «الحبس» (مقعد الطين)، بجانب باب الجامع، يصرّف الأمور كالمعتاد؛ فسأل من يثق به عن «الذيخ» (ذكر الذئاب وقد يطلق على ذكر الكلاب)، الذي كان يبيع لحم الحمير، فلم يجد أن أحدًا يعرف عن ذلك شيئًا، ثم اكتشف اللعبة،



وكانت مشكلة أثارت حولها زوبعة، فأناس صاروا معه، وآخرون غلّبوا جانب الضحك والتسلية.

والناس في ذلك الزمن، يا بنيّ، أمورهم مبسطة، لا تعقيد فيها، يُسهّل أمرَ اجتماعهم تقارب منازلهم، ومستويات حياتهم، فمثل هذه المداعبات تنتشر بينهم، وتملأ فراغ وقتهم، وتجعل للحياة عندهم قيمة؛ هناك من بينهم مُلاّك، يعتمدون في معيشتهم على ما تغلّه بيوت يؤجرونها، أو مزارع «يقضبونها»، بمعنى آخر يؤجرونها، والشرط بين المستأجر والمؤجر إمّا النِصّف أو الرّبع للغلّة تمراً أو حبًّا؛ ويبقى الملاّك لا عمل لهم يشغلهم، يدويًا، أو ذهنيًّا، غير هذا، فتجدهم يفتحون دكاكين هي لتزجية الوقت والاجتماع أقرب منها للبيع والشراء، يفتحونها في الصباح إلى ما قبل الظهيرة حين يقفلونها، ويذهبون للهجور: (وجبة خفيفة)، وبعضهم يسميه غداء، وهؤلاء غالبًا ما تكون هذه الوجبة عندهم من التّمر، واللبن، وخبز التنّور، والزبدة، ينامون بعدها إلى أن «يكسر

الفيّ»، وتزول الشمس، ويؤذّن المؤذّن لصلاة الظهر، فيصلّون ويذهبون إلى «القهاوي» في البيوت، ويصيرون بين داع ومدعو، إلى أن يؤذّن المؤذن لصلاة العصر، فيذهبون إلى الصلاة. وقبل أن استمر في إعطائك، يا بنيّ، برنامجهم بعد العصر، أتوقف لأقص عليك قصة، أو قصتين، حسبما تجود به الذاكرة، وهاتان القصتان إحداهما تتصل بالوقت الذي بين «الصلاتين»، الظهر والعصر، وتعطيك فكرة عما يجري بينهما، من نشاط يجلبه تلامس الموجبات والسلبيات في الالتقاء بين الناس، وما يحدث من إنارة، وإشعاع، نتيجة هذا التلامس.

التقى رجل، من عائلة كريمة، مشهورة، كبيرة، عُرف بالكرم، والمرح، والخلق النبيل، مع شاب من عائلته، لم يره منذ مدّة، فسأله عن حاله، فقال:

«إنه بخير».

فسأله: «إن كان قد تزوج».

فقال له: إنه لم يتزوج لأنه فقير.



فقال له: «هل لك شروط صعبة جعلتك لم تتزوج؟».

قال: «لا»، إنما هو الفقر، وقلة ذات اليد، والناس لا يريدون إلا الغنيَّ، الذي يؤمّن معيشة ابنتهم، وأنا من عائلة لا ترضى أن تتزوج إلا من مستوى يتناسب مع مستواها.

فسأله إذا كان لا يمانع في الزواج من واحدة من العائلة، فأكّد له أن هذا مناه.

وكانا قد صليا الظهر معًا، فأمسكه من يده، ودعاه إلى تناول القهوة عنده. وسأله إن كان لا يمانع في أن يتزوج ابنته، فطار هذا فرحًا، وقال إن هذا شرف لا يطمح إليه، فأومأ الداعي بيده لإمام المسجد، وقال:

أرجو أن «تتقهوى» عندنا أنت وجارنا فلان.

و«لزّم»: وأكد على جار ثالث، واجتمعوا عنده في قهوته في البيت، وشربوا القهوة والشاي، ثم

التفت والد البنت، الداعي، وقال للإمام:

«إملك لابنتي فلانة على فلان»، وأشار إلى الشاب، وذكر مقدارًا من الصّداق، وقال لاثنين من الحاضرين في المجلس:

«إشهدا على هذا الزواج، والإملاك»، فأملك الإمام لهما، وشهد الشهود، وقام المؤذّن ليؤذّن لصلاة العصر، ثم تبعه الإمام، فأخذ والد البنت الشّاب، وصعد به إلى أعلى البيت، حيث الغرف، وحيث مقرّ النّساء، وصادف أنّ زوجته قد شرعت في صلاة العصر، فلما رأت زوجها والرجل الغريب، عَمَدت إلى خمارها لتضعه على وجهها، فضحك زوجها، وقال لها:

«لا تفعلي، هذا فلان، زوج ابنتك، قد أملكت لهما الآن».

وذهب يبحث في الغرف عن ابنته، حتى وجدها في إحدى الغرف، فقال لها:

«يا بنيّتي، هذا ابن عمّك فلان، قد أملكت له



عليك، بارك الله لكما وبكما، ووفّقكما».

ودفع بالشاب إلى الداخل، وأغلق الباب، وذهب ليتوضأ للصّلاة.

هل رأيت زواجًا، أو سمعت بما هو أبسط من هذا التصرف، كانوا ينظرون إلى هذه الأمور بهذا المنظار الجميل، ليس عندهم، يا بنيّ، أهمية للحفلات، وإذا صارت، فتصير في أبسط الصور، يعمدون فقط إلى الإشهار الشرعي، ويكتفون به، ولهذا لا يحملون همّا للزواج، ومصاريفه، وتكاليفه، وتعبه.

هذه كانت القصة الأولى عن هذا الرجل النبيل، رحمه الله، واسمع الثانية. كان للرجل نفسه صديق من علية القوم، وله مجلس في السُّوق مشهود، يجلس فيه معه من هو على شاكلته، من الوجهاء، وذوي السلطة، ومرّ صاحبنا يومًا، وطلب منه هذا الصديق خمسين «وقرا» من السماد لمزرعته، فرحّب، واشترط عليه شرطًا واحدًا، مقابل الاستجابة، ونَقْل السّماد.

فقال له :

«ما هو؟» قال له : «أربعون خبزة تَنّور من خبز والدتك» . وكانت والدة هذا خير من يخبز الخبز الجيد، ومشهورة بهذا . فوافق على هذا الشرط .

وقال له صاحب هذا الشرط :

«والشرط الثاني متّصل بالأول، وهو أني أريد هذا الخبز أجزاءاً، في أوقات متعدّدة، وليس دفعة واحدة» .

وقال الآخر : «قبلت هذا الشرط» .

فنُقل السماد من مزرعة هذا إلى مزرعة ذاك، وجاء وقت وفاء الدين، فصار المشترط ينتظر حتى يجتمع أصحاب صديقه عنده، بعد صلاة العصر في أبرز مكان في السّوق، ثم يمرّ بهم، وعن بعد، بصوت عال، يناديه :

«يا فلان مسيت بالخير، أرجو أن تخبز لنا الوالدة خمسًا من الخبز، ترسلها غدًا ضحى» .

فيلتفت الناس ويخجل صديقه، ويحوقل، ويحسبل، ولا حيلة له غير ذلك .



ووعد الصديق نفسه ألا يقع معه بعد ذلك في مثل هذه الوقعة، التي استمر صاحب السّماد يكررها، بين آن وآخر، حتى انتهى عدد الخبز المشترط؛ ولكنه في العام القادم احتاج إلى سماد، وليس هناك من عنده سماد «بالوفرة والكثرة»، التي عند صاحبه، وليس عند أحد هذا النوع من السّماد، فاحتال في الأمر، وطلب من صديق لهما ثالث أن يطلب من الصديق الأول عددًا من «نقلات» السماد، مدّعيًا أنها لخالته. ولكن صاحبنا صاحب المقالب أحسّ بأن الأمر ليس على وجهه، فقبل، ولكنه تبع الحمير، وهي تنقل السّماد، فتبيّن أن ظنّه في محله، وأن المطلوب من السماد ليس لخالة الرجل، وإنما لبستان صديقهما الذي أخذ السماد في العام الماضي، فأسرّها في نفسه، وانتهز فرصة اجتماع صاحبه بأصحابه من وجّهاء البلدة بعد صلاة العصر كالعادة، فمرّ من بعيد، وأومأ بالسّلام، ثم أردفه بقوله:

«يا خالة»، مشيرًا إلى أنه أُوهم أن السّماد لخالة



ذاك، وتبين أنه لهذا، فالمعادلة تقتضي أن هذا هو الخالة، فالتفت الناس متعجبين من قوله :

«مسيتِ بالخير يا خالتي العزيزة» .

ولم يعرفوا ما وراءها إلا اثنان من الجالسين : صاحب الشأن، وصاحبه المستعان به .

هذان «مقلبان» في قصّتين سقتهما لك تباعًا، راجيًا منهما أن تشبعا نهمك إلى القصص، وألا تعلماك المقالب، لأن أمرها ليس سهلاً، فهي تحتاج إلى استعداد فطري أولاً، وعلى تجربة دقيقة، حتى تكون مضحكة، لا مبكية، لأن بعض المزاح إذا لم يتقن انتفى منه الجانب المقصود وهو المرح، وقد يلج إلى حقل المآسي، دون قصد. والذين، يا بنيّ، جربوا المقالب يقولون إنها لا تنجح إذا افتعلت، ولكنها تنجح كل النجاح إذا سنحت الفرصة واستغلّت، أي أنهم لا يفوّتون مقلبًا يأتي ويقرع بابهم، ولكنّهم لا يذهبون يبحثون عنه. استمع لهذا المقلب :



كان يأتي لنجد طبيبان قبل أن ينتشر الوعي الصحي ، وتنشأ المستشفيات . وكانا يأتيان من إحدى المؤسسات الصحية في البحرين ، لما كان الإنجليز فيها ، أحدهما اسمه «ديم» والثاني «هريسون» . وفي إحدى جولات أحدهما ، وهو «ديم» ، بمدن نجد مرّ بسوق إحدى المدن وقت العصر ، وكان يضجّ بالبائعين والمشترين لا يجد المرء فيه موطئ قدم .

وكان هناك رجل «يحرّج» ويدللّ على بضاعة فوق كتفيه ، ويداه مشغولتان بما حمل ، فلما رأى «ديم» وجدها فرصة لا تعوّض ، فهو لن يخسر شيئًا . فقال له :

«يا ديم أسناني تؤلمني» .

قال له ديم : «افتح فمك واسعًا ، واغمض عينيك ، ولا تفتحهما ، أو تتحرك من مكانك ، حتى أخبرك» .

ففتح الرجل فمه ، ويداه ممسكتان بالبضاعة المفرّقة فوق كتفيه ، واقفًا وسط أفواج من البشر ،

تدفعه ذات اليمين وذات الشمال؛ رآه الناس على هذه الحال صامتًا فاتحًا فاه، لا يتحرّك، فظنوا أنه أصيب بسوء، فكلّموه فلم يردّ إلا بما يرد به صاحب الفم المفتوح، أصوات تخرج لا يفهم منها ما يقول. أما «ديم» فقد ذهب في سبيله، وترك الدلاّل يشرب المقلب، هنيئًا مريئًا، وسط جمع من الناس، بين مندهش، ومتعجّب، ومن يكاد أن يقتله الضّحك من هذا المنظر الغريب، وما لمثل طلب «الدلاّل» إلا مثل هذه الاستجابة.

أرأيت؟ أن «ديم» لم يبحث عن المقلب، إنما جاءه طارقًا بابه، مهديًا نفسه عليه، فرحّب به، وألبسه اللباس الذي يريده، فنجح، ولعل الدلال نسي ألم أسنانه، عندما فتح عينيه، بعد مدة، فوجد أنه بؤرة مَضْحكة، ووسط مهزأة.

والقصص يا بنيّ تتداعى، مثل قوز الرّمل، إذا أخذتَ حفنة تداعى عليك أضعافها، وكأني بك

ترتاح من هذا القول، لأن نتيجته قصص عن المقالب، ولكن لابد لكل شيء من حد، وسأحدّ من هذا التداعي في الوقت المناسب.

قبل ما يقرب من أربعين سنة كان البرلمان المصري عاقدًا جلسة من جلساته الصاخبة، وطالت الجلسة، ونعس رئيس المعارضة. وكان بجانبه أحد المحبين للمقالب، المتقنين لها، فاستيقظ رئيس المعارضة على التصفيق الذي تلا انتهاء أحد المتكلمين من كلامه، فالتفت رئيس المعارضة الشيخ إلى الشاب الذي بجانبه، فسأله عما كان يتكلم عنه الخطيب، وكان يتكلم عن كهربة خط حلوان. فلمعت فكرة المقلب في ذهن الشاب، فقال له:

«يا باشا لقد كان يدعو إلى شيء خطير، ولا أدري كيف تسكت عن هذا؟».

وكان النائب المتكلم مستقلاً، مما لم يجعل رئيس المعارضة يشكّ في كلامه.

ثم استطرد: «إنه كان يهاجم فكرة كهربة خط حلوان، ويدعو إلى أن يُلغَى الخط كليّة وتسيّر الجمال بدلاً منه، لأن الجمال كادت أن تنقرض، مع أنها أفضل شيء لمثل هذا الأمر».

فغلى الدم في رأس زعيم المعارضة في البرلمان، وطلب الكلمة، وصعد على المنبر، وهاجم النائب الذي قبله، وهاجم فكرة الجمال، وكان كل من في المجلس ينظر إلى من بجانبه مندهشًا، ماذا جرى للباشا، وعما ذا كان يتكلم، وكلما أراد رئيس المجلس أن يتكلم معه أسكته وطلب ألا يقاطعه، فتركوه حتى قال كل ما عنده. فلما سئل عما يتكلم عنه، وصار الأخذ والرد، واكتشف كذب صاحبه عليه، نزل بعصاه، ولكن صاحب المقلب قد اختفى.

أرأيت كيف أن النائب الشاب لم يكدّ فكره في البحث عن مقلب «يسقيه» الباشا، ولكن الباشا أتاح له الفرصة، وأهداه فكرة المقلب باردة مبرّدة.



نعود، يا بنيّ، إلى المفرق الذي افترقنا عنده إلى القصص، ونترك جادّة القصص إلى البرنامج اليومي للناس في ذلك الوقت. وكنّا وصلنا إلى صلاة العصر. فبعدها يذهب الناس إلى السوق، وينقسمون ما بين بائع «وشار» «مشتر»، وثالث يجلس عند صاحب دكّان يمرّر الوقت؛ وغالبُ ما يباع في ذلك الوقت في اليوم، حاجات الأكل، وغالبًا ما يكون معها الشاهي، والسكر، يشتريه الفلاحون الذين أحضروا محصولهم من العلف، بعد أن يُشترى منهم، ثم قبل أذان المغرب بساعة، أو أقل، يذهب الناس إلى بيوتهم، ليأكلوا وجبة العشاء قبل أذان المغرب، وليتوضؤا بعدها لصلاة المغرب، وهي الوجبة الرسمية الوحيدة المطبوخة، إلا ما قد يسبقها أحيانًا من «دُوِيفة» وهي مصنوعة من ماء ودقيق وخضروات تسترقها النساء والأطفال وقت القيلولة، ورجالهم نيام.

يبقى الناس بعد صلاة المغرب في المسجد، أو أمام المسجد، ينتظرون صلاة العشاء، فإذا ما حلّت

صلّوها، وعاد بعضهم إلى بيوتهم ليناموا، وبعضهم يذهب لصديق يشرب عنده الشاهي، والقهوة، والحليب أحيانًا، إلى ما قبل منتصف الليل. وفي هذا تحضرني قصة قد تعجبك.

كان هناك مجموعة من الأصدقاء دأبوا على أن يذهبوا بعد صلاة العشاء لعدد من الأصدقاء الذين يجلسون بعد الصّلاة للاستقبال، فكان هؤلاء يمرون بهم مرورًا سريعًا، أو يقضون وقت السهرة كله معهم؛ لاَحَظَ هؤلاء أن مضيفهم أحيانًا يكرمهم أكثر من المعتاد، وكلما قدّم لهم الشاهي بالحليب والقهوة، وأرادوا أن ينهضوا أقسم عليهم أن يبقوا للدفعة الثانية من الإكرام: قهوة ثم شاهي بالحليب، ثم قهوة، وقد يكرر هذا عدة مرات، وفي كل مرة يحتال في إغرائهم، مرة يتساءل إذا كان الحليب في المرات السابقة قليل السكر فقد زاده الآن عما كان عليه من قبل، وأحيانًا يكتفي باليمين «المغلّظة».

وفي ليلة أخرى يجدونه خلاف ذلك، فهو يشعرهم بأنه يريدهم أن ينهضوا سريعًا، ويغادروا المكان، وهذا بعد أن يسقيهم أول قهوة، ثم يقدّم الحليب، وقد لا يكون سُكّره كثيرًا، ثم قهوة، ثم لا يقدّم شيئًا آخر، وبدلاً من ذلك يسألهم وكان قد عاش في العراق: «حجّى فلان، بايش الساعة؟»، يكرر هذا السؤال عدة مرات في ظرف دقائق، فيفهمون أنه يريد أن «يسري» لينام، وتعجبوا من هذا الأمر، ولكن عجبهم لم يطل، إذْ اكتشفوا أن عنده زوجتين، إحداهما أم الأولاد، وهي كبيرة السن، وهي التي في «ليلتها» يصر على بقائهم إلى الفجر، والثانية جديدة وصغيرة، وهي التي يوحي لهم في ليلتها بالخروج بعد أول «طقم» من ضيافة الأمسية، ولأنهم «ليسوا قليلي شر»، صاروا في الليلة التي يريد منهم أن يجلسوا، ويطيلوا السهرة، يتركونه إلى غيره، وفي الليلة التي يسأل فيها عن الساعة يجلسون إلى الفجر، رحمهم الله رحمة الأبرار، فكلّهم الآن تحت الثرى.

وقصة أخرى، زمنها هذا الوقت من الليل، كان هناك صديقان يذهبان معًا لقهوة أحد الأصدقاء بعد صلاة العشاء، فإذا خرجا، وبيتاهما بعيدان، أوصل أحدهما الآخر إلى بيته؛ ثم يقول الذي وصل إلى بيته لزميله:

«سأمشي معك إلى بيتك».

ثم بعد أن يوصله إلى بيته، يقول الآخر:

«سأمشي معك إلى البيت».

وبقيا يوصل أحدهما الآخر، حتى أذّن المؤذن لصلاة الفجر، فلم يذهبا لبيتيهما، وإنما إلى ميضأة المسجد، ليتوضآ لصلاة الصّبح. وهذه القصة متواترة عنهما، ورحم الله الذي انتقل إلى رحمة الله، وأطال عمر الثاني.

وهناك قصة ثالثة، يا بنيّ، تحضرني الآن، وأرجو أن تذكر أن تتالي القصص في مكان ما، مثل تتاليها هنا، يعني تراكم الدّين عليك، وهذا يعفيني عن إيراد قصص في أماكن لا أجد بها ما يناسب المقام؛



وكأني بك تقول في داخل نفسك، دون أن تفوه به، حتى لا يمسك عليك. «إعطنا إياها الآن، ولكل حادث حديث».

اعتاد أحد الأثرياء في إحدى مدن نجد، وهو من أسرة عريقة، أن يسافر كل عام إلى الهند، وكانت الهند في أول القرن العشرين الميلادي، أو الرابع عشر الهجري، محطّ الرحال، ومطمح الأنظار لكثير من أهل نجد، وسبق أن أخبرتك أن أهل نجد كانوا يقولون عن نجد «أنها تلد ولا تغذي»، أي أنه ليس فيها من أبواب الرزق ما يكفي سكانها. ولهذا ينتشرون في أرض الله الواسعة، يذهبون إلى الهند، وإلى البصرة في العراق، وإلى الشام أحيانًا، ثم يعودون بعد أن يكون في يدهم حصيلة كدّ وعمل بعد سنوات، وبعضهم يذهب لفترات قصيرة.

وفي إحدى المرّات فكّر هذا الرجل في أن يصحب معه خادمًا، يساعده في السفر، وهذا الخادم لا يقرأ

ولا يكتب، فهو بهذا لم يقرأ شيئًا عن بعض ما جاء به العلم الحديث من مخترعات، فلمّا وصلا إلى الهند دهش هذا الخادم، «وطارت عيونه» كما يقول التعبير العامي، ورأى من جملة ما رأى «الجرامفون» أو ما يسمى صندوق الغناء أو «شنطة الغناء»، فانبهر مما تأتي به من أغان تعاد، وتكرّر، دون أن يختلف حرف من الكلمات، أو تختل نغمة من النّغمات، فلما عادا إلى بلدتهما في وسط المملكة، أخذ هذا الخادم يروي لأصدقائه، ومن يضمّه معهم مجلس، ما رآه، ولغرابته لم يصدّقه أحد، وصار مجالاً للضّحك والاستهزاء، لأنه يهرف بما لا يعرف، في نظر السامعين، وحاول أن يصدّقه أحد، وأقسم الأيمان، ولكنّ صوته ذهب هباء، وكلما زاد في الحماس زاد الناس في السخرية والاستهزاء.

وذات ليلة، وبعد صلاة العشاء، ذهب كالعادة إلى إحدى «القهاوي» في بيت أحد من يعرفهم، وبينما كان يقصّ ما رآه كالعادة، ويحاول إقناع من



حوله، دخل الرجل، الذي كان صحبه معه للهند، فظنّ أن الفرج قد هبط عليه، وانبلجت أساريره. وبدأ يقصّ القصة من جديد، وكيف أن فلانًا في دهلي دعاهم، وهو من أهل مدينتهم، وأحضر لتسليتهم هذا الصندوق العجيب، الذي كان يغني الأغنية بعد الأخرى، بعد أن يفرش على صدره قرص رقيق، تداعبه أبرة، تُغيرَّ وتبدّل، كلما أحفاها المشي فوق هذا القرص.

فضحك القوم كالعادة، وسخروا منه، وكذّبوه ما وسعتهم ألفاظ التكذيب، ولكنّه اليوم لم يغضب، لأن الشاهد الوحيد الذي سوف يغيرّ موقف أصحابه حاضر في المجلس، وقد رأى ما رأى، وسمع ما سمع، فالتفت إليه التفاتة الواثق وقال له: «يا أبا فلان، الحمد لله الذي جاء بك هنا الليلة، لتشهد على صحة ما أقول، عمّا لم يصدّقني عنه الإخوان». وانتظر الشهادة بفارغ الصبر، وقد ظن أن ساعة الانتصار قد حانت، وكان أبو فلان الذي وجّه هذا

كلامه إليه قد تدبرّ الأمر، بعد أن رأى الحاضرين يكذّبونه، ووصل إلى وجوب عدم الشهادة له، أو تصديقه، وفكّر في المخرج، فالتفت إليه وقال:

«يا بنيّ، أنا لا أشك في كلامك، إلا إني مع الكبر أصبحت ضعيف الذاكرة، أنسى ماذا تعشّيت الليلة البارحة، وقد يكون ما قلته صحيحًا إلا أنيّ لا أذكره».

لم يصدق الخادم أذنيه، واحتار في ذاكرة الرجل التي لم يعرف عنها الضعف من قبل، ولم يلمه مثلما لام الآخرين، لأنه لم يكذّبه، وإنما اتهّم ذاكرته. حاول الخادم أن يذكّر الرجل، واستنفد ما لديه من ذكريات قد تذكّره، واستحضر أصناف الأكل التي أكلوها عند المضيف في الهند، وكلمات الأغاني التي سمعوها، والتعليقات التي واكبت الأغاني. إلا أن هذا لم يفده.

انتهت السهرة في هذه القهوة، وخرج الرجل، وتبعه الخادم يحاول أن يصل إلى أي خيط يخرجه من



الحرج، واتهامه بالكذب، وفي الطريق كانا وحيدين، فابتسم الرجل له، وقال:

«يا بنيّ، أنت أخطأت في قصّك للقصص الغريبة لهؤلاء الناس وأمثالهم؛ مثل هذا الأمر صعب عليهم تصوّره، أنت نفسك لو لم تره بعينك لكنت مثلهم مكذّبًا لمن قال بما قلت، ووصف ما وصفت؛ لهذا لم أقف بجانبك، وأنا أرى السهام تصوّب نحوك، لأن هذا لن يفيدك وسوف، بلاشك، يضرّني، لو تظاهروا احتراماً لي بتصديقك، فسوف يرون غير ذلك مع احتقار داخلي، أنا وأنت في غنى عنه».

هذا درس قاس لك، يا بنيّ، «فاحذر بعد الآن أن تقصّ على أناس ما لم تستطع أسنانهم قرضه، ومعداتهم هضمه». لعل هذا، يا بنيّ، يعطيك فائدة تتبعها، بدلاً من أن تمرّ أنت أو أحد أقرانك بهذا الدرس المزعج، هذا هو الدّرس المزعج وليس ما تأخذه في المدرسة.

هذه «القهاوي» التي ذكرنا أنها في البيوت، يا بنيّ، كانت مظهرًا من مظاهر المجتمع في ذلك الوقت، كان لكل فئة تجمعات بهذه الصّفَة عند أحدهم، وقد تدور القهوة بينهم، كل ليلة عند واحد منهم. وهناك من قهوته مفتوحة دائمًا. في هذه «القهاوي» تبحث كثير من الأمور المهمة وغير المهمة: أخبار المدينة كلها صغيرها وكبيرها تُحكى، وعن هذا الطريق يعرف القاصي والداني عن كل حدث يقع. وقد تتحوّل الجلسة إلى جلسة تاريخية، تقص فيها أخبار الماضين، وتبجل أخبار الشجعان والأبطال، وتفصّل أخبار المعارك والغارات، وتُقصّ حكايات «الحنشل»، وقاطعي الطرق؛ وقد يخوض الجالسون في الأدب والشعر، وحكايات الشعراء، وما وقعوا فيه من غرام، وما قالوا في ذلك من الشعر؛ وأحيانًا يتم بيع وشراء دون قصد، أو يمهّد لزواج، يبدأ أحدهم الحديث باتّهام آخر له أنه «عسّب»[1]، وشاب،

(١) عسّب بمعنى تعب واستخذى باللغة العامية، وأكثر ما تستعمل في عراك=



ولم يعد له أرب في النساء، وينفي المتّهم التّهمة عن نفسه، ويتحدّاهم ويتحدونه، ثم يقول:

«هات لي امرأة جاهزة، وأنا مستعد».

فيرد الآخر: «هذا أبو فلان عنده بنت مُجْوز، إن كنت صادقًا».

ثم يرد الثالث، عندما يسأله خطيب المستقبل، بالإيجاب.

ولا ينفضّ السامر إلا وقد استقر في الجو عريس، ولاحت في الأفق عروس.

أتدري، يا بنيّ، أن النساء كن يكرهن مثل هذه القهاوي، لهذا السبب، وأمثاله، فلا تدري الزوجة متى يجر الحديث المتحدثين إلى مخنق من هذه المخانق، فيُصاد الزوج، وهو في فورة الافتخار والتظاهر، ويوضع في الشرك راضيًا، وتكون امرأته هي الضحية، فلا هي مرتاحة، وهو مدعو عند الآخر، ولا هي

= الديكة، إذا غُلب أحدها، وانسحب من القتال، قيل عسب، ولعلها مأخوذة من تراخي خوص العسيب.

مستريحة عندما يدعوهم عنده، لأن الأمر أيضاً، وهم عنده، قد يوصل إلى ما أوصل إليه وهو عندهم. هذا زيادة على تعبها، وضياع الحليب، الذي كانت تعدّه ليكون لبنًا في اليوم التالي.

هل تريد، يا بنيّ، أن أقص عليك بعض القصص التي تروى في هذه المجالس متصلة بالشعر والشعراء؟

كان هناك شاعر مشهور طبّق ذكره الآفاق، في الشعر النبطي العامّي، والشعر الفصيح؛ وقيل إنه كان يريد أن يتزوج ابنة عمّه، إلا أن عمّه اعتبره سفيهًا لقوله الشعر، ولم يره كفأ لابنته، فردّه؛ ويقال إنه كان مغرمًا بالفتاة، وكان يحتال ليراها، ودخل مرة يزحف على ركبتيه بين الغنم «الهاظلة»: العائدة في المساء من البرّ، واكتُشِف وأُخرِج، ولكنه، فيما بعد، قام بحيلة أجبر والدها على تزويجه:

كان والد الفتاة يبني بيتًا كبيرًا يتناسب مع مقامه ومقام عائلته، فما وجد في البلدة التي هو فيها

«سواكيف»، وهي ما يوضع بعرض السقف، لتجلس عليه الأخشاب، وهو بمثابة الجسر في البناء الحديث. وأشاع في الناس أنه يحتاج إلى مثل هذه الأخشاب الطويلة المتينة القويّة من خشب الأثل، فعلم بذلك الشّاعر، وراح يبحث سرًّا، حتى وجد المطلوب، فاستأجر من أحضر «السواكيف»، ورماها ليلاً أمام البيت الذي قد شُرع في بنائه، فكانت فرحة والد البنت بالغة، عندما رأى مطلوبه، قد أوصل إلى مقر العمل، وتيقّن أن أحدًا ممن سمع عن حاجته قد أحضر هذه الأخشاب، وأنه سوف يأتي لأخذ القيمة، وبدأ البناؤون بوضعها في مكانها، والبناء عليها، وانتهى البيت، دون أن يظهر أحد يطالب بقيمتها. ولمّا لم يبق إلا ارتحال صاحب البيت من بيته القديم إلى بيته الجديد، أو لعلّه ارتحل، جاءه الشاعر ابن أخيه، فحيّاه، وقال له:

«إني رغبت في مجاورتك، وبناء بيت في الأرض التي بجوارك، ولئلا أقع فيما وقعت فيه أحضرت

«سواكيف» مقدّمًا، وألقيتها في أرضي، ولكني في غيابي فهمت أنك بنيت بها بيتك، فأنت الآن مخيرّ بين أن تزوجني ابنتك، أو تهدّ البيت وتعيد لي «سواكيفي» ولم يقبل الشاعر القيمة أو أكثر من القيمة، ولم يجد الأب، في خطّة الخسف هذه، خيرة لمختار، فنزل مرغمًا على رأي ابن أخيه.

وأرجو، يا بنيّ، أنه لم يأسف على هذا الزواج، فسمعة الشاعر بقيت جميلة، وأشعاره شّرقت وغرّبت، وقليل أمثاله.

وهذه القصص وأمثالها كثيرة، إلا أن القليل منها دُوِّن، وهي ثروة اجتماعية تمثل فترة من فترات حياة مجتمعنا، بعضها فُقد، وبعضها على وشك أن يفقد. وأهميتها تأتي من أنها تسجِّل كثيرًا من الحوادث، وما كان يجرى في ذلك المجتمع؛ وما دوّن في كتب التاريخ قليل، وما يتداول في المجالس أكثر.

وما دمنا بصدد الشعر الذي يقال في هذه المجالس،



وما يتطرق إليه الناس مما يسلّيهم ويفرحهم، ويزيل عنهم هموم العمل في النّهار، ويهيؤهم لنوم عميق، وأحلام مفرحة في الليل، فسوف أسمعك بعض أبيات قالها أحد الأخيار ممن عرف بأشعاره المرحة. وعندما تسمعها سوف تعرف إلى أي مدى كانت روحه ـ رحمه الله ـ خفيفة ومرحة، وهو في هذه الأبيات يرحّب بشخص ما عزيز عليه، أتراه عزيزًا عليه حقًا! وأترى فيما قال ترحيبًا!

والأبيات، كما ترى، باللغة العامية الدارجة في نجد:

يَا مَرحَبَا بِكْ عِدّ مَا يِنْفِسْ المِيْتْ
واعْدَاد وَسْط اللِّيْلْ مَا تَطْلِعَ الشَّمْسِ
واعْدَادْ مَا سَافِرْ إِلَى مَكّة كْمِيْت
واعْدَادْ مَا يِرْكَزْ عَلَى السَّطْحِ مِنْ غَرْسِ
واعْدَادْ مَا خِرْفَتْ سَوارِيَ البِيْتْ
واعْدَادْ مَا كِنْزَ الحصَى وَاظْهَرَ الدِّبْسِ



وِاعْدَادْ مَا قِهْوِي مِنَ الِجنّ عِفرِيْتْ
وعْدَادْ مَا يِقْلَع الدِّيْكِ مِنْ ضِرْسِ
واعْدَادْ مَا لَبْسَتْ ثِيَابَ المَسَالِيْتْ
بنْتَ الجَبَلْ مِسْتَرَّةٍ لَيْلَةِ العِرْسِ
واعْدَادْ مَا لِبْسَتْ ثِيَابَ المِتَافِيْتِ
حفَّالَةٍ فِي عِرْسْ بِسِّهْ عَلَى بِسِّ

ولن يخلو سماع هذه الأبيات من فائدة جانبية لك، فقد عرفت الآن أن النساء في القديم كن يلبسن ثيابا اسمها المساليت والمتافيت.

أما أن الميت لا يتنفّس، والشمس لا تطلع وسط الليل، وأن النّخل لا يغرس في السطح، وأنه لا يخرف إلا النّخل، وأن الحصى لا يكنز، وإنما الذي يكنز التمر، وهو الذي يظهر منه الدبس، وإن العفاريت من الجن لا «يُقهوَوْن» و «لا يقهوُوُن»، وأن الديك لا أسنان له ولا ضرس، وأن الجبل لا بنت له، وأن زواج القطط لا يحتاج إلى حفل ولباس ثياب الفتافيت،



فأمور لا تخفاك .

نعود، يا بنيّ، إلى القهاوي في البيوت، وهي تشبه ما يسمى في بعض الأقطار الخليجية بالديوانيات، ونعطي لمحة عن دورها :

هذه القهاوي، يا بنيّ، لعبت دورًا كبيرًا في حفظ أخبار الحوادث التي وقعت في ذلك الزمن، وحفظت لنا كثيرًا من الأشعار، المليئة بتاريخ تلك الحقبة، وما قبلها. وانحفرت هذه القصص، والأخبار والقصائد، في أذهان النّاس من كثرة تكرار روايتها؛ ولا يزال مثل هذه القهاوي موجودًا، مع تطور أوجبه تطور الامكانات؛ ولا أحتاج إلى تفصيل فيه، فأنت أعرف به .

وما يمكن أن أشير إليه أن الناس يشربون الشاهي اليوم، والقهوة، مجاملة، لا كما كانوا يفعلون في الماضي، «خرمة»، وشهيّة، لأنه متوفر اليوم في بيوتهم، وفي مقر أعمالهم، يشربون القهوة، والشاهي،

طوال النهار، فإذا زاروا أحداً يشربونه تكملة لمظهر الضيافة فقط.

أختم الحديث، يا بنيّ، عن القهاوي بقصة لا تعجبك، ولكنك ستجدها ممتعة عندما تكبر، وتمرّ بموقف مثل موقف صاحب البيت.

كان هناك رجل اعتاد أن «يَشُبّ» أو يوقد بمعنى يدعو للقهوة بعد العشاء، وكان من بين الذين يأتون دون دعوة شخص ليس بخفيف ظل على الآخرين. فاتفق المضيف مع ضيوفه ألا يترك الباب مفتوحًا كالعادة، وإنما سوف يغلقه، وعليهم عندما يأتون أن يدخلوا أيديهم من «الكوة» وهي فتحة صغيرة، تسمح بدخول اليد من «المجرى» أي الأداة التي تغلق الباب، فلا يفتح إلا بمفتاح، حتى إذا جاء هذا الذي لا يريدونه يظن أنه ليس هناك «قهوة»، في ذلك اليوم، أما الباقون فيستطيعون أن يدخلوا، ويغلقوا الباب.

فجاء الأول، والثاني، وفعلا ما طلب منهما،



وجاء ثقيل الظل، وفعل ما فعلا، دون أن يعلم بالاتفاق، فلما فتح، ودخل، نادى على صاحب البيت وقال:

«لقد وجدت الباب مغلقًا خلافًا للعادة، وقد دخلت، فهل أغلقه، أو أتركه مفتوحًا؟

فسأله صاحب البيت: «هل أنت أبو فلان؟».

قال: «نعم».

قال له: «ودخلت؟».

قال: «نعم».

قال له: «ما دام أنك قد دخلت فافتح الباب على مصراعيه».

لم تنفع الحيلة، لأن الله سبحانه لم يرد لها أن تنجح؛ من يدري، يا بنيّ، فلعل الله سبحانه أراد أن يكتب لهؤلاء أجرًا رغمًا عنهم، بتحملهم لثقل ظل هذا الرجل. بعض الناس يجرّون إلى الجنّة بالسلاسل!

الحديث، يا بنيّ، كما تعرف عن الأعياد، وقد



استطردنا، وأبعدنا عن الموضوع، حتى كدت أنسى عنوان الحديث. وهكذا الناس دائمًا، يا بنيّ، إذا خرجوا في الصحراء عن الخط المرسوم، لا يدرون أين يؤدِّي بهم اتجاههم، وقد يعودون حيث بدؤا.

وهذا يذكّرني بقصة تجعل مثل هذا التيه يحصل حتى في غير الصحراء، بل في داخل المدن المتقدمة في العمران جدًا. اسمع هذه القصة، وقد حدثت لأحد أصدقاء والدك.

هذا الصديق كان يدرس في لندن، ولم يكن جيدًا في معرفة الطرق، وسهر عنده صديق، حتى وقت متأخر من الليل، والقطارات، وسيارات الأتوبيس، عندما يتأخر الليل تقلّ مرات مجيئها للمحطات، وصديق والدك عنده سيارة، فعرض على زائره أن يوصله بسيارته، فقبل الضّيف، وكان الضّيف يعرف طريقه إلى بيته، في أقصى شمال لندن، فوصل بيته، وشكر الصديق على تعبه وعنائه في إيصاله.

وعاد صديق والدك طبعًا وحده، ومشى بسيارته وقتًا طويلاً، فلم يصل إلى أي شارع يعرفه، ومنه يمكن أن يتعرف إلى طريق بيته، فرأى شرطيًا، وسأله عن أحد الشوارع المعروفة في وسط لندن، فوصف له الطريق كالمعتاد قائلاً:

«إذا وصلت إلى إشارة المرور الفلانية، في آخر هذا الشارع اتجه يمينًا، واستمر، حتى ثالث إشارة «مثلاً». وهكذا.

فشكره الصديق، وسار، وسار، ثم أراد أن يتأكد بعد أن طال عليه الطريق، فرأى شرطيًا، فاستفسر منه عن الطريق إلى الشارع المقصود، فوصف له بدقّة، مثلما فعل الأول. فشكره وسار، وسار، حتى انتهى من السيارة البنزين، أو كاد، فملأ خزان السيارة وسار، بعد أن أخذ الوصف من صاحب محطة البنزين. ثم سار، وسار حتى ملّ، فرأى شرطيًا وأراد أن يستنجد به لمعرفة الطريق، كما استنجد بالسابقين،

فوقف وسأله . فضحك الشّرطي ، وقال له :

«هذه المرة الثالثة ، التي تسترشد بي على الطريق ، ولسوف أرسم لك خريطة إن اتّبعتها بإتقان فسوف تصل ، وإن سألتني مرة رابعة فسوف أركب برفقتك لأوصلك» .

فخجل صاحب والدك عندما اكتشف أنه كان يدور في دائرة . ولم يصل إلى الطريق الذي يهتدي به إلى بيته إلا بعد أن طلع الصباح .

إنّي ، يا بنيّ ، كلما حاولت أن أعود إلى الحديث عن العيد ، شدّني شيء عنه ، حتى القلم كأنه لا يريد ذلك ، والفكر يساعده بالبحث عن قصص ، لم أرني استطرد إلى القصة مثل هذه المرة ، هل عرفت السبب؟ أظنني أنا ربما عرفته ، وهو أني سوف أتكلّم عن الأعياد في زماننا ، وليس فيها ما يشدّ ، لأسباب منها أني أعاصرها ، وأنا كبير ، ولأنه ليس فيها ما في الأعياد في الماضي ، لتباعد الأقارب ، ولاتّساع



المدن. ولأن ما تلبسه في العيد، وتأكله، لم يعد قاصرًا على العيد، وإنما هو متوافر طوال العام.

في الحجاز في الماضي كان للعيد بهجة لا تعدلها بهجة، خاصة عيد الفطر، وهو عيد الكبار، رجالاً ونساءً، وعيد الأطفال كذلك، مدّته ثلاثة أيام. اعتاد الناس في مكة ألا يناموا ليلة العيد، وصلاة العيد في الحرم؛ وفي اليوم الأول لا تبدأ المعايدات والتهنئة إلا متأخرة في عصر ذلك اليوم، وتقتصر التهنئة على الأقارب، وفي اليوم الثاني والثالث تقسم مكة إلى قسمين: حارات أعلى مكة، وحارات أسفل مكة، ويخصّص ثاني أيام العيد لأهل أحد القسمين في تهنئة القسم الثاني، وفي اليوم الثالث يرد المهنؤون على المهنئين تهنئتهم، وهذا يجعل كل مهنّئ يجد من قصد. وقد كبرت مكة الآن، فلم يعد هذا ممكنًا.

ويتفنن الناس في لبس الجديد، في ذلك الزمن، كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساءً. وفي مكة من الخياطين

المتخصصين في الخياطة للنّاس ما لم يكن في نجد، في ذلك الزمن، ومكنة الخياطة لم تدخل نجدًا إلا متأخّرة، بخلاف مكة، التي عرفتها قبل ذلك، في الدكاكين، وفي البيوت؛ وكانت ثياب «اللاس» لها لمعة الحرير ونعومته، وتحظى بالتفضيل بين الأقمشة أيام العيد، خاصة «فخر الموجود»، وهي ماركة معيّنة.

وسبق أن تحدّثنا، يا بنيّ، عن الحمير، ويبدو أن هذا الجزء له نصيب وافر في الحديث عنها، فالحمير في مكة فارهة، ويُعتَنَى بها، ويقصّ شعرها، بطريقة فنيّة تنقش على جوانبها، ولها أناس يقومون بهذا، مع صبغها بالحناء؛ وبعضها، لجودته، وفراهته، يصل سعره إلى ارتفاع لا يصل إليه إلا الموسرون؛ ويزيد تجميلها، ونقشها، وصبغها بالحناء، في أيام العيد، لأنه يصير لها سوق في هذه الأيام، حيث إنها إحدى أسباب التسلية، يستأجرها الشباب عصر أيام العيد، يذهبون عليها «للتمشية» خارج مكة، شرّفها الله.



أرجو، يا بنيّ، ألاّ تعتبر الحديث عن الحمير نقصًا في الذوق، لو رأيت الرويكب في رجب في طريقهم إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد الرسول ﷺ، لرأيت منظرًا عجبًا، ولأدركت قيمة هذا الحيوان، بما له من منظر التكريم، والاعتناء، ولما عليه من بردعة مكلفة، ولجام غال. لأنه كان أداة الركوب الأولى، داخل المدن، في وقت من الأوقات؛ هذا توفيق الحكيم استوحاه في بعض ما كتب، وخاطبه، واستمع له، وهذا حمزة شحاته، أحد الشعراء الفطاحل في تاريخ الأدب الحديث في بلادنا، وأحد الكتاب البارزين، له كتاب دور الحمار فيه بارز، لعلك تهتزّ، وتقرأ الكتابين، ولن أقول شيئًا عن الحمار في أحد مظاهر الأدب الأسباني، لأن أملي لا يصل إلى طموحك في قراءته.

وتلاحظ، يا بنيّ، أني أحرص على أن أحكم نسج الخيوط القوية التي تشدّك إلى التراث، وإلى الكتب التي سوف تساعدك على غرس عادة القراءة،

وما أحوجك إليها في هذا الزمن الذي تعدّدت فيه سبل التثقيف على حساب القراءة. وهذا ليس عيبًا مخيفًا، إذا وُجد التوازن، والخوف أن يطغى جانب على جانب، خاصة إذا كان الطاغي هو المريح الذي يعوّد على الكسل والتواني، لأن ما يكسب عن طريقه قد لا يتناسب مع ما يأتي منه من ضرر.

وشدّي لك إلى التراث يأتي عن طريق ذكر الفوائد المدوّنة فيه، وعن طريق يكون طريفًا وجذّابًا، حتى يكمل الهدف، ويحصل المطلوب. والحمار، مثلما سبق أن قلت لك، كان مهمّا في الماضي، لأنه أداة ركوب أولى في المدن، وهو لعامّة الناس، ومن هنا أصبح مهمًا، لأنه يأخذ كثيرًا من وقتهم، وكثيرًا من ثروتهم، فهو أداة عملهم، ومطيّة حملهم، ومن ظهره رزقهم، وعليه تنقلهم. وقد لا يقنعك ما أقوله، أو لا يهمّك ذلك، ولكني إذا ذكرتك بما تعرف عرضا عنه، وما مر بك صدفة، وأنت تقرأ، (وما أقل ما تفعل ذلك)، أو وأنت تسمع، (أيضًا،

ما أقل ذلك، لأنك تتحدث أكثر مما تسمع)، لآمنت بما أقول:

خذ مثلاً قصة جحا المشهورة، وقد أخذ عشرة حمير، ليبيعها في السوق، ورأى أن يمتطي أحدها، وعنّ له وهو على ظهر أحدها أن يعدّها، فعدّها فوجدها تسعة، ناسيًا عدّ الحمار الذي تحته. فترجلّ، وعدّها مرة أخرى. فوجدها عشرة، فكرر ذلك مرارًا، يركب فتنقص، وينزل فتكمل. فوجد بسهولة أن المنطق (طبعًا الجحوي) يقتضيه ألا يركب، فيكسب الحمار الضائع[1].

لنا وقفتان، يا بنيّ، أمام هذه القصة.

الأولى: أني أحبّ مداعبتك، أنت وجيلك، بما قد تكونون منه براء، استثارة لكم للانتباه، والتحمّس، لتثبتوا أنكم خلاف ما ادّعيته فيكم، وما ألبستكم إيّاه؛ وهو كما ترى، اتّهام سطحي، ولكنّه يحرك

(١) راجع ثمرات الأوراق: ٢٠١، فقد أوردها من جملة ما أوردها إلا أنه لم ينسبها لجحا.

منكم ما سكن، فقلت في جمل معترضة هنا أنكم تتحدثون أكثر مما تقرؤون، أو تسمعون، فاثبتوا لي خلاف هذا تكسبوا الرهان[1] .

الثانية: تذكرت عندما قلت تسعة حمير وعشرة كثرة الأخطاء التي يرتكبها جيلكم، وبعض من جيلنا، في تناسب العدد والمعدود، ورأيت أنكم تعمدون، كسلاً، إلى جعل المعدود مع المؤنث مؤنثًا، ومع المذكرّ مذكرًا. وهذا خطأ فاحش، العامّة، وهم العامة في لغتهم الدارجة في بعض مناطق المملكة، لا يقعون فيما تقعون فيه، وإنما يتقنونها اتقانًا يُفخر به من أجلهم. تقولون خطأ تسعة نساء وتسع رجال، والقاعدة سهلة وثابتة: فمن الثلاثة إلى التسعة تجب المغايرة بين العدد والمعدود في التذكير والتأنيث، أي يجري الأمر على غير القياس والتماثل،

(١) استمتع، يا بنيّ، إلى هذه الحكمة «على الماشي» كما يقولون: «قال رجل لمحمد بن نحرير: أوصني، فقال: اسمع ولا تتكلم، واعرف ولا تُعرَف، واجلس إلى غيرك، ولا تجلسه إليك». الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ٦٥.



فتقول: ثلاثة رجال، وثلاث نسوة، والواحد والاثنان مطابق عددهُ لمعدوده في التذكير والتأنيث. ولاحظ أنّ (الواحد) أيضاً يُخطأ فيه بطريقة أخرى، فيقال: واحد رجل، والصحيح رجل واحد، لأن «واحد رجل» في منتهى العجمة والعامّية. أما (الاثنان) فلا أظن في نطقها مغبّة خطأ، لأنها مثل الكنغر والكنغرو تحمل ابنها في بطنها، فيقال: امرأتان ورجلان، فافهم، أنت وصحبك، تولّى الله رعايتكم بعنايته.

أبعدنا قليلاً كالعادة عن المرمى، ولعل الرمية كانت قويّة، فنعود إلى ما كنّا فيه من قَصص أرجو أن تكون وسيلة قوّية لاقناعك كما قلت سابقًا.

جحا، أيضاً، أخذ حماره إلى السوق، ليبيعه، فرآه لصّان يعرفانه، ويعرفان سذاجته وبلاهته، فغافله أحدهما، «ونسل» حبل الحمار من رقبته، ووضعه في رقبته هو، بينما زميله كان يُشاغل جحا عن هذه الخطوة، ثم ذهب أحدهما بالحمار، وبقي

الثاني يسير خلف جحا، فلما وصلا إلى السوق، جحا والسارق، والتفت جحا فوجد رجلاً بدلاً من حماره، لم يتركه اللّص في دهشته، وإنما شرح له الأمر، وأقنعه أنه كان مُسِخَ حمارًا، لعقوقه أمّه، ويبدو أنه أخذ جزاءه، وأن الله قد رضي عليه، بعد أن سامحته أمه، فأخرج جحا حبله من رقبته راضياً، وأوصاه بأن لا يعقّ أمّه، ولما رأى في يوم آخر حماره يباع في السوق همس في أذنه بأن هذا جزاء من يعود إلى عقوق أمه.

وقصة أخرى بطلها الحمار، وقد يكون شاركه البطولة جحا:

يقال أن رجلاً كان متّجهًا إلى السّوق، وعندما سأله صديقه عن هدفه.

قال: إنه ذاهب ليشتري حمارًا.

فقال له: قل إن شاء الله.

فقال: لماذا؟ الدراهم في كمّي، والحمار في

السوق، (نعوذ بالله من الضلال).

فبينما هو يطلب الحمار في السُّوق، سرقت منه دراهمه، وعاد خائبًا، (وهذا أقل جزاء يتوقع له).

فقابله صديقه الذي سأله من قبل:

قال: ما صنعت، أين الحمار؟

قال: سُرقت الدراهم إن شاء الله.

فقال له صديق: ليس هذا موضع إن شاء الله[1].

والفرق كبير، يا بنيّ، بين جهل هذا الرجل، وعلم الأعرابي الذي قال لصاحبه:

«قل إن شاء الله، فإنها ترضي الرّب، وتسخط الشيطان، وتذهب الحنث، وتقضي الحاجة»[2].

ولأريحك قليلاً من قصص الحمير، أذكر لك بمناسبة المسخ، الذي مرّ في القصة، قصة مسخ أخرى، فيها طرافة، وفيها مخرج من مظهر الجبن، وهي تذكرك أيضًا بقصّة سبق أن قصصتها عليك

(١) كتاب الحمقى والمغفلين: ١٥٢.

(٢) زهر الآداب: ٢/ ١٢١.

عن المقبرة، و «صُفّة» المقبرة، وتوهّم ما قد يأتي من أصوات تجهّمها ظلمتها، ويكبّرها انعزالها، وسوف تجد في القصة أدبًا، وطلاقة لسان، وقوة بيان، وحسن سبك، وجودة معنى؛ أنسى هذا كله مظهرُ الجبن الذي برز في القصة.

قال ابن قتيبة (صاحب كتاب أدب الكاتب): حدّث جار لأبي حيّة النميري، قال: كان لأبي حيّة سيف ليس بينه وبين الخشب فرق، وكان يسميه «لعاب المنيّة»، قال: فأشرفت عليه ليلة وقد انتضاه، وهو واقف على باب بيت داره، وقد سمع حسًّا، وهو يقول: أيها المغترّ بنا، والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خيرٌ قليل، وسيف صقيل، لعاب المنيّة، الذي سمعت به، مشهورة ضربته، ولا تُخاف نَبْرته؛ اخرج بالعفو عنك، لا أدخل بالعقوبة عليك؛ إني والله إن أَدعُ قيساً تملأ الفضاء خيلاً ورجلاً، يا سبحان الله! ما أكثرها وأطيبها! ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله



الذي مسخك كلبًا، وكفاني حربًا[1] .

ونختم هذا الحديث، قبل أن نعود إلى العيد وبهجته، بما لا يغضب الحمار من تركنا إياه بعض الوقت:

يقال إن الحمار طبيعته معرفة صوت الإنسان الذي اعتاد استماعه، وإيناسه، لا يضلّ طريقًا سلكه مرّة، ولا يخطئه؛ إذا ضلّ راكبه الطريق هداه هو، وحمله على المحجّة؛ وأما حدّة السمع، فليس في البهائم فيما يذكر أحَدّ سمعًا منه[2] . وأذناه تراهما، يا بنيّ، تقفان كعمودي رادار إذا سمع ما يخيفه، وهو يخفض واحدة ويرفع الأخرى إذا تفاوتت جهات الأصوات.

ونعود الآن إلى العيد قبل أن نجبر «خاطر» الجحش ابن الحمار بعد قليل، إن شاء الله تعالى.

---

(١) كتاب الحمقى والمغفلين: ١٨٩، راجع القصة في «الحيوان»، وبطلها عروة بن مرثد، وفيها بعض الاختلاف عن هذه. راجع أيضًا: معجم الأدباء: ١٦/ ٢٠٨.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ١٨٦. انظر: ص ٢٥٦ السابقة عن المثل: اسمع من فرس.

وعيد الأضحى في مكة يكاد النشاط فيه في مكة لا يتبين لكثرة الوافدين من الحجاج إلى مكة، وصعودهم إلى المشاعر، وانشغالهم يوم العيد بالتحلّل من الإحرام، ورمي الجمرات، وقضاء الحج بالسعي والطواف، وانشغال بعضهم بالذّبح والفداء؛ ومن لم يحج ممن هو من مكة المكرمة فإنه لا يجد إلا أناسًا قليلين، لا يكملون بهجة العيد، خاصة وأن الحجاج أنفسهم يبدؤون في يوم العيد قضاء حجهم بالطواف والسعي، ويملؤون مكة.

وقبل أن أبعد عن الحديث عن الحمير كثيًرا، والصغير منها يسمى جحشًا، أروي لك قصة من التراث الشعبي، يدخل في سياقها ذكر الجحش. وكان الأولاد يحكونها لمن هم أصغر منهم، إذا وكلت إليهم أمّهاتهم «تنويمهم».

كان هناك امرأة غير وفيّة لزوجها ولها صاحب لا يعرف عنه الزوج. وأرادت الزوجة أن تبعد زوجها،

حتى يخلو لها الجو ولصديقها . ولم يكن زوجها نابهًا ليعرف عن خيانة زوجته ، تظاهرت الزوجة بمرضٍ عضال ، وأوهمت زوجها أن دواءها في بلد بعيد ، واسم الدواء «دادويّه» . فأراد الزوج بحسن نيته أن يذهب ليحضره ، ولو ذهب لم يعد ، للمخاطر التي سوف يتعرض لها ، فأخبره أحد النابهين بما تقصده زوجته ، وما هي عليه هي وصاحبها ؛ فلم يصدّق الزوج لحبه لها ؛ فتراهنا على أنه إذا ثبت له خيانة زوجته فيعطيه مبلغًا من الجنيهات الذهبية ، وإن ثبت له وفاؤها فهذا المراهن على استعداد أن يعطيه حماره ، وهو كل رأس ماله .

فذهبا حيث تقيم الزوجة ، وقال لها المراهن ، بعد أن أخفى الزوج في مكان لا تراه :

وِيْنْ رَجْلِكْ يَا المِلِيْحِهْ　　　يَا مْكُوسِرْةَ الخِضَابِ

فردت الزوجة :

رَاحْ يِجِيْبْ لِيْ دَادْوَيِّهْ　　　لاَ رَدُّه رَبِّـــيْ عَلَيِّــــهْ

إنْ أَقْفَـىَ تَلْشِغُـهْ دَابْ وِإِنْ أَقْبَلْ تَقْرِصُهْ حَيِّهْ

فقال المراهن للزوج :

تِسَمَّعْ يَالأَصِيْقِعْ يَالأَبِيْقِعْ يَــا مِنِيْتِيْــفَ اللِّحَيِّــهْ

الحَمَـرْ صِـرُّهْ بْـرِدْنِـي وَالْجَحَـشْ رِدُّهْ عَلَيِّــهْ

أما العيد اليوم، يا بنيّ، فيقتصر على التّهاني في الأيّام الثّلاثة، والناس لا يتقنون تبادلها، فهم يبدؤون في التّهاني من بعد صلاة العيد مباشرة، يخلطون بين الأقارب، وغير الأقارب، يبدؤون بالأقرب حيّا، ومنزلاً، وقد تذهب لشخص لتهنئته، فتجده قد ذهب إليك، فلا أنت تجده، ولا هو يجدك. ولم يعد الثوب الجديد في العيد مصدر فرح، لأن الناس يلبسونه في غير أيام العيد كذلك، فلم يعد قاصرا على العيد، ولم يعد الأولاد يفرحون بالعيد مثل أطفال الجيل السابق الذين كانوا يفرحون به لأجل «الحقاق»، الحلاوة والملبس؛ فالحلاوة اليوم في أيدي الأطفال كل يوم أنواعًا وأشكالاً، وكذلك النقود يأخذونها

متى احتاجوا، فلم يعد لها قيمة في يوم العيد.

ولم يعد للعيد من مظاهره القديمة إلا مظاهر باهتة من التهاني والفرحة بالإجازة؛ فلم يعد العيد هو اليوم الوحيد، الذي يأكل فيه الناس اللحم، ولا اليوم الوحيد، الذي يحصل فيه الطفل على الحلاوة، وفرحتها، ولا اليوم الوحيد، الذي يفرح به الشخص، أيًّا كان، بالثوب الجديد. كان الناس في الأيام الماضية إذا قرب العيد عادوا من السفر، إذا كانوا مسافرين، ويؤجلون السفر من أجل العيد، إذا كانوا ينوون السفر؛ أما اليوم، فهم يسافرون إذا قرب العيد، أو يذهبون على الأقل للبرّ.

والعيد وقصصه، يا بنيّ، في تراث الأقدمين حافل بالطرائف، وليس هذا مكان حصرها، ولكني أسوق نموذجًا، لتعطيك فكرة عن بعض ما يجرى فيها، وهي صورة جميلة.

نقل الواقدي، قال: كان لي صديقان، أحدهما

هاشمي، والآخر نبطي، فكنا في الصداقة كنفس واحدة، فنالتني ضيقة شديدة، وحضر العيد، فقالت امرأتي:

أمّا نحن فنصبر على البؤس والشدّة، وأما صبياننا هؤلاء فقد تقطّع قلبي عليهم رحمة، لأنهم يرون صبيان جيراننا وقد تزيّنوا في عيدهم، وهم فرحون، ولا بأس بالاحتيال فيما نصرفه في كسوتهم.

قال: فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ بشيء، فوجّه إليّ كيسًا فيه ألف درهم، فما استقر قراره حتى كتب إليّ صديقي الآخر، يشكو إليّ مثلما شكوت إلى الهاشمي، فوجهت إليه بالكيس على حاله، وخرجت إلى المسجد، فأقمت فيه ليلي مستحييًا من امرأتي، فلما دخلت إليها فلم تعنّفني، لعلمها بالحال.

فبينما أنا كذلك إذ أقبل صديقي الهاشمي، ومعه الكيس بختمه، فقال: إصدقني عما فعلته

فيما وجّهت به إليك، فأعلمته بالخبر، فقال: إنك وجهت إليّ ولا أملك إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة، فوجّه إليّ كيسي بختمه.

فأخرجنا للمرأة مئة درهم، وتقاسمنا الباقي أثلاثًا، ونُمي الخبر إلى المأمون، فأحضرني، وسألني عن الخبر، فشرحته له، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، منها ألف للمرأة وألفان لكل واحد منا[1].

هذا هو العيد بمظاهره القديمة والحديثة، اختفى شيء وجدّ شيء، وعرفت ما جدّ وما بلي، والعيد عوْد، ومَدٌّ في العمر، فاحمد الله على العود وعلى إطالة العمر، لك، ولمن تحب، واحمد الله على النّعم، التي تنعم بها اليوم، عندما يأتي العيد، وفي غير أيام العيد، اللحم لم يعد قاصرًا، يا بنيّ، على العيد، والثوب الجديد لم يعد تفصيله ولبسه ينتظر العيد، والحلاوة والمُسَكَّرات، وتتبعها «الشيكولاته» ليس لها موسم

(١) ثمرات الأوراق: ٢٦٧.

معين. كان هناك زمن، يا بنيّ، أدركه والدك، وجيل والدك، يفرح الشّحاذ بالتّمرة، تلقى في يده، واليوم يعيد لك الشّحّاذ الريال، ولا يرضيه إلا الخمسة، أو العشرة، أو الخمسين، أو المئة، أو الخمس مئة، يتوقف الأمر على الحجّة التي يبديها، ويمد بها يده.

فاحمد الله، يا بنيّ، على النّعمة وإسباغها، فالشكر كما سبق أن ذكرت لك حبل متين يُثبِّت النّعم، ويقيّدها ألاّ تفرّ، وهو يجذبها ويجلبها. وسوف لا أملّ تكرار طلبي لك شكر النّعمة، وأرجو أن تبدأ إذنك تقبل موسيقى هذه الكلمة، فهي غذاء الروح للروح إذا تمثلتْها تمثُّل الجسم للطعام، وهي تستحق هذا. وإليك كما عودتك، بعض نصوص في هذا تلفّظ بها أناس عن تصور أخّاذ مرّ بأذهانهم فاقتنصوه.

الشكر قيد النعم، وشِكالها، وعِقالها، وهو شبيه بالوحش الذي لا يقيم مع الايحاش، ولا يريم



مع الإِيناس؛ موقع الشكر من النّعمة موقع القِرى من الضّيف، إن وجده لم يُرم، وإن فقده لم يُقِم.

الشكر غرس إذا أودع سمع الكريم أثمر الزيادة، وحفظ العادة.

الشكر تعرّض للمزيد السائغ، والنعم السوابغ.

شكره شكر الأسير لمن أطلقه، والمملوك لمن أعتقه[1].

ولأهميّة الشكر قال بعض السلف: اللهم إنّي أسألك قلبًا شاكرًا[2]، ومن الحكم المأثورة: إن قصرت يداك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشّكر[3].

وقد يكون مما كررته عليك قول القائل: من أوتي نعمة فهو عبدها حتى يعتقه شكرها، ومن عرفها فقد شكرها، ومن شكرها فقد استوجب مزيدًا[4].

---

(١) زهر الآداب: ٢/ ٥١.
(٢) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ١٩٩.
(٣) عين الأدب: ٢٥.
(٤) عين الأدب: ٦٤.

وفي الحديث: رب طاعم شاكر أعظم أجرًا من صائم صابر[1]، وقال عنترة بن شداد العبسي:

نُبِّئْتَ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرِ نِعْمَتِي
والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ
والشُّكْرُ مَبْعَثَةٌ لِنَفْسِ المُفْضِلِ[2]

وقد يأخذ الشكر، يا بنيّ، مظهرًا جميلاً في الفعل، اسمع هذه القصة البديعة، والله سبحانه وتعالى يعطي الفضل من يشاء من خلقه:

يقال إن عبدًا حبشيًا ناوله مولاه شيئًا يأكله، ثم قال: أعطني قطعة منه، فأعطاه، فلما أكله وجده مرًا، فقال:

يا غلام، كيف أكلت هذا مع شدة مرارته؟

قال: يا مولاي، قد أكلت من يدك حلواً كثيرًا، ولم أحبّ أن أريك من نفسي كراهة لمرارته[3].

---

(١) عين الأدب: ٧٢.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ١١.

(٣) الإمتاع والمؤانسة: ١٢١.



الجـــراد

أي بُنَيّ!

لعلك تذكر عندما جرّنا الحديث إلى النّخلة أنّي قلت، وأنّك أمّنت، أنّ النّخلة، لم تتغيّر، ولكنّ النّاس تغيّروا حيالها في وقت من الأوقات، ثم عادوا إليها مرة أخرى يُقدِّرونها بعد أن كادوا يهجرونها، وتغيّروا، في عودتهم لها تغيّر تطوير بالاستفادة من الوسائل الحديثة، في الغرس، وفي الخزن؛ والجراد يا بنيّ مثلها، هو هو لم يتغيّر؛ كان يأتي فيأكل الزرع، ويفقر الغنِيّ، ويذر الأرض بلقعًا، وهو من جند الله، يرسله حين يريد على من يريد.

وللجراد، يا بنّي مواسم، وهو يأتي مع الخصب، ولعل الله في تنظيمه الكون لم يرد أن يجمع عسرين على الناس: الجدب، والجراد، فأرسل إنذاره مخفّفا.

يقبل الجراد طائراً، وقد غطّى الشمس، فقد يصل

عرض سحابته ثلاثة كيلات، أو أكثر، أما طوله فأضعاف هذا، يأتي عاليًا إلى أن يقترب من الأرض، التي أمر الله أن تتلقاه، فيهبط، وعندما يقع على الشجرة لا يبقى ولا يذر، ويبقى فوقها ينتقل من ورقة إلى أخرى، يدخل في بطنه ما تقضمه بانتظام أسنانه، ويُخرج ما قضم، وهكذا طول الوقت؛ يأتي خفيفًا «ممسورًا» ثم يسمن، يأتي «خيفانا» ثم يتطور إلى «مكن» له «زهم»، ثم يبيض في أرض رخوة تتناسب مع ما تحتاجه بيضته؛ يضع عددًا كبيرًا من البيض، يهيّئ له ثقبًا متقنًا في الأرض، لو رأيته، قبل أن يملأه، ويدفنه، لقلت إنّ شخصًا قد غرس قلمًا في ذلك المكان، ونزعه، ثم يخفّ وزنه بعد ذلك، ويطير إلى أرض الله الواسعة، وله صغار تسمى «الدّبا».

يقال إن بيضه قد يبقى مدفونًا عشر سنوات[1]، تحتفظ به الأرض، حتى يأتيها مطر، فتفقس البيضة

---

(١) تبين عدم صحة ذلك، وأن جرادًا لم يُعلم به جاء، ووضع البيض منذ فترة معقولة، لا يفقد البيض معها طبيعته.



إلى واحدة من الدبا، ثم ترمي الأرضُ فجأة بما فيها، ويمشي الدبا كالسّيل، يقفز، ويدب، ويبدأ في النّمو مع ما يأكله مما يأتي في طريقه من الخضرة، إلى أن يبتدئ الطيران، فيسيح في أرض الله الواسعة، يهبط في أرض ويقتات، ويتركها إلى أخرى، حتى يفنى.

وهذا شاعر، مر الجراد بأرضه، فأوحى إليه بأبيات، تكشف ما في داخل الشاعر، والشاعر، ليكون شعره مقبولاً، لابد أن يحتوي على قوة في أحد جوانبه، إما في الفكرة المعروضة، أو في المنهج المتّبع؛ والشاعر هنا لزم جانب العدل، فبين رأيه برغبته في نزوح الجراد من مزرعته، وذلك، للإفساد الذي يحدثه مروره بها؛ ولكن الشاعر إنصافًا، أفادنا بما يمكن أن ينطق به الجراد لو نطق، وكأنه يوحي بمبرر لما يفعله الجراد، يقول الشاعر:

مَرَّ الَجرَادُ عَلَى زَرْعِي فَقُلْتُ لَهُ

إلْزَمْ طَرِيْقَكَ لاَ تُوْلَعْ بِإِفْسَادِ

فقَالَ مِنْهُمْ خَطِيْتبٌ فَوْقَ سُنْبُلَةٍ
إِنَّـا عَلَـى سَفَـرٍ لاَبُـدَّ مِـنْ زَادِ[1]

أخذت أفكّر، يا بنيّ، في أمر بقاء بيض الجراد في الأرض سنوات أحيانًا، وتدبّرت في حكمة الله ـ سبحانه ـ وفي تنظيمه الكون، ولو لم يكن ذلك التدبير الحكيم لفني الجراد، واختفى، والله أوجده لحكمة، يختفي حينًا، ويظهر حينًا. وجعل طريق توالده مثل طريق نمو النّبات، بذرة توضع في الأرض، تبقى حتى يأذن الله لها فتخرج عندما تتهيأ لخروجها الأسباب، وقد يبدو لنا أن السبب نداوة الأرض مع الأمطار، وقد يكون هناك ما هو أهم، وهو أن الله قد رتّب لأراض شاسعة مخضرة أن تصبح على يد هذا الجراد (أو فمه على الأصح) قاعًا صفصفًا، لمصلحة خفيّة، ومنفعة معمّاة، قد يبدو ظاهرها في أول الأمر ذا وجه مضّر، ولكن مع الأيام يتّضح جانب النّفع.

والطبيعة أصبر من الإِنسان، يا بنيّ، تُبقي هذا

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١٠٣، والبيان والتبيين: ٢/ ١٨٣.



البيض في بطنها، طوال السنوات، فلا هي تملّه، ولا هو يفسد؛ والناس خلقهم الله مختلفين عن الجماد، فيهم المتأنّي، وفيهم المستعجل، وفيهم حاد المزاج، وفيهم سهله، ترى اختلاف أفعالهم، وتباين أخلاقهم، فتقول: سبحان الذي فرّق الطباع، وشكّلها.

والجماد، يا بنيّ، لا يأخذ غير طبيعته، يبقى في كل أطواره على نمط القوانين، التي خلقها الله له. أما ابن آدم فيدخل طبيعته، بإذن الله، التهذيب والتشذيب، وينفع معه أحيانًا التوجيه والنصح، ويغيّر من سيره وسلوكه بما يجعل حياته حميدة محمودة، كل هذا في حدود ما يتماشى مع ما خلق له، أما إذا خرج عن ذلك، تصنّعًا، إلى غير ذلك، فإنه يسمع الشاعر يخاطبه مؤنّبًا:

يَـا أَيَّهَـا المُتَحَلِّـي غَيْـرَ شِيْمَتِـهِ
وَمَنْ خَلائِقُهُ الإِقْصَارُ والمَلَقُ
ارْجعْ إِلَى خَلْقِكَ المَعْرُوفِ وَارْضَ بِهِ
إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دَونَهُ الخُلُقُ[1]

---

(١) زهر الآداب، ص: ١٢٤.

ولم يكن لدى النّاس في الزمن الماضي وسائل مكافحة فعّالة، وأبلغ ما عندهم في هذا أن يديروا أسوار المزرعة بعسبان النّخيل اليابسة، ويشعلوا فيها النّار، يخيفونه بها؛ وإذا عرفوا عن مكان الدبا سبقوه، وحفروا أمامه خنادق، يتقافز فيها، فيدفنونه؛ أما الجراد الطائر فقد يغلبهم، ولكن له جوانب مضيئة في حياتهم؛ عندما يكتشف أحد الناس ليلاً المكان الذي يهبط فيه الجراد، يأتي ويعلن الناس في الأسواق بصوت عال: «يا جرّادوه إنه في المكان الفلاني»، فيهبّ الناس من مرقدهم، أو عملهم، ويأخذ كل واحد منهم ما يستطيع أخذه من أوعية، ليذهب فيملأه بالجراد؛ فإذا وصلوا إلى مكانه وجدوه قد تلبّب الأشجار، فيهزّونها، ويجمعونه من تحتها، وقد تكون أشجارًا صغيرة: «عثامير»، فيملؤون ما أحضروه معهم من أكياس الخيش، أو الأواني، ويعودون به إلى بيوتهم.

يغلي الناس القدور الملأى بالماء، وينكتون الجراد فيها، ويغطونها لدقائق، ويضعون مع الماء ملحًا،



ثم يخرجون الجراد، ويجفّفونه، ويضعونه في الأكياس، ويبيعونه، أو يدّخرونه، ويكون قوتًا يفرح به الناس؛ وتسمعهم يقولون: «إذا جاء الجراد فارم الدواء، أما إذا جاء الفقع (الكمأة) فصرّ الدواء».

ولعل في هذا القول صدقا، فالنبات الذي يأكله الجراد يصبح دواء، بعد أن يهضمه الجراد، أو يكاد. أما الكمأة فلعل الإكثار منها، مثل الإكثار من اللحم، يوجب التّخمة، ويجلب الأذى.

والصّحة والمرض، كما تعرف، يا بنيّ، هي شغل الناس الشاغل، في كل زمان ومكان، لأن الإنسان معرّض للمرض، فيطلب الصحة، وأثناء الصحة يهمل أحيانا فيصاب بالمرض: البرد القارس عدوّ الصحة، والحرّ الشديد مجانب للصحة، والجوع المتعدّى للحدود يخل بالصحة، والشبع المتخم يفقد الصحة، ولهذا ابن آدم ضعيف في هذه الحياة، والمرض له بالمرصاد، إلا من وقاه الله.

لهذا اهتمّت المجتمعات، يا بنيّ، بالصّحة، وما يوصل إليها، وما يطرد المرض: من أعشاب، ودهون، وكيّ، ومن دجل، وخرافة في بعض الأحيان، والأعشاب حقل واسع للتجارب في الأدوية ضد الأمراض، ينجح في وصفها طبيب شعبي، أو يخفق، تنفع في وقت، ولا تنفع في وقت آخر؛ قد تقلّ المقادير، وقد تزيد؛ يختلف الناس في تقبّلها، ويتفاوتون في التّفاعل معها، والاستجابة لها، أو رفضها؛ ولكنها في كل زمان مزدهرة لحاجة الناس لطرد المرض، واستعدادهم لقبول النصيحة الطبية، لأنهم مهيؤون نفسًا لذلك، خاصة إذا كان المرض مزمنًا. وفي تلك الحالة يتقبلون حتى الخرافات، ويقولون: «إن لقحت وإلا ما ضرها الجمل» ولكن الخرافات قد تضرّ، بل غير الخرافات قد يضرّ.

استمع إلى هذه القصة المؤلمة، والمؤلم فيها ليس المعالجة والمداواة، ولكن الظروف، التي كما يقال، أحاطت بها.

حكى الفضل بن المبشر، قال:

خرجنا حجاجًا، فمررنا بحي، فوصُف لنا امرأة تعالج الملسوع، وهي في غاية من الجمال، فأحببنا رؤيتها، فأتينا برفيق لنا، وأخذنا عودًا، وححكنا به رجله حتى أدمت، ولففناه، وجئنا به الحي، وقلنا:

ملسوع.

فخرجت المرأة كأنها الشمس، فنظرت إلى الجرح، وقالت:

لم تلسعه حية، وإنما جرحه عود بالت عليه حيّة، فإذا حميت الشمس مات.

فما ارتفعت الشمس إلا وهو ميت، فتعجبنا منها[1].

والطب الشعبي تراوح نجاحه وإخفاقه، تبعًا لقربه من المدنيّة. ففي بغداد، في زمن العباسيين، وصل الطّب إلى منزلة عجيبة؛ وكلما أبعد الناس

(١) الزمرد الفائق: ١١٦.

عن المدنيّة، وعن العواصم، قلت الكفاءة في هذا الحقل، واعتمد الناس على التجارب التي تعتمد على الملاحظة البدائيّة، وعندما تستمع إلى ما يقال في المجالس، تأخذ فكرة واضحة عن مدى تقدم الطّب الشّعبي في مجتمع ما، أو تأخره، ومدى تقبّل الناس له، وإيمانهم به، ومدى بعدهم عنه، ونفورهم منه؛ ولتَقدّم المجتمعات اليوم، وحظّها من النهضة الطبية أثر في اللجوء إلى الطّب الشّعبي من عدمه؛ وسبق أن تحدثنا، يا بنيّ، عن هذا، وكيف ارتفعت سمعة الطب الشّعبي في تجبير الكسور، وفي علاج ذات الرئة، وعرق النَّسا، وتلمّسنا الأسباب التي قد تكون وراء ذلك.[1]

وسأروي لك هنا من التراث المدوّن بعض ما ورد عن هذا الأمر، فلعله يسليك عن الجراد، وسُمِّ الجراد، إلى ما بعد قليل عند العودة إليه، مع أن صلةَ ما سأذكر

---

(١) عن الطب والأدواء، انظر: الجزء الثالث من «أي بنيّ»، عنوان: «وإذا مرضت فهو يشفين».



وثيقة بالجراد.

استسقى رجل في البصرة، وأيس أهله من حياته، فحملوه إلى بغداد، وشاوروا الأطباء فيه، فوصفوا له أدوية، فلم تنفع، فيئس منه أهله والأطباء، فقال:

دعوني الآن أتزوّد من الدنيا، وآكل ما اشتهي، ولا تقتلوني بالحمية.

فقالوا: كل ما تريد.

فصار يجلس بباب الدار، فمهما اجتاز به اشتراه، وأكله، فمرّ به رجل يبيع جرادًا مطبوخًا، فاشترى منه عشرة أرطال، فأكلها بأسرها، فانحلّ طبعه، فقام في ثلاثة أيام أكثر من ثلاث مئة مجلس، وكاد يتلف، ثم انقطع القيام، وقد زال كل ما كان في جوفه، وثابت إليه قوّته، فبرأ.

وخرج يتصّرف في أموره، فرآه بعض الأطباء، فعجب من أمره، وسأله عن الخبر، فعرّفه. فقال الطبيب.

ليس من شأن الجراد أن يفعل هذا الفعل، ولابدّ أن يكون في الجراد الذي فعل هذا خاصيّة، فأحبّ أن تدلّني على صاحب هذا الجراد.

فلمّا دلّه على صاحب الجراد، قال له:

ممن اشتريت هذا الجراد؟

فقال ما اشتريته، أنا أصيده، وأجمع منه شيئًا كثيرًا، وأطبخه وأبيعه.

قال: فمن أين تصطاده؟

فذكر له مكاناً على فراسخ يسيرة من بغداد.

فقال له الطبيب[1]: أعطيك دينارًا وتجيء معي إلى الموضع، الذي اصطدت منه الجراد؟

قال: نعم.

فخرجا، وعاد الطبيب في الغد، ومعه من الجراد شيء، ومعه حشيشة؛ فقالوا:

ما هذا؟

---

(١) اسم الطبيب موفق الدين أبو طاهر أحمد بن محمد بن العباس المعروف بابن البرخشي، من أهل واسط. راجع عيون الأنباء: ٢/ ٢٦٣.



قال: صادفت الجراد الذي يصيده هذا الرجل، يرعى في صحراء جميع نباتها حشيشة يقال لها: مازريون، وهي من دواء الاستسقاء، فإذا دفع إلى العليل منها وزن درهم أسهله اسهالاً عظيمًا، لا يؤمن أن ينضبط، والعلاج بها خطر، ولذلك ما يكاد يصفها الأطباء؛ فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة، ونضجت في معدته، ثم طبخ الجراد، ضعف فعلها بطبختين. فاعتدلت بمقدار ما أبرأت هذا[1].

هذه قصة، يا بنيّ، مفيدة، لأن فيها عناصر توجب الالتفات: أولها أنها ترينا، كما قلنا، أنك كلما قربت من مراكز الحضارة الإسلامية، مثل بغداد، وجدت الأطباء في مستوى يوجب الثّقة والاطمئنان إلى أنهم يعملون بعلم، ويتصرفون عن معرفة، وينطلقون من فكر، وفي أذهانهم مخزون من العلم الطّبي، أوجد عندهم ملكة بها يناقشون، ويجيلون الفكرة في أذهانهم، ويتعاملون بمنطق من مظاهر

(١) الأذكياء، ص: ١٧٢.

المرض، وفي وصف العلاج؛ فهذا الطبيب لم يقف عند مرحلة الدّهشة، واتهام المريض بالخرافة، لأنه عوفي من المرض بسبب أكل الجراد، بعد أن أعيا مرضه الأطباء، أو فكّر تفكيرًا خرافيًا، وإنما سلك النهج العقلي المنير، وسار في ضوئه، حتى وصل إلى ما ظنّه الحقيقة، حتى وجدها، وتيقّن منها.

مظهر آخر في هذه القصة، يا بنيّ، وهو مظهر النشاط في طلب العلم، وإرخاص الغالي في طلبه، فقد دفع دينارًا، والدينار كثير، ليسير مع صائد الجراد، الذي قد لا يبيع طوال يومه بدينار، أميالاً قليلة خارج بغداد؛ وهذا أمر يدل على تعلّق الطبيب بعمله وعلمه، والتعلّق والهواية هما مفتاحا النجاح في المهن، فإذا أخذ المرء المهنة هواية، ووضع لها مهدًا في سويداء قلبه، وأفسح لها مجالاً في ذهنه، وجعلها شغله الشاغل، لابد أن ينجح فيها، ويضيف إلى ما عرف من جوانبها جوانب جديدة، ويُصلح ويُعدّل ويُصحح ما هو معروف، ويكمل الناقص؛ ترى الأوروبي،



أو على الأصح الغربي، يا بنيّ، الهاوي مهنته، يجد لذة في متابعتها، حتى في وقت أكله، وشربه، تجده يقرأ كتاباً عنها وضعه أمامه على المائدة، أو في القطار، أو في الطائرة. يفرح بالإجازة، ويتطلع إليها، ليتفرغ لجانب من متابعة مهنته، لم يستطع التفرغ له وقت عمله، لانشغاله بجانب آخر منها؛ لهذا نجحوا.

ثم انظر، يا بنيّ، إلى هذا التعليل المقنع الذي أرجع فيه الفضل إلى النّبتة، وأن خطورتها خفّت كثيراً، وأصبحت مصدر سلامة، لأنها مرت بأمرين صهراها: الأول هضم الجرادة لها في بطنها، والثاني طبخ الجرادة في قدر الصائد. وهو تعليل مقبول، يدل على عقل ناضج، وفكر نيّر.

وأشعر أكثر منك بفرح بهذه القصة لقيمتها في ذاتها، ولأنها تعضّد قصة حدثت منذ سنوات في الطائف، هناك رجل يعمل بين جدة والرياض في الخطوط السعودية، أصيب جزء من صدره ببهق،

بدأ ينتشر على صفحة الصدر، وأقلقه الأمر، فلم يترك طبيبًا إلا راجعه، ومن بين هؤلاء طبيب نطاسي مشهور في مصر، ولكن دون جدوى، حتى يئس، وسلّم أمره لله، وهو من عرف بطاعة الله.

وفي يوم من الأيام كان ينزل في فندق مشهور في الطائف، صاحبه رجل خيّر، يحب فعل الخير، ولا ينقطع عن السعي إليه وفيه.

فلما رأى ما أصاب صدر الرجل من البهق، سأله إن كان قد طلب الأسباب للشفاء، فأخبره أنه قد فعل دون جدوى، فبشّره بأنه يعرف بدويّا سبق أن عالج أناسًا بهم ما به، فزال ما بهم، بإذن الله، ووعده بأنه سوف يرتّب لقاءًا بينهما، وفعل.

واتّفق الجميع أن يذهبوا إلى وادٍ قريب من الطائف، لمدة أسبوعين، في كل أسبوع ليلتان أو ثلاثًا، يتناولون العشاء هناك، ويصيدون في كل ليلة أرنبًا، يدهن صدر الرجل بدمه، عدّة مرات؛ وتمّ هذا كما رتّب؛

وفي نهاية المدة بدأ البهق يبهت ويخف، وبدأ الجلد يعود تدريجًا إلى لونه الطبعي، حتى اختفى البهق في نهاية المدّة.

ولأن صديقنا كان يعمل في الخطوط السعودية، وانتقل عمله إلى جدة، قابل في أحد الأيام، لعله في موسم الحج، أو في وقت يكثر فيه المعتمرون، الطبيب الذي تلمس عنده العلاج، في أول الأمر، في مصر، فسلّم عليه، وأخذ يذكّره بزيارته له في عيادته في مصر، فلم يتذكّر الطبيب، وقال له:

يمرّ بي، يا ابني، آلاف من النّاس، ولكني لا أرى بصدرك ما قلت إنّك شكوت منه؛ فقصّ عليه الرجل القصة، وبعقل العالم المجرّب قال الطبيب له: يا ابني، إن السّر في النّبتة التي يعيش عليها الأرنب، ولو عرفت هذه النبتة فربما استفاد بسببها كثير من الناس.

أرأيت، يا بنيّ؟ إن مجرى القصتين واحد، وبين القصتين ما يزيد على ألف عام، ولكن العلم يلتقي

مع العلم، مهما طال الزمن، وبعد المكان.

وسأزيدك من القصص عن الطب الشعبي، لأن حديث المجالس، الذي سوف تتعرض له كثيرًا، كثيرًا ما يدور حول الطب الشعبي، فإذا حدث شيء من هذا، وأنت في المجلس، أمكنك المشاركة بما يناسب ما يقال عادة عن الطب الشعبي. وأنا كفيل، يا بنيّ، أنّك سوف تجد إصغاءًا وإعجابًا.

قبل مدة كان يدور حديث على الأفواه، عن رجل كتبت عنه الصحافة في مصر، أنه دفن على أنه مات، ولكنه أفاق من غيبوبته، التي ظُنت موتًا، واستطاع أن يخرج من قبره فيفاجئ أهله، ويفرحهم، بدخوله ضمن المعزّين.

في التراث المدوّن ما يقارب هذا. أما صحة الخبر، وامكان وقوع ما قيل أنه وقع، أمر يعود إلى رأي الأطباء، لأنهم هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يفتوا في أن ما جاء في القصة حقيقة أو خيالاً.

حدّث أبو الحسن المهدي القزويني، قال: كان عندنا طبيب، يقال له: ابن نوح، فلحقتني سكتة، فلم يشكّ أهلي في موتي، وغسّلوني وكفّنوني، وحملوني على الجنازة، فمرّت الجنازة به، ونساء خلفي يصرخن، فقال لهم: إن صاحبكم حيّ، فدعوني أعالجه.

فصاحوا عليه.

فقال لهم الناس دعوه يعالجه، فإن عاش، وإلا فلا ضرر عليه.

فقالوا: نخاف أن تصير فضيحة.

فقال: عليّ ألا تكون فضيحة.

قالوا: فإن صرنا؟

قال: حكم السلطان في أمري، وإن برأ، فأي شيء لي؟ قالوا: ما شئت.

قال: ديته.

قالوا: لا نملك ذلك[1].

(١) راجع ما ورد في «تاريخ القضاة» لوكيع، حيث تروى هذه الحادثة عن إياس بن معاوية، وأنه هو الذي بفراسته دلّهم على أنه حيّ: ١/ ٣٦٥.

فرضي منهم بمال أجابه الورثة إليه، وحملني، فأدخلني الحمّام، وعالجني، وأفقت في الساعة الرابعة والعشرين من ذلك الوقت، ووقعت البشائر، ودفع إليه المال. فقلت للطبيب بعد ذلك:

من أين عرفت هذا؟

قال: رأيت رجليك في الكفن منتصبة، وأرجل الموتى منبسطة، ولا يجوز انتصابها، فعلمت أنك حي، وخمنت أنك أسكتّ. وجربت عليك، فصحّت تجربتي[1].

والطب، والأمراض، والعلاج منها، وقبل ذلك الوقاية منها، وجميع ما يتصل بالصّحة، أمور اهتم بها العرب، واهتمامهم بها يجعلني، يا بنيّ، ألمس موضوعًا هو من الأهمية بمكان؛ وقد فكّر فيه العرب وتحدّثوا فيه، وإن كان بعضهم خالفه مخالفة واضحة،

---

(١) الأذكياء، ص: ١٧٥، قال أبو عبادة: «النعامة عرق في باطن القدم، ولذلك يقال للميت: شالت نعامته، أي ارتفعت رجلاه. سرح العيون: ٤٤٦.



وبإصرار عجيب، رغم وضوح ضرره للعقلاء، والمفكرين منهم. ولكن العادات، أحيانًا، تصبح مع الجهل أقوى من العقائد، لا يغلبها إلا ما هو أقوى منها في العادات، حتى أن حماة العقائد يحتاجون إلى جهود كبرى لاقتلاع هذه العادات، وإقناع الناس بضررها، وفائدة تركها.

اعتاد العرب في الصحراء، إلى اليوم في بعض الأماكن، أن يتزوج أحدهم ابنة عمّه؛ وهناك في البادية من «يحجر» على ابنة عمّه، فلا تتزوج أبعد منه، إذا لم ترض به، وكانت تسيل في الماضي دماء من جراء ذلك. ومع هذا فبصيرتهم، وفكرهم النيّر، لم يحرمهم من معرفة ضرر نكاح الأقارب، وآثاره في إضعاف النسل، جيلاً بعد جيل. وقد ورد في أقوالهم ما يدلّ على إدراكهم لهذا الأمر، ومعرفتهم لما يكمن في طياته، وما يسبّبه من تدهور في الخلقة، والخلق، وضعف في التكوين، ونقص في العقل، وهي مسألة دقيقة، لم يكن ليصل إليها المرء في مجتمع منعزل في

الصحراء، إلا إذا توفّر له حسن الإدراك، وقوّة الملاحظة، وسلامة التّفكير.

وقد ورد في الأثر: يا بنيْ السائب لقد ضويتم فانكحوا الأباعد. والعرب تقول: اغتربوا لا تضووا، أي تضعفوا. ويقول صاحب الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تعليقًا على هذا، أو استمرارًا في الحديث عنه:

واستفاض هذا منهم حتى سمع من صاحب الشريعة ﷺ، وذلك أن الضوى مكروه، والعرب قالت هذا بالإلهام، لقرائحهم الصّافية، وأذهانهم الواقدة، وطينتهم الحرّة، وأعراقهم الكريمة، وعاداتهم السّليمة، وإنما شعروا بهذا، لأن الضوى الواصل إلى الأبدان هو سار في العقول.

ثم استشهد بما رواه الأصمعي عن العرب من قول أحدهم، يمدح صاحبًا له:

فَتًى لَم تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قَرِيْبَةٍ
فَيَضْوَى وَقَدْ يَضْوَى رَوِيْدُ الأَقَارِبِ



ويقول إن أحد العرب قال لولده: «والله لقد كفيتك الضؤولة، واخترت لك الخؤولة»[1].

ويقول: إن العرب تقول: ليس أضوى من القرائب، ولا أنجب من الغرائب. وقال الشاعر:

أَنْـذَرْتُ مَـنْ كَـانَ بَعِيـدَ الهَـمِّ
تـزْوِيْـجَ أَوْلاَدِ بَنَـاتِ العَـمِّ
لَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ ضَوًى أَوْ سُقْمِ
وأَنْـتَ إِنْ أَطْعَمْتَـهُ لاَ يَنْمِـي

وقال الأُسيدي يفتخر:

وَلَسْـتُ بِضَـاوٍ تَمـوُجُ عِظَـامُـهُ
وِلاَدَتُـهُ فِـي خَـالِـدٍ بَعْـدَ خَـالِـدِ
تَـرَدَّدَ حَتَّـى عَمَّـهُ خَـالَ أُمِّـهِ
إِلَى نَسَبٍ أَدْنَى مِنَ السِّرِّ وَاحِدِ[2]

(١) قال أبو الأسواد الدؤلي لبنيه: «يا بَنِيَّ، قد أحسنت إليكم صغارًا، وقبل أن تولدوا. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: التمست لكم من النساء الموضع الذي لا تعابون به». بهجة المجالس: ٣/ ٣٢.
(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٩٤.

ما دام أنهم عقلاء، وأذهانهم، يا بنيّ، صافية، ولا يبدو من أقوالهم التي مرّت، أنهم يجهلون ضرر زواج الرجل من قريبته، فلماذا يقدمون عليه؟ لماذا يقدمون على التحجير؟ عند التفكير في ما يبدو من تناقض يوجب الحيرة يمكن أن تتلمس أسبابه في الأمور الآتية:

ينشأ الشاب والشابّة في بيت واحد، أو في بيتين متجاورين أو في منزل واحد من منازل البادية، ويلعبان معًا، ويسرحان في أول الأمر بالبهم معًا، ويبنيان ذكريات بريئة مضيئة، يبقى صداها إلى أن يكبرا، فتكبر هذه العاطفة، وتتحوّل إلى حبّ؛ ويجد الأهل أن ابنهم أولى ببنتهم، وبنتهم أولى بابنهم، وتمكّن هذا الاتجاه، حتى أصبح أمرًا شبه مسلّم به، ومخالفته قد توجب الدهشة والقطيعة، وقد تتعدّى هذا.

ويبقى الاعتراض قائمًا في تجاهل الضّرر، ويتلمس



سببه في قوة العاطفة، وتمكّن العادة، وسهولة السّير على ما رضيه النّاس، والبعد عما لم يألفوه، حتى لو كان المنطق فيه، والعقل معه، خذ مثلاً التدخين، تجد أعقل الناس يدخّن، وأذكاهم لا يستطيع الخروج عن العادة التي وقع فيها، وأنجح الناس في المهن، وأبرز المفكرين قد يكون أسير هذه العادة؛ والعادة في هذا المجال قوة قاهرة، تخدر عقل المرء في أن يتصور أبعاد الضّرر، ولها القدرة على الإقناع، وتجهيم الفائدة الوهميّة. فلعل الإقدام على زواج الأقربين فيه شيء من هذه القوة.

وهناك أمر آخر، وهو شعور بعض الأسر، إذا ما كثرت البنات فيها، وخشي فوات سنّ الزواج على البنت، أن هناك واجبًا على أبناء الأسرة في الزواج منهنّ؛ وإذا أثير أمر «الضوى» قيل أن فلانًا تزوج من فلانة، وأولادهما في أوج الصحة والعافية؛ وهذا صحيح لأن الضعف قد يكون خفيّا، أو قد لا يحدث في هذا الجيل؛ ولهذا فَضَرْبُ المثل على هذا النمط



يلجم المعترض .

ولعليّ أكثرت في هذا الجانب الفرعي، وقد لا يرتاح إليه بعض أبناء جيلك، فلندلف منه إلى شيء مبهج بعض الشيء، حتى - كما سبق أن قلنا : لا تملّ الأبدان، وتصدأ الأذهان، ويذبل النشاط، وحتى نروّح عن النفس ببعض ما يبهجها، وهو ليس ببعيد عما نحن بصدده أصلاً، وهو الحديث عن الطب الشعبي، الذي جرّنا إليه الحديث عن الجراد :

يروي صاحب ثمرات الأوراق أن الخليفة العباسي، هارون الرشيد، خرج متنزهًا، فانفرد عن العسكر، ومعه الفضل بن الربيع، فإذا هو بشيخ قد ركب حمارًا ضعيفًا، وهو رطب العينين، فغمز الرشيد الفضل عليه، فقال له الفضل :

أين تريد يا شيخ؟

فقال الشيخ : حائطًا لي .

قال الفضل :



هل لك أن أدلكّ على شيء تداوي به عينيك، فتذهب هذه الرطوبة؟

فقال الرجل: ما أحوجني إلى ذلك.

قال الفضل:

فخذ عيدان الهواء، وغبار الماء، وورق الكماء، فصيرّ الجميع في قشر جوزة، واكتحل من القشر، فإنه يذهب رطوبة عينيك[1].

أما رد الرجل على الفضل فمفحم، لأنه عرف قصده، وحيث إنه لا يعنيني إلا الجزء الخاص بالدواء، فعليك أنت أن ترجع إلى الجزء الخاص بالردّ، وهو عن أجرة الوصفة أو أجرها؛ وسوف تجدها لا تخلو من طرافة.

ونختم هذا الجانب الطّبي بهذا المقطع الجميل، وهو وصفة طبية من نوع فريد، وهي رغم طولها، فلا تكلّف مالاً، وما فيها من مواد مفيد، ولابدّ منه

(١) ثمرات الأوراق، ص: ١٧٧. انظر أيضًا: أخبار الظراف والمتماجنين، ص: ١٠٠.

للعلاج المطلوب؛ وهو كما تعرف يخالف ما يفعله بعض الأطباء المعاصرين، الذين يعطون عدة أدوية في الوصفة، إما لأنهم سيّئوا النيّة، أو لأنهم ليسوا على ثقة من تشخيصهم للمرض، فيضعون أدوية لعدة احتمالات، ويتوّجونها بالمضاد الحيوي؛ وفوق ما قد يأتي به هذا من ضرر، ومن أذى جانبي، إلاّ أن فيه هدمًا للجيوب، وإرهاقًا للميزانية :

وقف رجل على طبيب، وحوله خلق كثير، بأيديهم قوارير، والطبيب يقابل كلّ علّة بدوائها، يعطي لهذا القابض، ولهذا المسهّل، ولهذا الحارّ، ولهذا الرطب، فوقف الرجل، وقال :

أيها الطبيب أعندك دواء لداء الذنوب، يرحمك الله؟

قال : فأطرق الطبيب رأسه إلى الأرض، ثم رفعه، وقال :

اسمع دواء، إن عملت به، رجوت لك الشفاء،



إن شاء الله :

خذ عروق الفقر ، وزنجبيل الصّبر ، واخلطهما بسفوف الذّكر ، وامزجهما برقائق الفكر ، واجعل معه إهلِيلَج التّواضع والخشوع ، ودُقّه في مهراس التوبة والخضوع ، ولِتّه بماء الدموع ، واجعله في طنجير التذلّل ، وأوقد تحته نار التوكّل ، وحرّكه بملعقة الاستغفار ، حتى يزيد زبد التوفيق والوقار ، ثم ضعه في آنية المحبّة ، وبرِّده بمروحة المودّه ، وصفّه بمُصفِّي الأحزان ، وصبّ عليه عصير الأجفان ، واجعل معه حقيقة الإيمان ، وامزجه بخوف الرحمن ، وتغذّ ، قبل شربه ، بِمُرِّ الصّيام ، ودم على هذا ما عشت من الأيّام .

وإياك أيها العليل أن تقرب من أيام دوائك شيئًا من الآثام ، فإنها تجدّد عليك ما رجوت برءه من الأسقام ، وتجنّب في دوائك العُجب والرياء . وإياك أن تدخل بيتك إلا من باب التّوبة والصّفاء ، فإذا دمت على هذا الدواء ، صفا قلبك بين القلوب ، وزالت

عنك أوجاع ألم الذنوب[1] .

وقد أبعدنا، يا بنيّ، عن طريقنا، ولكن ذلك ليس بدون هدف، وأرجو أن يكون فيما قلنا فائدة، وقد شرحت لك مرارًا أسباب خروجنا عما نحن فيه، والاستطراد الجانبي. ولن أكرر هنا ما سبق أن قلته.

ونعود إلى الجراد مرة أخرى، فلدينا عنه ما يقال: عن صيده وجلبه.

وفي خروج الناس لجلب الجراد ترى منظرًا فريدًا، كأنهم ذاهبون إلى معركة، إلا أن الاختلاف بين المنظرين أن هناك رجالاً ونساءً وأطفالاً، وسلاحهم سلمي، غالبًا ما يكون أكياس الخيش، أو ما يماثلها، وفي الظلام قد يجمع الجامع جرادًا، وغير الجراد، وقد تواتر جمع الناس للحيّات دون أن يعلموا[2] ،

(١) عين الأدب، ص: ٢٢٨.

(٢) راجع كتاب الحيوان، للجاحظ: ٤/ ٢٣٨، ففيه عن هذا ما يدل على أن ذلك كان يحدث في زمنه أيضًا.

فلا يتبينّ لهم ذلك إلا عندما يكشفون غطاء القدر، ويرون الحيّة طافحة فيه؛ هل تظنّهم يحذفون الجراد وما في القدر، خوفًا من سم الحيّة؟ لا، إنهم يرمون الحيّة فقط، والنّار عندهم تقضي على السمّ، والحيّة إما أنها وُجدت بالصدفة تحت أحد «العثامير»، أو أنها جاءت تقتات على أول طلائع الجراد الواصل، فهو غذاء مثالي في نظرها. وبهذا أصبح القانص مقتنَصا.

والفرحة التي لا تعدلها فرحة، يا بنيّ، عندما يأتي الجراد، فرحة الأطفال، تجدهم يركضون هنا وهناك، أحيانًا يركضون بإعاقة لجامعي الجراد الجادّين؛ هذا طفل يركض وراء جرادة بعينها وهي تقفز. وتقفز، ثم تطير إذا رأت إلحاحَه، ولكنه، مع كثرة الجراد، يجمع منها ما يريد، و «يقصمل» «قصاميلها»، أي يقطع أرجلها التي تساعدها على القفز، الذي منه تنطلق للطيران، وهي قد تطير دون قفز، ولكن ليس بالسهولة نفسها، فتجده، وقد «وَهْدَنَهَا» وأضعفها، بقطع «القصمول»، يسير خلفها؛ وهذا طفل آخر

أحضر عودًا، وأخذ يشك الجراد صفًا، يسميه «مشكاك جراد»، قد ينتهي به الأمر بشيّه في النار، وأيّ نار مهما كانت ضعيفة تكفي؛ ولكنّ هذا نادر، ويعاقب الطفل لو فعله، لأن الطريقة المقبولة هي عدم تعذيبه بالنّار، والطريقة المثلى رميه بسرعة في قدر به ماء يغلي.

وكان الناس في تلك الأيام مطمئنين إلى الجراد، يأكلونه لا يخافون من الأذى، أمّا اليوم فالحذر منه واجب، لأنه قد يكون رشّ ببعض المبيدات المميتة.

والجراد يطير عاليا، ويقطع مسافات طويلة في طيرانه، ويقطع البحر الأحمر أحيانا، ولعل تكوين جناحه يساعده على ذلك، للطريقة التي خلقه الله عليها، فله أكثر من جناحين، وكُونت بطريقة خاصة، ولعلّها أقرب إلى شراع السفينة، فما عليه إلا أن يفردها فتحمله الريح، دون مجهود منه يذكر، ويبدو أنه في الماضي كان، أحيانا، يأتي من أفريقيا، وقد ينهض من بيض مدّخر في أراضي الجزيرة، وخاصة ساحل

البحر الأحمر.

وقد نشطت مكافحته في هذا العصر، وتفنّن الباحثون في تركيب المحاليل التي يمكن أن تستعمل، دون أن تؤثّر على الحشرات النافعة مثل النّحل، ويقال إن المحاليل التي تُوُصِّل إلى استعمالها أصبحت من هذا النوع السليم النتيجة؛ وقد عانت أفريقيا من قحط في السنوات الأخيرة، ويبدو أن بيض الجراد كان مخزونًا في أرضها، فلما جاءت الأمطار بغزارة فقس البيض، وخرج الدبا، واستمر يدب على الأرض يرعى مما أنبتته الأرض، حتى إذا قوي عوده طار واتجه شرقًا، ووصلت فرق منه إلى المملكة، ولكن المكافحة الكفيئة أوقفته، وقضت عليه؛ وقد ظنّ النّاس أن المكافحة العالية قد قضت عليه، إلا أن ما ظهر منه أخيرًا دلّ على أن العالم قد يعاني منه لسنوات.

وهكذا، يا بنيّ، ترى أن بعض الأمور في يد الناس أن يطوروها فتتطور، وترى بعض الأمور يعجزون عن تغييرها إلا في بعض جوانبها التي تدخل في

طاقتهم. والجراد يبدو أنهم لم يدخلوا عليه إلا وسائل المكافحة؛ أما حبّ الناس له، وإقبالهم عليه، وأكله، فلم يتغيّر، حتى إن بعضهم صاده، وطبخه، رغم تحذير المسؤولين بخطورة ذلك، لما أكله الجراد من سموم، وما رشّ به من مبيدات.

هذه، يا بنيّ، متعة من متع الأطفال لم تحظ أنت باللعب بها، وأظنكّ تحبها لو أتيحت لك الفرصة للّعب بها، ففيها عدد من العناصر التي تعجب جيلك، فيها الخروج إلى الصحراء، وفيها الركض والجري، وفيها «الشكّ» والقلي، وفيها تكسير الرجلين؛ ولكن الجراد استراح منكم، ولعل تعذيب الأطفال له في الماضي بقدر الأذى الذي كان يحدثه في المزارع، أما الآن فالمكافحة لا تعطيه الفرصة، فخف أذاه، وخفّ إيذاؤه.

ولعلك تلاحظ أني أحيانا، يا بنيّ، أداعبك وجيلك من الشباب بلمزات خفيفات، وهي مداعبة تجلسكم



إذا كنتم مضطجعين، وتوقظكم إذا كنتم ناعسين، وتلاحظ أنّي لثقتي في استقامتكم، والحمد لله لا ألمسكم إلا في الشيء الهيّن، الذي لا يأتي مع المشاغبة فيه منكم إلا بضرر هيّن.

وقد تعجب إذا قلت لك إن بعض تصرفات الشباب أحيانا رغم ما فيها من مظهر الخروج عما قد يختاره الكبار، لا تخلو من فائدة، ولكنها لابد أن تكون في الحدود المقبولة، خاصة إذا أملاها ظرف يوجب مثلها، اسمع ما يقوله عمرو بن العاص: أكرموا سفهاءكم، فإنهم يكفونكم العار والنار[1]. والمقصود أن العقلاء والكبار، إذا ابتلاهم الله بسفيه، فمن التوفيق أن يكون هناك سفيه يردعه عن سفهه، ولا يفل الحديد إلا الحديد!

وتصور هذا الموقف الآتي، وما حدث به، وما قاله الحكيم تجاهه، لأنه عاش التجربة، وحمد ما تمّ فيها. وكثيرون في هذه الحياة مرّوا بأمثالها، إلا أنهم

(١) زهر الآداب، ص: ٩١.

قد لا يكونون نطقوا بهذه الحكمة، بينما ابن عمر جالس إذ أقبل أعرابي فلطمه، فقام إليه رجل فجلد به الأرض، فقال ابن عمر: ليس بعزيز من ليس له في قومه سفيه[1].

أرأيت، يا بنيّ، كيف أن السفيه قام بعمله، لو كنت واقفًا هناك، ورأيت هذا المنظر لطربت، وصفّقت أكثر مما لو كنت رأيت الكرة تدخل في شبكة الفريق المنافس لفريقك.

ويأتي قول آخر، يعضد ما مرّ، في مجال فائدة السفيه لقومه، وتقديرهم له، واعتنائهم به، لما يأتي منه من حماية لهم من سفيه، يبتلون به من غير قومهم، وإليك قصة تبين مثلاً من أمثلة فائدة السفيه، وأهميتها تأتي في حدوثها مع رجل له مقامه في عشيرته، وله مركزه الديني المتميز، مما يجعل ما يقول مقبولاً، لأنه يأتي من عاقل، وما يأتي من عاقل يحمل معه شهادة بأن القول ما جاء إلا بعد تفكير عميق، والعمل لم يقدم

---

(١) محاضرات الأدب، ص: ٩٦.



عليه إلا بعد تدبر ، ولم يأت إلا عصارة تجربة :

«كان عبدالله بن عمر إذا سافر ، سافر معه بسفيه ، فقيل له في ذلك ، فقال :

إن جاءنا سفيه ردّ عنا سفهه ، لأنّا لا ندري ما نقابل به السفهاء»[1] .

وعبدالله بن عمر له تجربة مع أحد السفهاء ولم ينفعه إلا سفيه ، جلد بالسفيه الآخر الأرض ، لأنه اعتدى على عبدالله بن عمر باليد .[2]

هذا ما جاء في القصص ، ولابد للشعر من مشاركة في هذا المجال الطريف ، والطرافة تجذب الشعراء ، لأن فيها جمالا ، كما للشعر جمال ، ولهذا أصبح الالتقاء بين هذين العنصرين سهلاً :

قال أبو سلمى :

لاَ بُدَّ لِلسُّؤْدُدِ مِنْ أَرْمَاحِ   وَمِنْ سَفِيْهٍ دَائِمِ النِّبَاحِ[3]

---

(١) بهجة المجالس : ٢/ ٦٥١ ، ٢/ ٦٢١ .

(٢) انظر : ص : ٣٨٠ السابقة .

(٣) الحيوان ، للجاحظ : ٣/ ٧٩ .

وهذا أكثم بن صيفى، حكيم العرب، يدلي بحكمة منيرة في هذا المجال، يؤكد فيها أن وجود سفيه في القوم يساهم في توافر الحليم بينهم، وهي نظرة صائبة عند التفكير العميق:

«لا حلم لمن لا سفيه له»[1].

فالحليم لا يحتاج أن يغضب، لوجود من يكفيه الغضب، هذا مرمىً من مرامي تلك الحكمة، ومرمى آخر، الحليم يتعمق فيه الحلم، كذلك، من كثرة تحمله لسفيه قومه، الذي لابد من تحمله، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار فائدة السفيه، في المجالات التي لا ينفع فيها غيره.

وليست هذه هي الحكمة الوحيدة، التي جاءت من حكماء العرب، فيما يخص السفهاء؛ فهذا الأحنف بن قيس، لابد أن أمرهم حمّله همًا، جعله لا يفتأ يفكر فيهم، وفيما لهم، وما عليهم، وقد

---

(١) العقد الفريد: ١/ ٩٥.

فكر في الأمر في جانب من جوانبه المهمة، فقال في أحد أقواله عنهم:

«ما قلّ سفهاء قوم قط إلا ذلّوا»[1].

ومما يدل حقًا أنه يحمل لهم همًا، ويريد أن يكون عادلاً، فلا يعمي عقله اسمهم المنفّر، ويتعمق في التفكير، ويتبصر، فيعطي رأيًا صائبًا، يقول:

لأن يطيعني سفهاء قومي، أحبّ إليّ من أن يطيعني حلماؤهم».

فحلماؤهم لهم من حلمهم وِجاء، وعودتهم إلى الطاعة متوقعة، وإقناعهم أسهل، لتلاقي أفكار متماثلة في القوة، مما يضمن فهم بعضهم بعضًا؛ أما السفهاء فيحتاجون إلى مجهود، فإذا ما نجح المجهود فاللذة مضاعفة، وفي هذا إحياء أرض موات، وتعديل معوج، وضم عضو إلى الحلبة، وكسب جديد للفريق، فإذا ما نجحت الفكرة مع أحدهم، أصبح من المتوقع

(١) العقد الفريد: ١/ ٩٥.

أن تتخذ قاعدة مع آخرين، لأنه عُرف مسرب من المسارب، الموصلة إلى داخل أنفس أمثالهم، من هنا جاء الحب الذي أشار إليه الأحنف.

وله حكمة ثالثة في هذا المجال، تؤكد ما قلناه عن حرصه على التفكير فيهم، وفي حقهم، ومحاولته محو الصورة القاتمة، التي ترتسم لهم بمجرد ذكر اسمهم، يقول الأحنف:

«أكرموا سفهاءكم، فإنهم يكفونكم النار والعار»[1].

أما النار، فما يقولونه من ألفاظ نابية، وأفعال جائرة، تحملهم الإثم الذي قد يؤدي بهم في الآخرة إلى النار؛ أما العار فهم يمحونه بالإتيان، تجاه الخصم، بما هو أشد منه، ويتحملونه دون قومهم.

ونعود للشعر وجماله، والبيت الآتي فعلاً جميل، بشهادة النبي ﷺ وهو الحكم العدل على وجه الأرض:

قال النابغة الجعدي:

(١) العقد الفريد: ١/ ٩٥، زهر الآداب: ١/ ٩١.



وَلاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
بَوَادِرُ تَحْمِيْ صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا[1]

وأنشد هذا الشعر للنبي ﷺ فلما انتهى إلى هذا البيت، قال له النبي ﷺ:

«لا يفضض الله فاك».

هذه أمثلة، يا بنيّ، عما قيل في السفهاء، وفائدتهم، وموقعهم في مجتمعهم عند العقلاء. والسفهاء، يا بنيّ، أنواع فما قيل، فيما سقناه، قد ترسم منه صورة واحدة، وتنسى جوانب أخرى من السفه، أو لا تدركها. وهناك نفثة، تعطيك فكرة من نوع آخر، فيه إجحاف، لم يكن لمن وقع عليه قدرة على رده، لأنه، في ضعفه، لا محامي له، ولا مدافع عنه.

استمع، يا بنيّ، لما يقصه العتبي:

«قال العتبي:

«لما أسنّ أبو براء، عامر بن مالك، وضعّفه بنو

(١) العقد الفريد: ١/ ٩٥.

أخيه، وخرّفوه، ولم يكن له ولد يحميه، أنشأ يقول:

دَفَعْتُكُم عَنِّي، وَمَا دَفْعُ رَاحَةٍ
بِشَيْءٍ، إذَا لَمْ تَسْتَعِنْ بِالأَنَامِلِ
يضَعِّفُنِي حِلْمِي، وكَثْرةُ جَهْلِكُم
علَيَّ، وَإِنِّي لاَ أَصُولُ بِجَاهِلِ[1]

لولا الوزن والقافية، يا بنيّ، لقال: «لا أصول بسفيه»، وليس أشد على الإنسان من قهر الرجال، وأن يأتيك سفيه، ولا تستطيع أن تكيل له الصاع صاعين، فهذا منتهى القهر.

وروي شيء يهمك هنا:

روي عن عبدالله بن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، (ولا أدري عن مدى قوة سلسلة الرواية)، أنه قال: «عرامة الصبيّ في صغره زيادة في عقله إذا كبر»[2]. والعرامة أقرب ما لها في اللغة الشراسة.

(١) العقد الفريد: ١/ ١١٨.
(٢) محاضرات الأدباء، ص: ٢٤.



وعندما أذكر لك هذا، وأمثاله؛ إنما أريدك أن تتذكر عندما تكبر أنت وأندادك، ويصبح لكم أولاد، ويأتي منهم بعض «الشيطنة»، ألا تستعجلوا في عقابهم بقسوة، فتخمدوا فيهم جذوة الشباب هذه، بل اصبروا عليهم، وترفقوا بهم، وساعدوهم على المرور بهذه المرحلة من النموّ، دون أن يلحقهم فيها أذى، يترك في أنفسهم ندوبًا، أو تغفلوا عنهم، فتترك هذه الأمور في أبدانهم عاهات تبقى مع الزمن.

وأذكر، وأنا صغير السّن، يا بنيّ، أن رجلاً من المسنين اشتهر بالشجاعة، وخوض الحروب، كان يقول لآخرين أصغر منه قليلاً:

لقد كنا نفرح بالصبيّ «العفريت»، ونعجب به ومنه، ونبتسم «لعفرتته»، لأننا بالتجربة وجدناه وأمثاله هم الذين يرمون أنفسهم في أتون الحرب، ويندفعون أمام الصفوف في المعارك، هم غذاء روح الشجاعة عند الزحف، هم المرخصون أنفسهم،



هم الذين لا يؤمنون بالتراجع، أو المهادنة.

المهم، يا بنيّ، تذكّر أن الطفل يمرّ ببعض المراحل، فلا تحكم على أعماله من مرحلتك، اعط لهامش السّن بينك وبينه بعض الاعتبار؛ راقبه، ولا تغفل عنه؛ ولا تظن أن دورك ينتهي بإسكانه وإعاشته، وكسوته، وتأمين حاجاته المدرسية؛ يجب أن تكون عينك عليه دائمًا، توجهه، وأحيانا بطريق غير مباشرة، لأن له أنفة تفوق ما عند الرجال، لجهله، وصغر عقله. وخذ حكمة ذهبية: «لا تعنّفه أمام أناس غريبين عنك وعنه»، فهذا خطأ لا يغفره الصغير ولا ينساه، يرسم نقطًا سوداء في علاقته بك.

وراقب نموه، وتطوّره، فما تقبله منه اليوم قد لا تقبله بعد شهور، أو سنين، وما تتوقعه اليوم قد تتوقع خلافه بعد شهور أو سنين؛ المهم ألا تركن إلى الكسل العقلي، فتضع قاعدة واحدة، تستريح عندها، تجعلها قاعدة تطبقها عند كل خطأ، وفي



كل مرحلة من مراحل نموّه: «خمولاً منك في تطوير نظرتك»؛ واقرأ، يا بنيّ، ما كتب في كتب التربية القديمة، والحديثة، فالعلم نور، والنور إضاءة تشع في الذّهن، والقلب، والروح، فتعصم من الارتطام بالمعوقات، ومِن ترْكِ ندوبٍ في النفوس، والندوب في النفوس تشوهها، مثلما يشوه الجدري أديم الوجه.

ونعود، يا بنيّ، إلى شيء لا يحتاج إلى تربية، وإنما إلى صيد وأكل، إن كنت تريد أن تعيد عادة كانت في الماضي، وهي الجراد وأكله، لقد أبعدنا عن الجراد، ولا يزال في الحديث بقيّة، قد تفيد فيما نحن بصدده.

والجرادة، يا بنيّ، يضرب بها المثل في الخِفّة، وسرعة الحركة، ويضرب بها المثل للذّين يأكلون، ولا يسمنون، وهم من يسمّون في الحجاز «أبو قُصْب أزرق»، وأحيانًا أهل نجد يقولون: «فلان مُشارَك» أي أنه لا يستفيد سمنًا مما يأكله، لأن الجن يشاركونه في



الأكل الذي يلتقمه، ولا أدري ماذا سوف تقولون في زمنكم.

عن اختلاف الزمن قلنا مرة، ونحن نقارن بين زمن وزمن، أن الزمن يسير، قلنا هذا ولم ندوّنه من قريب، هل تذكر هذا؛ وقلنا لعلّ الناس يسيرون، واحترنا أيهما الذي يسير الزمن أم النّاس، وقلنا لعلهما يسيران، ولكن لكل واحد منهما سرعة، وقلنا هل هما يسيران باتّجاه واحد، وهل زمن يسير أسرع من زمن؛ ولم نصل إلى نتيجة، وقلنا كل فئة من الناس لابد أن لديها ما تقوله، هناك من سوف يقول إن الزمن هو الزمن، لا يتغيّر، وإنما النّاس يتغيّرون، ولا دخل للأمر بالسير؛ وهناك من سوف يقول خلاف ذلك؛ على أي حال إسمع رأي أحد الشعراء:

إِنْ الجَدِيْدَيْنِ في طُوْلِ اخْتِلاَفِهِمَا
لا يَنْقُصَانِ وَلٰكِنْ يَنْقُصُ النَّاسُ



نعود للجراد مرة أخرى، يا بنيّ، فقد كان النّاس يطبخونه، لأنه يصبر على الزمن بعد أن يطبخ، ويحملونه معهم في سفرهم؛ وبعض الذين خارج بلادنا لا يستسيغون الحديث عن أكله، لأنهم يرون أنه لا يؤكل، وتشمئزّ النّفس عندهم من أكله؛ والنّفس إذا لم تقبل على شيء، بسبب الدِّين، أو العادة، فمن الصعب استساغتها بعض المأكولات؛ وقد نستغرب نحن عزوفهم عن أكل الجراد، وهم يعتبرون لحم الضفادع من المأكولات، التي لا يقدر عليها، إلا الأغنياء القادرون.

وأمر الأكل، واستساغته، وقبوله، يطولّ فيه الحديث، ففي شرق آسيا أمور غريبة في الأكل: بعض المطاعم يقدّمون لحم الحيّات الضخمة، وبعضهم يقدّم كبد الحيّات وبثمن باهظ؛ ولكنّ هذا كله قد يغضّ النظر عنه، ولكن هناك ما لا يمكن قبوله، وهو ما قد تكون سمعت عنه: يُؤتَى بقرد، في أحد المطاعم، في إحدى مدن الشرق، وقد وضع في قفص ضيّق،

يجبره ضيقه على أن يجلس القرفصاء، بطريقة تجعل هامة رأسه تبرز قليلاً من ثقب في أعلى القفص، فُصّل بطريقة خاصة، ويأتي رجل ماهر، مدرَّب، بموسى، يقتطف هذا الجزء الناتئ من الرأس، وفيه المخّ الذي يقدّم بثمن باهظ لزبون، يَتصور أن فيه من الفوائد للرجال ما يرخص ثمنه مهما غلا؛ ولله في خلقه شؤون!

سأخرج، يا بنيّ، من هذا المنظر المزعج إلى ما هو خير منه، وأيّ أمر، أيّا كان، سوف يكون أجمل من المنظر السابق الذكر: منظر السمك في بعض المطاعم يسبح في الماء، يطلبه «الزبون»، ليُشوى أمامه جديدًا. وما دمنا في الأكل، وأنت تحرص على القصّة، في كل موضوع نطرقه، إسمع هذه القصة، في مجال الأكل:

يقال إن أحد الفقراء الاسكتلنديين، وهم أناس يوصفون بأنهم قليلوا التكلّف، ويتصرّفون بطريقة طبعية، على الأقل في الماضي؛ جاع هذا الرجل، ولفقره لم يكن لديه طعام يطفئ به ثورة الجوع ـ



واسكتلندا باردة خاصة في الصّباح، لأنها في شمال الجزر البريطانية ـ خرج في الصباح إلى الضواحي، أملاً أن يصيد أرنبًا بريًّا، فرأى سوراً يحيط بحديقة عظيمة، فدار حوله، حتى وجد منفذًا فيه إلى الداخل، فدخل، فوجد أشجارًا ملتفة، وكثيفة، فأخذ يبحث بينها عن أرنب، وتوغّل؛ وكان هذا البستان لأحد «اللوردات» الكبار، وكان «اللورد» خرج في ذلك الصبّاح يتنزّه، في انتظار إعداد الخدم الإفطار له؛ وفجأة تقابل الإثنان عند منحنى بين الأشجار.

فسأل «اللورد» الرجلَ عما يفعل.

فقال له: «لديّ» شهيّة جئت أبحث لها عن أكل.

ثم سأل الرجلُ «اللوردَ»:

«ولكن أنت ماذا تفعل هنا؟»

فأجابه اللورد: «لديّ في بيتي أكل، وجئت أبحث له عن شهيّة».

هذا يذكرني، يا بنيّ، بشكوى أحد المرضى في أيام العباسيين إلى الطبيب أنه عندما يجوع يحسّ بألم

في المعدة، يشبه لعق لسان البقرة للشيء، وأنه بمجرد أن يأكل يذهب المرض، وتتحسن حاله، فردّ عليه الطبيب بأن هذا الداء اسمه الشهيّة، ثم أن الطبيب دعا الله أن يصيبه بهذا الداء الذي يسمّى الشهيّة.

حديثي عن الجراد، يا بنيّ، كان جافّا، فرأيت أن أذكر لك ما ذكرت، حتى أخفّف عنك جفافه، وسبق أن أخبرتك عن الإحماض بعد التّعب، ففيه طرد للملل، وقد قال عليّ رضي الله عنه:

«إن القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فاهدوا إليها طرائف الحكمة»[1].

وصاحب الإمتاع عندما ظن أنه هزل بعد الجد قال:

بلغني أن ابن عباس كان يقول في مجلسه، بعد الخوض في الكتاب والسنة والمسائل:

«إحمضوا، وما أراه أراد بذلك إلا تعديل النفس،

(١) التطفيل للبغدادي، ص: ٢٠٥، ومعجم الأدباء: ٢/ ٩٤.



لئلا يلحقها كلال الجدّ، ولتقتبس نشاطًا في المستأنف، ولتستعد لقبول ما يرد عليها، فتسمع»[1] .

وقدأكون قد ذكرت لك طرفًا من ذلك الإحماض، إلا أن تكرار هذا وأمثاله مفيد، خاصة وأن فيه إضافة رأي صاحب الإمتاع؛ وسبق أن أبنت لك فائدة التكرار، خاصة فيما فيه فائدة .

وسوف أختم هذه الصفحة بوصف للجرادة، وستجد هنا أنه ينطبق عليها تمامًا، ولكنّه لو قيل في معزل عن هذا الباب لأصبح لغزًا؛ جرّب، واطرحه على من لا يدري أنه وصف لها، وسترى :

«لها وجه فرس، وعينا فيل، وعنق ثور، وقرنا أيّل، وصدر أسد، وفخذا جمل، ورجلا نعامة، وجناحا نسر، وبطن عقرب، وذنب حيّة» .

ونحن نقترب من نهاية حديثنا عن الجراد، يحسن أن نأتي ببعض المعلومات المفيدة، المكملة للصورة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة : ٢/ ٦٠ .

التي رسمنا بعضها، وهذا ما قاله الأصمعي، يا بنيّ، وهو صديق لنا قديم، نقرأ عنه بعض الطرائف، والأمور المعجبة، أما هنا فمعلوماته عن الجراد، على حد تعبيركم جافة، وإليك ما قاله:

«قال الأصمعي:

يقال الجرادة مذكر، والأنثى من الجراد[1]، كما يقال: بطّة، وحيّة، وجميعه جراد، والرِّجل من الجراد قطعة منه، قدر ما يكون مئة ذراع في مثلها.

وإذا باض الجراد قيل غرّز، فهو مُغَرِّز، ويقال، أيضًا، قد رزّ الجراد، فهو رازّ. قال: ويبقى في الأرض أربعين ليلة[2]، ثم يثور، مثل صغار الدود، فيقال: قد أدبى بيض الجراد، إذا صار دبى»[3].

ولعله يهمك أن تعرف تسميته في المراحل التي

(١) أي أن الجرادة تطلق على الأنثى والذكر كما ذكره في لسان العرب في مادة (جرد)، وقيل في اللسان: الجراد الذكر والجرادة الأنثى.

(٢) قارن هذا بما قلناه سابقًا، عن مدة بقاء البيض في الأرض، وطول المدة ص: ٣٤٦.

(٣) المنتقى من أخبار الأصمعي: ١٠١.



قبل أن يكون دبى، والتي بعدها، إلى أن يصير جرادًا، وقد ذكره صاحب «لسان العرب المحيط» في مادة (جرد) فقال:

«قال أبو عبيد:

قيل هو سِرْوة، ثم دَبى، ثم غَوغاء، ثم خَيفان، ثم كُتفان، ثم جراد»[1].

وهناك تقسيمات أخرى، وكل هذه تدل على عناية القوم بالجراد، وكيف لا يعتنون بأسمائه، ومراحل نموه، وتأثيره ـ بإذن الله ـ عليهم قوي. ومن جملة هذه التقسيمات ما قالوه عن بعض جوانب حياته، وبيئته، ومن فيها:

«قال عمرو بن بحر (الجاحظ):

الجراد المأكول منه ضروب: منه الأهوازي، وفيه المذنّب، وأطيبه الأعرابي. وأهل خراسان لا يأكلونه.

(١) قارن هذا بما قاله الجاحظ في كتاب «الحيوان»: ٥/ ٥٥٣، وبدلاً من سروه يقول الجاحظ «سرء».



قال :

والجراد الأعرابي لا يتقدمه في الطيب شيء ، وما أحصي كم سمعت من الأعراب من يقول :

ما شبعت منه قط» .[1]

وهناك زيادة في كتاب الحيوان ، تأتي بعد : ما شبعت منه قط :

« . . . وما أدعه إلا خوفًا من عاقبته أو لأني أعيا ، فأتركه»[2] .

وما دام ، يا بنيّ ، أن صاحب كتاب «بهجة المجالس» اقتبس من ابن بحر (الجاحظ) ، فما لنا لا نذهب إلى هذا البحر ، فنغرف منه دون واسطة ، فأبو عثمان (الجاحظ) قد أوقف صفحات من كتابه «الحيوان» في الجزء الخامس منه ، على الأقل ، الصفحات من صفحة : ٥٤٩ إلى صفحة : ٥٧٠ ، على الجراد وسوف

(١) بهجة المجالس : ٣/ ٨١ .

(٢) الحيوان ، للجاحظ : ٥/ ٥٦٥ .



نختار بعض ما لم نلمسه، من قبل، من معلومات، ونركز على بعض ما فيه طرافة، حتى يخف الأمر عليك، ويكون ختامنا خفيف الظل، خفة ظل الجاحظ، والأصمعي؛ وفيما سوف نذكر أمر مهم جدًا، وهو أن العقل هبة من الله، وإذا ما منّ الله على أحد بالرزانة، وصفاء الذهن، أقدره - سبحانه وتعالى - على التغلب على ما أجمع عليه أهل عصره، من الخزعبلات، والخرافات. والتطير كان مسيطرًا على الناس في الجاهلية، يحملهم على السفر، ويصدهم عنه، وهكذا في كل أمر، استشاروا فيه وسائل الطيرة، أو هي جاءت في طريقهم، فقوت عزمهم، أو ثبطت عزيمتهم؛ وسوف نرى فيما سيقصه علينا الأصمعي عجبًا، رجلان عاشا في بيئة واحدة، وزمن واحد، ومع هذا فالبون شاسع بينهما فيما يعتقدانه نحو الطيرة، هذا حباه الله عقلاً منيرًا، وهذا حرمه الله منه، هذا رأى الحق، وهذا غاب عنه:

«قال الأصمعي:

تجهّز النابغة الذّبياني، مع زبّان بن سيار الفِزاري، للغزو، فلما أراد الرحيل نظر إلى جرادة، قد سقطت عليه، فقال:

جراد تجَرُد، وذات لونين، غيري من خرج في هذا الوجه. ولم يلتفت زبّان إلى طيرته، وزجره، ونفذ لوجهه. فلما رجع إلى موضعه، الذي كان النابغة فارقه فيه، ونال من السلامة والغنيمة، أنشأ يذكر شأن النابغة، فقال:

تخَيَّـرَ طَيْـرَهُ فِيهَـا زِيَـادٌ
لِتُخْبِـرهُ، وَمَـا فِيْهَـا خَبِيْـرُ
أَقَـامَ كَـأَنَّ لُقْمَـانَ بـنِ عَـادٍ
أَشَـارَ لَـهُ بِحِكْمَتِـهِ مُشِيـرُ
تعَلَّـمْ أَنّـهُ لاَ طَيْـرَ إِلاَّ
عَلَـى مُتَطَيِّـرٍ وَهُـوَ الثُّبُـورُ
بلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيءٍ
أَحَـايِيْنًـا، وَبَـاطِلُـهُ كَثِيْـر[1]

---

(١) الحيوان: ٥/ ٥٥٥.



وما دمنا، يا بنيّ، في ضيافة الأبيات، فاسمع وصفًا للخيفانة، بلونها البني والأصفر، وهي تعمل في شماريخ نخلةِ مسكين باغتته، وهي جزء من أبيات، ولكن ما نريده هو ما سوف نثبته هنا:

والأبيات لعوف بن ذروة، وعلى ذكر عوف، هل تدري ما كنية الجرادة، يقول الكميت إن كنيتها «أم عوف»، وبهذا فهي تشارك البقرة كنيتها، كما سبق أن ذكرنا[1].

مَلْعُونَةٍ تَسْلَخُ لَوْنًا عَنْ لَوْنْ
كَأَنَّها مُلْتَفَّةٌ فِي بُرْ دَيْنْ
تنْحِي عَلَى الشِّمْرَاخِ مِثْلَ الفَأْسَيْنْ
ومِثْلَ مِنْشَارٍ غَلِيظِ الحَرْفَيْنْ
نصَبَهُ مُنْصِبُهُ فِي قِحْفَيْنْ[2]

ومن عنايتهم بها، وبأمرها، وشغلها لأذهانهم

(١) انظر كنية البقرة «أم عوف» في أي بني: ١/ ٣٩٣.
(٢) الحيوان: ٥/ ٥٥٨.

ضربوا بها الأمثال، وشبهوا بها الخيل، وتكملة للصورة التي رسمها صاحب الرجز السابق، اسمع ما قاله حماد لأبي العطاء عنها، في صورة لغز:

فَمَا صَفْرَاءُ تُكْنَى أُمَّ عَوْفٍ
كَأَنَّ رُجَيْلَتَيْهَا مِنْجَلاَنِ[1]

وسنختم حديثنا عن الجراد بما يُري أن الجراد لا يقتصر أذاه على الشجر، بل قد يدخل البيوت اسمه، مجرد اسمه، فيخرب البيوت، ويفرق بين زوج وزوجته، ويهدم بيتًا عامرًا، وليس هذا، يا بنيّ، لغزًا، اسمع القصة، ولا تغضب من الجراد، فلم يكن إلا كما يقول التعبير العامي: «ممسحة زفر» والرواية، يا بنيّ، عن الأصمعي، صاحب الطرائف:

«قال رجل، من أهل المدينة، لامرأته: لا جزاك الله خيرًا ـ فإنك غير مُرْعِيَةٍ، ولا مُبْقِيَةٍ!

قالت: لأنا، والله، أرعى، وأبقى، من التي

(١) الجاحظ: ٥/٥٥٨.



كانت قبلي .

قال : فأنت طالق ، إن لم أكن كنتُ آتيها بجرادة ، فتطبخ منها أربعة ألوان ، وتشوي جنبيها .

فرفعته إلى القاضي ، فجعل القاضي يفكر ، ويطلب له المخرج .

فقال للقاضي : أصلحك الله ـ أأشكلت عليك المسألة؟ هي طالق عشرين»[1] .

وما دام الأمر وصل إلى الطلاق ، والطلاق فراق ، فالأفضل أن نفترق مع الجراد عند هذه النقطة .

* * *

(١) الحيوان : ٥/ ٥٦٧ .

الفهارس

***



(١) فهرس المواضيع حسب ورودها

***

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء

* * *



(٣) فهرس فروع المواضيع





(٤) فهرس الأشعار

(ر)

(س)

(ع)

(ق)

(ل)



(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)





(٥) فهرس المصادر والمراجع

١ - أخبار الحمقى والمغفلين

لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي

دار الآفاق الجديدة - بيروت

الطبعة الرابعة: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

٢ - أخبار الظراف والمتماجنين

لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي

تحقيق: عبدالأمير مهنا

دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م

٣ - أخبار القضاة

لوكيع: محمد بن خلف بن حيان

عالم الكتب - بيروت

٤ - كتاب الأذكياء

لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي

مكتبة الغزالي

٥ - كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيدي

دار مكتبة الحياة - بيروت

٦ - بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس

لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري

تحقيق: محمد مرسي الخولي

دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٨١م

أبجي

٧ - البيان والتبيين

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك

مطبعة دار الكتاب المصري - القاهرة: ١٣٥٦هـ/١٩٣٨

٨ - كتاب التطفيل

لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي

تحقيق: الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان

دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع - جدة

الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٩ - ثمرات الأوراق

لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي

تصحيح وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم

مكتبة الخانجي - مصر، الطبعة الأولى: ١٩٧١م

١٠- الحلية في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام

لمحمد بن كامل التاجي الصاحبي

تحقيق: عبدالله الجبوري

نشر النادي الأدبي بالرياض: ١٤٠٠هـ/١٩٨١م

١١- كتاب الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: عبدالسلام هارون

دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة: ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م

١٢- كتاب الخيل

لعبدالله بن محمد الكلبي

تحقيق: محمد العربي الخطاط

دار الغرب الإسلامي



١٣- روضة العقلاء، ونزهة الفضلاء

لأبي حاتم محمد بن حيان البستي

تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد

ومحمد عبدالرزاق حمزة

ومحمد حامد الفقي

مطبعة انصار السنة المحمدية: ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م

١٤- كتاب الزمرد الفائق في الأدب الرائق

لمحمد بن راشد بن عزيز الحضيبي

نشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان عام: ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م

١٥- زهر الآداب، وثمر الألباب

لأبي إسحاق الحصري القيرواني

ضبط الدكتور زكي مبارك

الطبعة الثانية - المطبعة الرحمانية: ١٣٥٠هـ/١٩٣١م

١٦- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون

لجمال الدين بن نباتة المصري

تحقيق: محمد إبراهيم أبو الفضل

المكتبة العصرية - صيدا: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

١٧- عقد الأجياد في الصافنات الجياد

للأمير محمد بن الأمير عبدالقادر الجزائري الحسيني

منشورات المكتب الإسلامي بدمشق

الطبعة الثانية: ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م

١٨- العقـد الفـريـد

لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الإبياري

مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر - القاهرة: ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م



١٩- عقلاء المجانين

لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري

تحقيق: ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

٢٠- عين الأدب والسياسة في زين الحسب والرئاسة

لأبي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل

ادار الكتب العلمية - بيروت: ١٤٠١هـ/١٩٨١م

٢١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء

ابن أبي أصيبعة

دار الثقافة - بيروت: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٢٢- مجالس ثعلب

لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ذخار العرب «١»)

شرح وتحقيق: عبدالسلام محمد هارون

دار المعارف - الطبعة الخامسة

٢٣- المحاسن والمساوئ

لإبراهيم بن محمد البيهقي

دار صابر - بيروت: ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

٢٤- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء

للراغب الأصفهاني

تهذيب واختصار إبراهيم زيدان

دار الآثار - بيروت

٢٥- المدهش

لأبي الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي

دار الجيل - بيروت



٢٦- المراح في المزاح

لبدر الدين أبي البركات محمد الغزي

(ضمن مجموعة الرسائل الكمالية «١٢»)

مكتبة المعارف: الطائف

٢٧- معجم الأدباء

لياقوت الحموي

دار إحياء التراث العربي - بيروت

٢٨- مغامرات سفير عربي في اسكندنافيا منذ (١٠٠٠) عام

لأحمد بن فضلان

تحقيق: أحمد عبدالسلام البقالي

مطبوعات تهامة، الطبعة الأولى - جدة: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

٢٩- المنتقى من أخبار الأصمعي

لأبي محمد عبدالله بن أحمد الربعي

انتقاء: ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي

تحقيق: محمد مطيع الحافظ

دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق

الطبعة الأولى: ١٩٨٧م

٣٠- نخلة التمر (ماضيها وحاضرها، والجديد في زراعتها وصناعتها وتجارتها)

لعبد الجبار البكر

مطبعة العاني - بغداد: ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م

٣١- نسب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها

لأبي الكلبي - هشام بن محمد السائب

تحقيق: الدكتور نوري حمودي القبسي

والدكتور حاتم صالح الضامن

مطبعة المجمع العراقي: ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م



(٦) فهرس الأسماء



(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)





(٧) فهرس الأماكن



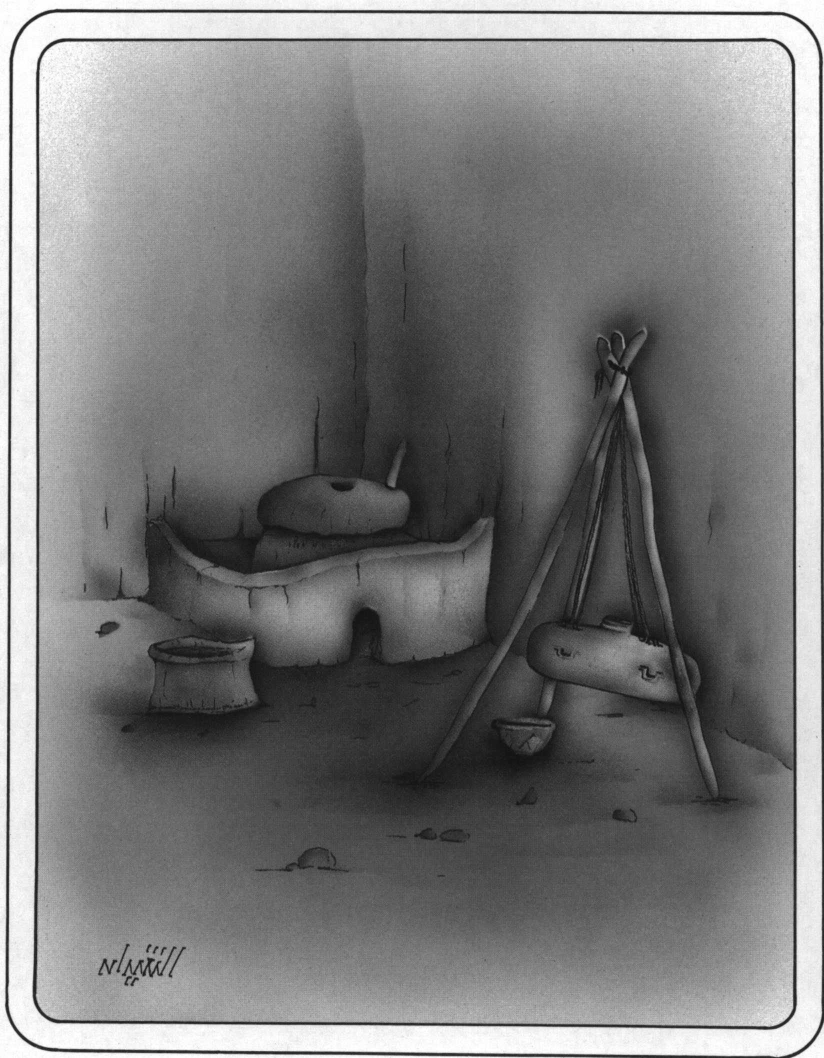
***

صـور من المـاضي

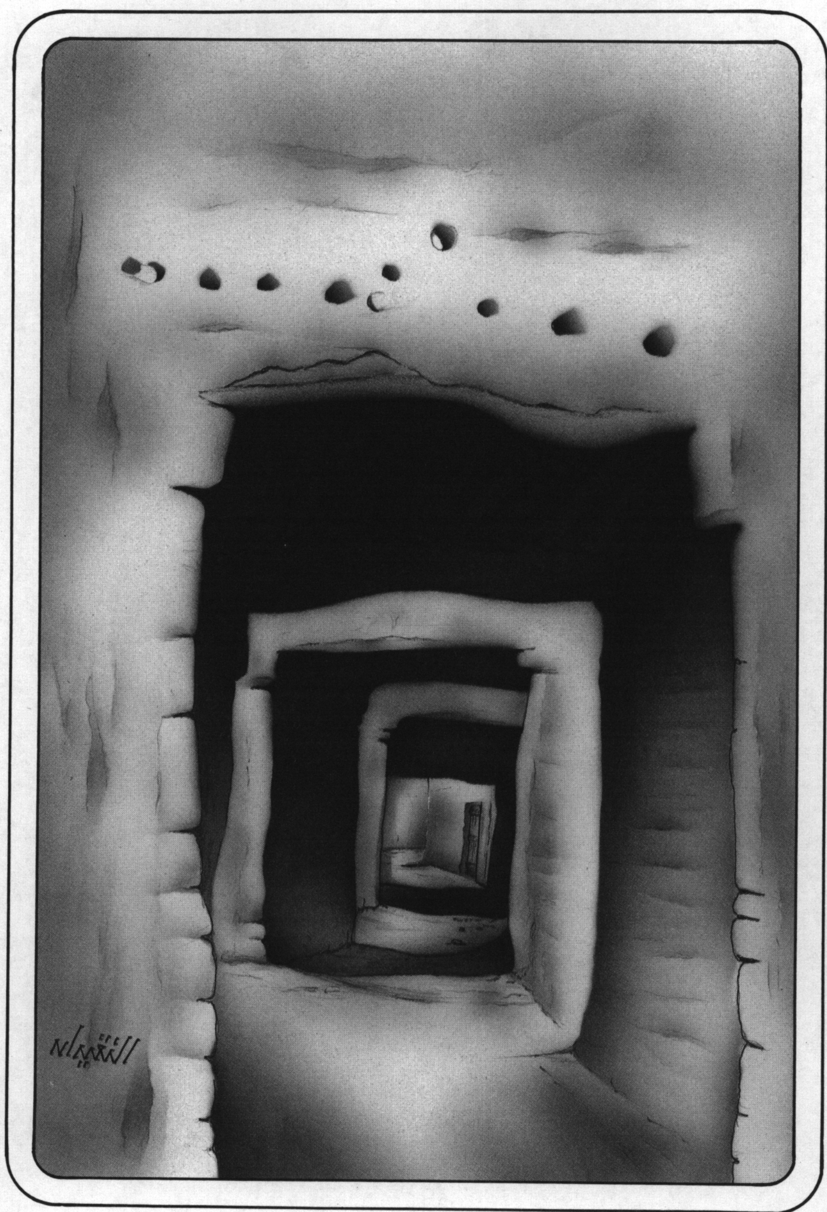


مدرسة المطوع - الكتَّاب ، المدرسة القديمة

المشلَّه (الفلكه) العصا ، الألواح



السِّقاوالقنَّاره والفرشة والرحا



صف من القباب (المجبَّب)



الفلاحة (المزرعة) قديما